



فِي الْعَقِيلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

رسالةً جَدِيدَةً فِي التَّوْحِيدِ

أَكْمَدْ بَعْجَثٌ

تصميم الغلاف:
عبدالسلام السريفي

الطبعة الثالثة
١٩٨٦ - ١٤٠٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تلفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداه

الى محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم
اهدى هذا الكتاب

لو استطاع المسلمين أن يفرشوا جلودهم على الأرض كي يسيرا
فوقها النبي ، ما أعطوه حقه من الوفاء ، فلولا احتماله العناء في الله
ما عرفنا الله .

احمد بهجت

موقف اعتذار

قال لى : لا تأخذ خبرى عن الحرف .
وقال لى : الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف
يُخْبِرُ عَنِّي ؟
من كتاب المواقف للنفرى «

إذا كان الحرف لا يرى نفسه ولا يحيط بها ، فكيف يستطيع التعبير عن الله تعالى أو وصفه ؟ هذه أول صعوبة تواجهه من يكتب عن الله .
بأى حروف يكتب ؟
إن الحروف جزء من اللغة ، واللغة إشارة إنسانية إلى شيء ، والله ليس كمثله شيء .

إذا اجتاز الكاتب مشكلة اللغة معتمدا على اضطراره ، وخاض بحار الحروف ، معتمدا على عفوه سبحانه ، فمن أى موقف يكتب ؟
هل يكتب من موقف رؤية الله عز وجل ؟
أو يكتب من موقف القرب من الله تعالى ؟
أو يكتب من موقف التوبة التي تمنحها الدموع شهادة على الصدق ؟
الموقف الأول في الدنيا مستحيل ، يستحيل على الإنسان أن يقف أمام رؤية الله عز وجل ويوجد . ان دخوله هذا الموقف يعني خروجه من نفسه وصعق ذاته . . يعني فناءه عن الكتابة وتحوله إلى الكلمة ذاتها ، والكلمة هي الصمت العميق .

يروى القرآن الكريم تجربة نبي سأل ربه الرؤية . .
(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما

تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك
تبت إليك وأنا أول المؤمنين)^(١) .

تروى التجربة انهيار الجبل وهو يعاين هيبة الله ، وصعق نبى من أولى
العزم الكبار ، وتوبيته واعتذاره إلى الله حين افاق . . وإن لا يرى الله تبارك
وتعالى على الأرض أحد . . يستوى فى ذلك الأنبياء وغيرهم من البشر .
إذا وقف الإنسان فى موقف القرب من الله تعالى ابتعد عن كل
ما سواه . . ومن ابتعد عن كل ما سواه لم تلزمه الكتابة ، يتلقى فيض الله
تعالى فلا يحتاج إلى القراءة والكتابة ، يصير أميا كالنبي صلى الله عليه
 وسلم . . والكتابية إشارة إلى شيء ، والإشارة تعنى بعد لا القرب ، والمرء
 لا يشير إلى الشيء وهو قريب منه ، وكلما اقترب الإنسان اتسعت الرؤية ،
 وإذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة . وإن فان موقف القرب من الله تعالى
 وقف على الأنبياء والأولياء والشهداء . وهو مستحيل على الخاطئين من
أمثالنا .

لم يبق لنا غير الموقف الأخير اذن . .
موقف التوبة التي تمنح الدموع ملحها الصادق . . يحكى جلال الدين
 الرومى هذه القصة :
 كان رجل يدخل المسجد ، على حين كان الناس يخرجون منه . .
تساءل الرجل :

— ماذا حدث . . ولماذا يخرج الناس من المسجد قبل أن أصلى .
 قال له أحد المصليين : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام الصلاة
 مع الجماعة ، وفرغ من أسرارها وانصرف ، لقد جئت متاخرًا . .
 عندئذ انطلقت من الرجل آهة تصاعد منها الدخان ، وحملت هذه الآهة
 رائحة من دم قلبه .

قال له رجل من الجمع : هب لى تلك الآهة وصلاتي لك .
 قال : وهبته لك وقبلت الصلاة .
 وأخذ الرجل تلك الآهة المقترنة بمائة ضراعة ، فلما جاء الليل قال له
 صوت في الرؤيا : لقد اشتريت جوهر الحياة وشفاء الروح ، فبحرقه هذه
 الآهة ، وبصدق هذا الندم ، وبسبب الضراعة قبلت صلاة الخلق كافة .

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

تُوحى القصة أن طريق الإنسان إلى الله هو قلب الإنسان . حتى لو كان هذا القلب قد جاء بعد اقامة الصلاة وانتهائها وخروج المسلمين ، يكفي أن يطلق القلب آهات الألم والضراوة ، يكفي أن يتوجه إلى الله ، لتصير الآمة صلاة .

قال الكاتب لنفسه إن هذا الموقف الأخير يحتويه ، لقد صنع من تراب وماء ، وأحب وهو معتم ، وفرح كثيراً وحزن أوقاتاً قليلة ، ثم هز الشوق إلى الله ، وعرف أن الإنسان لا يشتق إلى الله إلا إذا غاب عن الله . عندئذ أطلق آهه ندم تمزقت بها روحه ، أخيراً صارت له روح عاشق ، لكنه عاشق مذنب . . عاشق يحمل نفساً كالزجاج الأسود . .
هناك يكشف الزجاج الأسود عن حكمته . .

من خلال الزجاج الأسود نستطيع أن ننظر إلى النور ، دون خوف أن يذهب البهاء بقدرة العينين على الرؤية ..

تصور كاتب هذه الصفحات أنه جاء إلى الدنيا وقع له ما وقع ليصيّر ما صاره ويكتب ما سيكتب ، قبل أن يبدأ عاد إلى الله بذنوبيه ونظر إلى عفوه . . وبرئت نفسه من العلم والفضل والحب ، وتساءل ما الذي بقي له مبرراً ليكتب . ثم صرفه إلى الكتابة ما قاله العارف بالله لتلميذه يوماً وهو يؤنبه :

— ليس لك من المحبة شيء .

قال التلميذ : ولكن لي حسرات المحبين .

تصور كاتب هذه السطور أن مبرره في الكتابة جزء من حسرات المحبين . . لقد ضيّعوا أوقاتاً طويلاً في البعد عن الله ، وليس بعد حسراً بعد عنه . سبحانه . حسراً . .

ولقد دارت الأرض حول الشمس مرات عديدة .

ودار العبد الترابي حول ذنبيه مرات عديدة .

ثم أصابت روحه قطرة من العشق فتغير . . ثم صار قلماً . لا فضل له . في يد المشينة . .

وهكذا تجاسر التراب وتطلع إلى الكتابة عن الله .

نسى التراب بالحب أنه تراب .

اللهم اغفر جرأة المحبين .

أحمد بهجت

«بسم الله الرحمن الرحيم»

تَوْحِيدُ اللَّهِ

يلعب التوحيد دوراً أساسياً في حياة النوع الإنساني ، ويتوقف عليه صلاح الإنسان في الدنيا وخلاصه في الآخرة ، وبقدر ما يكون حظ الإنسان من التوحيد . . يكون حظه من النجاة في الآخرة . . ويكون حظه من رضاء الله عز وجل عليه في الدنيا والآخرة . . والدنيا دار ابتلاء . . بينما الآخرة هي دار الجزاء . .

ومن هنا فإن التوحيد في الدنيا لا يظهر بوجهه الحقيقي كمعيار نهائى وحاصل لقيوں الأعمال الإنسانية أو رفضها . وما أكثر المشركين الذين يأخذون بأسباب النجاح المادي في الدنيا وينجحون فيها .

وما أكثر الجاحدين الذين اكتشفوا أسرار المادة وسخرواها لتقديمهم وتقدموا . .

هؤلاء في الآخرة لا وزن لهم ، ولا قيمة لعملهم في الدنيا . . إن انتفاء التوحيد يجعل أعظم أعمال الخير في الدنيا لا قيمة لها ولا وزن . . بل أن أعمال الخير تذرف في وجوه أصحابها في الآخرة إن كان هؤلاء ليسوا موحدين بالله .

هذا القانون الذي يسرى على الآخرة لا يسرى على الدنيا ، لبداهة أن الدنيا دار ابتلاء واختبار . . ولو قهر الله الخلق على التوحيد والإيمان ليطرأ اختبارهم وذهبت حرثتهم ، ولانتفت الحكمة من خلق الدنيا ذاتها . . وهي حكمة الابتلاء .

(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

توحيد الله تعالى إذن هو أخطر حقيقة في الوجود ، سواء في الدنيا أثناء الحياة الإنسانية ، أو في الآخرة يوم الحساب ، أو في العالم الآخر الذي يبدأ بعد الآخرة ويستمر في الجنة أو النار ..

ولو ألقينا نظرة على الآيات القرآنية فسوف نكتشف أن القرآن الكريم بذلك تجاه مسألة التوحيد عناية خاصة ، تتجاوز ما بذلك تجاه أي مسألة أخرى .. إن آيات الأحكام المبينة لفروع الدين مثلًا يبلغ عددها ٥٠٠ آية ، أما الآيات التي تتحدث عن المعاد مثلًا فإنها تتجاوز الألف آية ..

وهذا يكشف عن اهتمام القرآن الكريم بالمسائل « الفكرية » والقضايا « الاعتقادية » ..

.....

.....

إذا كان التوحيد يحمل هذه الأهمية الهائلة .. فما هو معناه ؟

وما هي مراتبه ودرجاته .. ؟ وما هي أنواعه ..
يقول العلماء ان التوحيد خمس درجات .

□ أولاً : توحيد الله تعالى في الذات ..

والمقصود به أن الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير ولا كفؤ ، ولا يتصور له شبيه أو مثيل .. وذاته المقدسة ليست مركبة من أجزاء كما هو شأن الأجسام ، وليس بسيطة .. إنما هي ذات تبارك وتعالى ولا تشبهها ذات أخرى ..

□ ثانياً : توحيد الله تعالى في الصفات ..

والمراد بهذا أن الله تبارك وتعالى ، وإن كان متصلًا بصفات عديدة كالعلم والقدرة والحياة ، إلا أن هذا التعدد يجيء باعتبار المفهوم الذهني وليس باعتبار الوجود والواقع الخارجي ، بمعنى أن كل واحدة من هذه الصفات هي « عين » الأخرى وليس « غير » الأخرى .. وهي جميعها (عين) الذات وليس (غير) الذات .

فعلم الله مثلًا - هو (عين) ذاته ، فذاته كلها علم ، وكرم الله تعالى مثلًا هو (عين) ذاته ، فذاته كلها كرم .. وهكذا ..

وكل صفة من صفات الله تبارك وتعالى هي عين الذات ، وليس غير الذات .

□ ثالثاً : توحيد الله تعالى في الأفعال ..

خلق الله تبارك وتعالى الكائنات والأشياء ، وخلق خواصها .. فالشمس شيء كوني .. هي نجم قريب من الأرض .. وكل ما على الأرض من طاقات وحياة يستمد وجوده أساساً من طاقة الشمس .. وبغير طاقة الشمس لا يمكن أن تكون هناك زراعة .. وإنذن يهلك الناس جوعا .. وبغير طاقة الشمس لا تكون هناك أمطار .. وإنذن يموت الناس عطشا .. وهكذا

والتوحيد في الأفعال يعني أن تؤمن أن الشمس مخلوق الله تعالى ، وأن خواصها في الإشراق والطاقة مخلوقة الله تعالى .. وقائمة به سبحانه .. وليس نابعة من إرادة الشمس أو فعلها وحده ..

أي أن التوحيد في الأفعال يعني أن يؤمن المسلم أن الله خلق الأشياء ، وخلق قوانينها وخواصها ، فلم يستقل شيء بتأثيره ، ولا خرج شيء عن حكمه .. حتى المخلوقات التي تمارس قدرها وفيها من حرية الإرادة والاختيار كالإنسان والجن ، حتى هذه المخلوقات لا تخرج عن حكم الله ولا تستقل بإرادتها دونه ، وتنخلع من إطار الميشينة الالهية العام .. صحيح أنها تمارس حريتها ، ولكنها تمارسها في حيز محدد يدخل في إطار نفاذ الميشينة الالهية العليا ..

أي أن التوحيد الافتراضي أو توحيد الله في الأفعال يعني الإيمان بالعبارة الآتية :

(لا حول ولا قوة إلا بالله) ..

هذا قانون ينطبق على جميع الخلائق ، سواء كانت هائلة الاجرام أو دقيقة الأحجام ..

إن الشمس لا تخرج عن حكم الله ، كما لا تخرج النملة عن حكمه ، والنجوم لا تخرج عن حكم الله ، كما لا يخرج الإنسان عن حكم الله .. صحيح أن الفرق بين الإنسان والشمس أن الإنسان يستطيع أن يعصي الله ، بينما الشمس طائعة ..

هذا العصيان الإنساني لله .. لا يعني أن الإنسان قد خرج من حكم الله ، واستقل بحكم نفسه ..

إنما هو يعني أن الإنسان لم ينزل داخلاً في حكم الله . . في إطار المشيئة الالهية العليا ، التي سمحت - بسبب الابتلاء - أن يكون للإنسان حظ من الحرية يمارسه ويصير مسؤولاً عنه أمام الله . .
الإنسان مسؤول أمام الله في النهاية وهو لا يخرج من حكم الله . .

□ رابعاً : توحيد الله تعالى في العبادة . .
معنى أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، وأنه لا يوجد مستحق للعبادة سواه سبحانه . .

ولقد قال العلماء أن الخضوع العبودي أمام أحد لا يجوز إلا لأحد سببين . . وهما سبيان لا يتوافران في حق أحد سوى الله عز وجل .
السبب الأول : أن يبلغ المعبود حداً من الكمال يخلو معه من أي قصور ، أى أن يبلغ حداً للكمال المطلق .

السبب الثاني : أن يكون هذا المعبود بيده مبدأ الإنسان ومنشأ حياته ، فيكون خالقه وواهب الروح والجسم له ومانح النعم ومبغى البركات عليه ، ومتوليه في كل لحظة ، بحيث لو قطع عنه فيplode لحظة لاستحال إلى العدم وصار خبراً بعد أثر . .

هل يتتوفر هذان الوضعين في أحد غير الله . .
□ خامساً : توحيد الله في الولاية التشريعية . .
والولاية بمعنى التشريع لها مظاهر ثلاثة . . .
(١) التوحيد في الحاكمة . .

معنى أن الحكم والولاية في القرآن هما لله تعالى وحده ، « آلا له الأمر والحكم » وليس يعني هذا أن الله تبارك وتعالى يمارس هذه الحاكمة بنفسه . . ويدير شؤون عباده التشريعية مباشرة . . إن هذا يشبه مقالة الخوارج حين قالوا لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه « إن الحكم إلا لله . . لا لك يا على ، ولا لأصحابك » وإنما يعني أن على البشر أن يحكموا بما أنزل الله . . وأى حكم لا يستمد وجوده من قيامه بتنفيذ أحكام الله هو حكم خرج على الإسلام . .

(٢) التوحيد في الطاعة :
وتعني أن الطاعة حق منحصر في الله تعالى سبحانه . . وإذا كان الله

يأمرنا بطاعة رسله ، فإنما يأمر بطاعتهم - لا لأنها واجبة في حد ذاتها -
وإنما لأنها طاعة الله . . . « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .
ومن توحيد الطاعة خرجة مقوله « لا طاعة لمخلوق في معصية
الخالق » . . .
إنما تكون الطاعة في طاعة الخالق . . .

(٣) التوحيد في التقنيين :

حق التشريع للعباد ، حق يختص بالله عز وجل . . . فليس لأحد أن
يحكم بعكس ما أنزل الله . . أو بغير ما أنزل الله . . إذا كان الله قد أنزل
حکما صريحا . . وهناك تشريعات واضحة . . وليس أمام البشر سوى
النزول على أحكامها . . كالمواريث مثلا . . وهناك قواعد عامة . . كأمره
تعالى بالشوري « وأمرهم شوري بينهم » . .
وهنا من حق المسلمين أن يضعوا النظام الذي يوافق زمانهم بشرط أن
يتفق مع القاعدة التي أمر بها الله عز وجل . . وهي الشوري . . فليس من
حق أحد أن يحكم المجتمع حكما فرديا أو دكتاتوريا أو بعيدا عن
الشوري . .

وسن أي قانون يخالف قوانين الله عز وجل إثم ، ولكن سن القوانين
التفصيلية فيما أجمله الشارع من حق البشر . . وهذا أمر طبيعي لأن الأحكام
تنتهي بينما الظروف والأحوال لا تنتهي . . من هنا جاء القرآن بأحكام
تفصيلية ، وبأحكام ومبادئ عامة . .

هذا هو التوحيد كما يراه العالم المسلم الشيخ جعفر السبحانى وهى
محاضرات نقلها عنه جعفر الهادى .

فطـرة الله

يقول بلوتارك المؤرخ الاغريقي الشهير منذ ٢٠٠٠ سنة : « من الممكن أن تجد مدنًا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة وأدب ولا مسارح ، ولكن أحدًا لم ير قط مدينة بلا معبد .. أو مدينة لا يمارس أهلها عبادة » .
هذه العبارة القديمة صحيحة .. وهي تسجل أن الشعور الديني أمر ينبع من الفطرة أو يعود إليها ..

إن قراءة التاريخ البشري ، رغم اختلاف الأرض والبقاء واللغات والتصورات ، تؤكد أن الإيمان كان يحتل نفس الإنسان منذ أقدم الحضارات والعصور إلى اليوم ..

إن الإنسان - بحكم ابداعه وتركيبه - هو المخلوق الذي لا بد له أن يؤمن .. هذه تركيبته التي خلقه الله عليها .. وأمام الإنسان دائمًا حق الاختيار .. إما أن يؤمن بالله .. أو يؤمن بشيء غير الله .. إذا كانت الأولى نجا الإنسان وارتفع .. وإذا كانت الثانية هلك الإنسان وهوى ..
وفي فطرة الإنسان .. في الجزء الداخلي من روحه .. يوجد هذا الميل إلى العبادة .. ولقد سأله فرعون موسى سؤالاً عن الله .. قال فمن ربكم يا موسى .. قال :

(ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) « سورة طه الآية ٤٩ ،
. ». ٥٠

إن جميع الموجودات وكل الأشياء - بما فيها الإنسان - طبقاً للنص القرآني تعيش في ظل هداية تكوينية فطرية .. هدايا تقودها إلى الله .. ولقد منح الله تبارك وتعالى لجميع الكائنات هذه الموهبة دون تفرقة .. أى أنه منحهم هذه النعمة بشكل عام .. فلم يخلق جماعة على فطرة الإيمان ، وجماعة أخرى على غريزة الإلحاد أو الكفر .. كلا .. إنما هي فطرة واحدة

فطر الناس عليها (فطرة الله التي فطر الناس عليها . . لا تبدل لخلق الله) . ورد في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (نسبة إلى الم Gors) » . .

قال صلى الله عليه وسلم . . فطرة الله التي فطر الناس عليها . .

هذا يعني أن فطرة الله هي التوحيد الخالص . .

ولقد سئل العلماء والعارفون فيما بعد عن معنى الآية فقالوا : فطتهم على التوحيد عندأخذ الميثاق أو العهد عليهم . . وعلى معرفته بأنه ربهم . . بل أن الآية واضحة الدلالة في الإشارة إلى معناها . . يقول تعالى في سورة الروم (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

إن الآية تفسر نفسها بنفسها كما نرى . . إن الفطرة هي الدين الحنيف . . هي الإسلام . . هي التوحيد . . وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

كيف يكفر الناس بالخالق الرحيم رغم أنه فطتهم على ما فيه سعادتهم وخيرهم . . وهو التوحيد ؟ .

هنا تبرز طبيعة الإنسان . . وهي أنه مخلوق تمنحه تركيبته الإنسانية قدرًا من الحرية الهائل ، وهو قادر يستطيع به أن يختار . . والإنسان حر تماماً في اختياره . .

هناك من يختار حمل نعمة الله ومجداته ممثلاً في الإسلام . . وهؤلاء هم الناجون . .

وهناك من يرفض حمل هذه النعمة ويختار الكفر أو الشرك أو الإلحاد . . وهؤلاء هم الهاكى . .

ونحن نرى من التاريخ البشري أن البشر أحرار في اختيارهم . . وسنعرف حين يجيء يوم القيمة أن هذه الحرية لها مسؤوليتها التي تتفق مع جسامتها . .

(إن السمع والبصر والرؤا كل أولئك كان عنده مسؤولاً) .

:::

سيسأل الناس عن حرثتهم يوم القيمة .. كيف اختاروا بها .. وماذا فعلوا فيها .. وأين وضعوها .. سيسأل الناس عن نعمة الفطرة التي فطرهم الله عليها .. فطرة التوحيد .. سيسألون عنها .. هل حملوها حق حلمها .. هل أدوا أمانتها .. هل زادوا عليها أم أنقصوا منها أم أهدروها ونسيوا خلال صراعهم في الدنيا على الزينة والحطام واللعبة واللهو والتفاخر ..

.....
....

لقد منح الله تبارك وتعالى للإنسان عددا لا يحصى من النعم والمنن .. ولقد حدثنا القرآن أن هذه النعم تستعصى على الإحصاء والعد . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

على رأس هذه النعم والمنن تقف نعمة التوحيد ، أو نعمة الإسلام ، أو نعمة الفطرة .. وهي نعمة وزعت بالتساوي على الناس ، ثم تفاوتت حظوظ الناس فيها بعد ذلك ، عن طريق ممارستهم لحقهم في الاختيار ، وجهدهم فيه .

هناك من رعى هذه النعمة .. وجاهد فيها وشكراها وأقام الخشوع في نفسه توقيرا لها واحتراما .. وهناك من أسقط هذه النعمة ، وكفرها ، ولم يعرف حقها من الشكر أو الحمد ..

ولكل واحد سعيه .. ولكل سعي جزاء .. يقول الحق في سورة النجم (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجازاه الجزاء الأولي) « الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ » .

إذا كان هذا أثر التوحيد على جراء الآخرة فما هو أثره في الدنيا ؟ .

.....
....

افتضلت مشيئة الحق عز وعلا أن يكون الإنسان الموحد لله - أى العبد له - إنسانا حرا في الحقيقة وأن يكون الإنسان الحر مع الله .. عبدا لكل شيء .. وهذا ناتى لهذا القانون المدهش ..

من العبودية لله وحده ، تولد حرية الإنسان . . ومن الاستعلاء على الله ، تولد عبودية الإنسان لكل ما سوى الله . .
أى أن التوحيد هو المنشيء لكرامة الإنسان وحريرته وبغير التوحيد يصير الإنسان عبداً لشيء صنعه بيديه ، يستوى أن يكون هذا الشيء تمثلاً أم آلة من الآلات أم اختراعات أم هو النفس أم رغبات الحواس . .

وللتصور إنساناً من الموحدين أو إنساناً على التوحيد . . نحن أمام إنسان يعرف أن الموت بيد الله وأن الحياة بيد الله وأن الصحة بيد الله وأن الرزق بيد الله وأن النجاح بيد الله وأن الحفظ بيد الله . . ويعرف أنه لو اجتمع الخلق كلهم ضده لما استطاعوا أن ينالوا منه لو حفظه الله ، إذا كانت الحياة والرزق والصحة والأجل بيد الله . .

ألا يكون الإنسان المؤمن بهذا حرا . .

وإذا لم يكن حرا . . فمن يكون حرا . .

.

.

(قل لئن اجتمع الناس والجن على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك .)

ولئن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

رفعت الأقلام وجفت الصحف .)

عهد الله

قبل النسبية ، كان المعروف أن لكل شيء أو جسم أبعاداً ثلاثة ، هي الطول والعرض والعمق ، ثم جاءت النسبية فأضافت بعدها رابعاً هو الزمن . . لأن الجسم لا يخلو من هذه الأبعاد الثلاثة ، كما لا يخلو من الزمن .

ومثلاً لا يخلو أي جسم من تأثير الزمان فيه وتأثيره على الزمان فكذلك لا تخلي الروح من الشعور الديني أو حسن التدين والسؤال الآن . . ما هو مصدر هذا الشعور ؟ .

في القرآن الكريم ثلاث آيات تجيب على هذا السؤال . . هذه هي الآيات التي وردت في سورة الأعراف ابتداءً من الآية ١٧٢ حتى الآية ١٧٤ ، وهي التي يعرفها العلماء باسم آيات الميثاق ، أو آيات العهد .
يقول تعالى في سورة الأعراف :

(إِذَا أَخْذَ رِبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذَرْتَهُمْ وَأَشَهَدْتَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ : أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلِّي شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَانَ عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّا أَشْرَكْنَا أَبْنَائِنَا مِنْ قَبْلِ وَكَنَا ذَرِيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطَلُونَ ؟ وَكَذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ وَلِعَلِّهِمْ يَرْجِعُونَ) .

.....
.....

وللنظر في معنى الفاظ الآية ومدلولها بعد ذلك . ما هو المقصود بالذرية في الآية ؟ وردت لفظة الذرية في ١٨ موضعًا في القرآن الكريم ما عدا هذا الوضع أيضاً ، والمقصود بها في جميع تلك المواقع هو « النسل البشري » . . وليس في ذلك خلاف . . إنما وقع الخلاف في أصل اللفظة ، واشتقاقها فقال بعض العلماء أن هذه الذرية مشتقة من الذر بمعنى الخلق . .

وقال البعض أنها مشتقة من الذر بمعنى الكائنات الصغيرة الدقيقة ، وقال البعض أنها مأخوذة من النزو أو النزى بمعنى التفرق والانتشار . . وتطلق الذرية على نسل آدم لترفقهم على وجه الأرض وأكتاف البسيطة . . وعلى أي حال . . إن معنى اللفظة هو النسل البشري كله . وتفيد الآية أن الله أخذ من ظهور أبناء آدم أنسالهم وذرياتهم ، وأشهادهم على ربوبيته فشهدوا . . واعترف الجميع أنه لإلههم . .

تفيد الآية أن هذه الشهادة التي شهدناها هي شهادة ملزمة ، سوف تسد باب العذر في يوم القيمة في وجه المبطلين والمشركين ، فلا يحق لهم أن يدعوا عدم العلم بهذا العهد أو الميثاق . .

نحن لا نذكر شيئاً عن هذا الميثاق أو العهد ، ورغم ذلك لا يحق لنا أن ندعى الغفلة عن هذا الإقرار . . ويطرح السؤال هنا نفسه :
كيف يمكن أن يسد « إقرار » لا نعلم به ، « باب العذر » علينا ؟
كيف يمكن أن نلزم بميثاق لا نتذكره ، وعده لا نعرف عنه شيئاً ؟
هكذا يتسائل الشيخ جعفر السبحانى في كتابه « معالم التوحيد في القرآن الكريم » . .

وهو يجيب على تساؤله بأن الخطاب في الآية إما أن يكون موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون موجهاً إلى عامة البشر . .
وهو يخلص إلى أن صدر الآية موجه إلى الرسول ، بينما نهايتها موجهة إلى عامة البشر . .

إن القرآن يريد بهذا الخطاب أن يلفت أنظارنا إلى حادث حدث قبل الخطاب لا جيئه ولا بعده بدليل مجيء « إذ » في مطلع الآية . .
ان « إذ » تستعمل إذا كان ظرف الحادثة هو الماضي ، ومعناها « وذكر إذ وقعت هذه الحادثة في الماضي .

ولنستعرض الآن آراء العلماء حول الميثاق في عالم الذر . إن هناك أكثر من نظرية في الموضوع :

أولاً : النظرية الأولى تستند إلى أحاديث صحيحة ، وتقول أن الله تعالى أحضر أبناء آدم عند خلقه ، من صلبه على هيئة كائنات ذرية صغيرة الحجم ، وأخذ منهم الميثاق قائلاً لهم : ألسنت ربكم .
قالوا بلى . .

ثم أعادهم إلى صلب آدم ، وقد كانت هذه الكائنات الدقيقة ذات شعور وعقل كافيين عندئذ . . وقد سمعت ما قاله الله ، وأجبت على سؤاله . . وقد أخذ هذا الاقرار من بنى آدم ليغلق عليهم باب الاعتذار والتخلل يوم القيمة . .

ثانيا : النظرية الثانية تحمل الآيات على التوحيد الفطري وتفسرها هذا التفسير . . وأصحابها يقولون أن الإنسان يضع قدميه في هذه الدنيا ، وهو ينطوى على سلسلة من الغرائز والاستعدادات ، وسلسلة من الحاجات الطبيعية والفطرية إلى جانب سلسلة من المدركات العقلية . .
عبارة أخرى . . أن الإنسان يولد وقد أودعت في كيانه غريزة معرفة الله . .

بعبار ثالثة أخرج الله أبناء الإنسان من ظهور آبائهم إلى بطون أمهاتهم وقد جعل تكوينهم بنحو خاص بحيث يعرفون ربهم دائما ، ويحسنون باحتياجهم إليه تعالى . .

وعندما يحس الإنسان باحتياجاته إلى الله ، ويجد نفسه غارقا في التوجّه إليه سبحانه ف ساعيًّا يكون وكأنه يقال له :
— ألسْتَ بِرَبِّكَ . .

فيقول البشر : بلى . . أنت ربى . .

وعلى هذا يكون الميثاق المذكور في الآية ليس ميثاقاً تشريعياً على نحو السؤال والجواب اللفظيين . . بل هو ميثاق تكويني فطري . . وجوابه كذلك تكويني فطري . .

ومثل هذا النوع من الحوار شائع في القرآن الكريم . . أن القرآن الكريم يقول حول السماوات والأرض :
(فقال لها وللأرض ائتها طوعاً أو كرها قالت أئتنا طائعين)
سورة فصلت .

ويقول العرب في كلام بلغائهم :

□ سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وأينع ثمارك فإن لم تجبك حواراً أجابتكم اعتباراً . .

والله تبارك وتعالى يقول : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) . .

وغاية التفاوت أو الفرق بين آية الفطرة وأيات الميثاق أن آية الفطرة تقول أن الشعور الديني عجن بفطرة الإنسان وخلقته (وجبلته) دون أن تعين الآية زمانا ، في حين أن آيات الميثاق أو عهد الله تتحدث عن تحقق السر الإلهي في كيان الإنسان منذ بدأ تكوينه وظهوره ، أى منذ أن كان ذرة في رحم الأم ..

ثالثا : تقوم النظرية الثالثة وهي نظرية عالم شيعي هو الطباطبائى على أن حوادث العالم تنقسم بالنسبة إلينا إلى حوادث الماضي وحوادث الحاضر وحوادث المستقبل ولكل حادث زمان ومكان . . ولا يمكن للإنسان الذي يعيش ضمن نطاق الزمان أن يشهد الحوادث كلها دفعة واحدة وفي نظرة واحدة والله عز وجل يتعالى على الزمان والمكان ، ومن ثم فإن كل الأحداث حاضرة عنده سبحانه .

ومن ثم فإن العالم ينقسم إلى باطن وظاهر . .
والأيات عند صاحب هذه النظرية تشير إلى نشأة إنسانية سابقة ، فرق الله فيها بين أفراد هذا النوع وميز بينهم وأشهادهم على أنفسهم : المست بربركم . . قالوا بلى شهدنا . .

رابعا : صاحب هذه النظرية هو الشريف المرتضى . . وهو يرى أن الله تعالى قصد بأية الميثاق جماعة من ذرية بنى آدم . . وليس كل بنى آدم . . جماعة خاصة من البشر هم العقلاء الكاملون . . لا من جميع البشر . .

وقد أخذ هذا الاعتراف والميثاق حين أخذ بواسطة الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى البشرية في هذه الدنيا . .

وهذه النظرية مبنية على كون « من » في قوله سبحانه (من بنى آدم) تبعيضية لا بيانية . . ومن ثم فإنها تنصرف للأنبياء . .

.....
.....

هذه هي النظريات الأربع التي تتعرض لشرح آية الميثاق أو العهد . . ولعل أهم نقد يوجه إلى النظريات التي حاولت تأويل الآيات ، أو استبعاد وقوعها بشكل الحوار الذي وقعت به . . أنها تتعارض مع صريح النص . . لأن الآية تنص على وقوع هذا الحوار . .

إن الله تبارك وتعالى يقول «إذ» وهي كلمة تفيد وقوع الحديث في الماضي .

(إذ أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألسنت بربكم؟ .. قالوا : بل شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إننا كنا عن هذا غافلين) .

تصرح الآيات بأن الله تبارك وتعالى قد واجه النوع الإنساني قبل ميلاده من ظهر آدم .. وسأل الله تعالى هذا النوع الإنساني عن خالقه .. وكان السؤال بهذه الصيغة المسيطرة المستفهمة المؤكدة ..

— ألسنت بربكم ..؟

قالوا : بل ..

بهذا تم أخذ العهد على البشر ..

اعترف الخلق بالله وهم في عالم الذر .. في عالم الأرواح .. في عالم الغيب .. اعترفوا واقروا وسجدوا وأقيمت عليهم الحجة البالغة .. كان الموقف سابقاً على الوجود البشري ، ولم تكن الأرواح قد ارتدت ثيابها المؤقتة من الأجساد الإنسانية ذات الصور المختلفة والمصالح المتباعدة والظروف الخاصة والابتلاءات المتعددة ..

كان البشر بغير مصالح أيام أخذ العهد عليهم ولهذا اعترفوا جميعاً بربوبية الله وهم أرواح في ظهر أبيهم آدم ..

وبقي أن يعترفوا بعبوديتهم لله وهم أجساد على الأرض ..
إن الاعتراف الثاني تابع للاعتراف القديم ..

إن الاعتراف بالربوبية يقود مباشرةً للاعتراف بالعبودية ..

غير أن الناس تختلف حين تهبط إلى الأرض .. فيهم من ينكر هذا اليوم الأول ، وفيهم من ينسى أو يتناهى ، أو يذكر ويحارب هذه الذكرى .. ولهذا تختلف حقائق الناس على الأرض ..

وينقسمون إلى مؤمنين وغير مؤمنين .. ومثلاً تختلف صور الوجه وبصمات الأصابع تختلف حظوظ الأرواح من الأخذ بالتوحيد ..

قد يقال لنا : أن البشر لا يذكرون هذا العهد ..
لنفترض أننا لا نذكر ..

أى شيء فيها ..

أن الله تبارك وتعالى علم أنتا لن نذكر ولهذا يذكرنا بقوله تعالى في الآية
القرآنية . . . ويدركنا بآلاف الآيات في كتاب الكون المفتوح . . .

· · · · ·

عهد الله إذن ملزم للبشر . .
تذكروه أم ادعوا نسيانه . . هو ملزم للبشر . .

معرفة الله

على امتداد اليوم كله . . .
يعلن الإسلام عن نفسه كدين من أديان التوحيد خمس مرات في
اليوم . . وذلك في آذان الصلاة . .
ليست مصادفة أن تبدأ إقامة الصلاة بقول المسلم . .
« الله أكبر » . .

هذا الاقرار هو نقطة البدء في عقيدة التوحيد . . وهو الصورة الأولى
التي ينبغي أن تملأ عقل الموحدين بالله ، ولا يحدد الآذان كيف أن الله
أكبر . . لا يقول أكبر من أي شيء . . الكلمة مطلقة وشاملة . .
لا يعارضها شيء ولا يكابر عليها شيء ولا يقف أمامها شيء .
الله أكبر من الخلق .

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)^(١)
الله أكبر من الكون الظاهر والكون الخفي .
(وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميراً قبضته يوم القيمة
والسماءات مطويات بيديه سبحانه وتعالى عما يشركون)^(٢) .
الله أكبر من ظلم الظالمين ورحمة الراحمين . . أكبر من أحزانك
وخطاياك إذا أسرفت على نفسك وعدت إليه بالتوبة .
(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله
إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)^(٣) .

(١) سورة الأعراف الآية ٦٧ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .

(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ .

الله أكبر من معجزات الأنبياء ، وasharat الملائكة ومعانى الكتب السماوية .

فالملائكة والأنبياء عباد من عباد الله . . وحقيقة الله أكبر من دلالات الحروف وasharat العباد .

الله أكبر من كل شيء . . وهو فوق كل شيء ، ومع كل شيء ، وخلق كل شيء ، ووارث كل شيء ، ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء . .
(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ^(١) .

تقرر عقيدة الإسلام أن الله تبارك وتعالى « ليس كمثله شيء » . .
كيف يمكن لعقل الإنسان وهو شيء ، أن يعرف من ليس كمثله شيء .
للوهلة الأولى تبدو هذه المعرفة مستحيلة ، وتتضح استحالتها في حق الكائنات جميعاً . .

قال الإمام الجنيد : لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى .
يقصد الجنيد هذه المعرفة التامة الحقيقة التي تليق بجلال وجهه وعظمته سلطانه .

هذه المعرفة وقف على الله وحده . .

قال الإمام الغزالى « كل ما دار في وهمك ، وتصوره ذهنك ، وتخيله عقلك ، فالله غير ذلك » . .

« فان قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى . . فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة . . يستحيل أن يعرف الله تعالى ، هذه المعرفة المحيطة بكل صفات الربوبية ، إلا الله تعالى » .

وقد يسأل الرسول لهذا المعنى اشارة معجزة قوله : « ربنا لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . .

لا يريد الرسول أن يقول أن قلبه عرف ما لا يطأوه لسانه في التعبير عنه كما قد يفهم البعض ، إنما يريد أن يقول - وهو أشرف خلق الله وأعرفهم به - أنه لا يحيط بعظمته سبحانه ، ولا يحيط بجلال إلوهيته ، وأن الله هو المحيط بها وحده . .

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

لا يعلم الله إلا الله فاتئدوا والدين دينان : إيمان ، واسرارك
وللعقل حدود لا تجاوزها والعجز عن درك الإدراك إدراك
إذا اتفقنا على أن المعرفة الحقيقة لله تعالى مستحيلة في حق الكائنات ،
ثابتة لله وحده ، فما الذي بقي للبشر من هذه المعرفة . وكيف تتفاوت درجات
الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء فيها ؟

بقيت المعرفة النسبية . . معرفة أسمائه سبحانه ، ومعرفة عجائب صنعه
في الكون وأسراره في المادة . . وللمعرفة سبلان : أحدهما السبيل الحقيقى
الذى يتاح لخالق الشيء ، وذلك السبيل مسدود في حق الخلق ، ملك الله
وحده ، وثانيهما السبيل النسبى ، وذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت
مراتبهم . . فليس من يعرف أن الله تعالى قادر عالم ، كمن رأى بعينيه
عجائب آياته في السماء والأرض ، وليس من يعرف أن الله باريء مصور ،
كمن عاين بداعع صنعه وأطلع على تفصيلات إعجازه . .

ولله المثل الأعلى . .

ولكن الإمام الشافعى له أسانذة وله تلاميذ وعنه بواب لداره . . وهؤلاء
جميعاً يعرفونه ، يعرفه أستاذه ويعرفه تلميذه ويعرفه بباب داره . . وتختلف
معرفة كل واحد حسب اختلاف حظه من العلم به . . مدى معرفة الباب به أنه
عالم في الشرع ، ويدرس التلاميذ اجتهاداته في الفقه وأحكامه ، ويعرف
أسانته كيف تكون عقله وتحت أي المؤثرات اتجه تفكيره .
وهكذا تختلف معرفتهم له .

ومثلاً تتفاوت بصمات أصابع الخلق وعقولهم وحظوظهم من
المشاعر ، تتفاوت معرفتهم بالله تعالى ، وعلى قدر المسافة التي تقطعها سفن
القلوب في بحار المعرفة الإلهية تكون المعرفة . . وليس معرفة النبي صلى
الله عليه وسلم مثل معرفة إنسان معاصر . . ولا معرفة موسى كمعرفة
فرعون . .

صدق من قال : لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى .
وصدق من قال : أن معرفة الله تجربة شخصية ، ومعرفته سبحانه
تختلف من إنسان إلى آخر .

هذا كله صحيح ، وأصح منه أن الله تبارك وتعالى يظل مستعлиاً
بكريائه ، محتاجاً بأنوار رحمته غاية لا تدرك . . وذاتنا
لا تستشرف .

رغم ذلك تسفر الرحلة إليه عن هدف الوجود البشري وغاية المطاف .
(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)^(١) .

(١) سورة الانشقاق الآية ٦ .

عطاء الله

يقول حديث قدسي يرويه الرسول عن ربه « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخاقت الخلق فبى عرفونى ». إذا أراد الكنز أن يدل على نفسه ، فذلك يعني انصراف مشيته إلى العطاء .

بماذا تحس لو أرشدك أحد إلى كنز خفى صرت بعده أغنى من فى الأرض ؟ كيف يكون شعورك بالإمتنان والحب نحو من بذلك عليه .
ماذا لو كان هذا الكنز هو الله ؟
ماذا لو كان دليلا إلى الله هو الله ؟
لو عرفت أن كل ما فاتك من الله سوى الله يسير . وكل حظ لك سوى الله قليل .

لو عرفت ذلك لتكتشف لك عمق من أعماق الرحمة الإلهية في الخلق ..
لماذا يريد الله سبحانه من خلقه أن يعرفوه .. ومن هو المستفيد من هذه المعرفة ؟ .

سئل أحد العارفين بالله : لماذا خلق الله سبحانه وتعالى هذه المخلوقات ؟
هل كان في حاجة إليهم .. أجاب العارف : كلا ، ولكنه خلقهم من أجل حاجتهم هم إليه ومن أجل ثلاثة أشياء ..
الأول .. لما كانت قدرته أعظم من أن تدرك .. كان لا بد لها من مشاهدين .

الثاني .. لما كانت نعمته أكثر من أن تحد .. كان لا بد لها من مستقبلين .
الثالث .. لما كانت رحمته أوسع من أن تضيق .. كان لا بد لها من آثمين .

سبحانه وتعالى ..

يخبرنا تقدست ذاته ، عن استعلاء ذاته وحاجة عباده ..

(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)^(١) .

إذا كان الغنى الحميد يدعو الفقراء إلى مائنته ، فأى غرض لهذه الدعوة

غير العطاء . أتسأل عن حدود العطاء وقد جاء من بحار الكرم .

هو عطاء لا يتوقف قبل خلق الإنسان ، ولا يتوقف أثناء حياته ، ولا بعد

موته ، ولا حين بعثه أو ساعة حسابه .. هو عطاء أكرم الأكرمين

سبحانه ..

.....

.....

في البدء كان الله .

ولا شيء مع الله .

ولا شيء غير الله .

قائم بنوره وكبرياته وحده .

استغنى بذاته عن سواه ، وافتقر إليه ما عداه ، وما كان هناك سواه ،
ولا كان هناك ما عداه . ولأن الله تعالى هو الله وهو الخالق ، ولأنه يعلم
سبحانه افتقار من لم يخلق بعد من خلقه إليه ، ولأن مشيئته تنفذ بمجرد
توجهها إلى الشيء ، تشاء إرادته سبحانه الخلق ، فيأمر الكون بالمثول بين
يديه . حضورا من العدم . طائعا أو كارها .. فيتمثل الكون ساجدا بين يدي
الطاعة .

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتها طوعا
أو كرها قالتا أتينا طائعين)^(٢) ..

ثم تشاء إرادته سبحانه أن يفيض من رحمته وعطائه فيخلق الخلق ،
ويمضي فيض الرحمة والعطاء فيخلق آدم ، ويستمر فيض الرحمة والعطاء
فيخلق من آدم وزوجه النوع الإنساني ، وتصل الرحمة قمتها وبلغ العطاء
ذروة الذرى فإذا نحن نستمع إلى مزامير داود ونوراة موسى وإنجيل عيسى
وقرآن محمد ..

(١) سورة فاطر الآية ١٥ .

(٢) سورة فصلت الآية ١١ .

كانت البداية كنزا مخفيا ..

ثم شاء رب العالمين أن يخلق معجزاته . . من العدم إلى الدخان إلى الماء إلى بلايين النجوم إلى قطعة الصلصال إلى الخلية الحية إلى مخلوق يكتشف الكون ويبحث في السماء ويعرف الحب ويسعى لعطاء خالقه . .
أى قدرة من الله . . وأى حب للإنسان . .

يقول العارفون بالله « ذكرنا الله قبل أن نذكره ، وعرفنا قبل أن نعرفه ، وأعطانا قبل أن نسأل عنه ، ورحمنا قبل أن نتضرع إليه . . كيف نسمح لقلوبنا أن يكون فيها سواه » .

..

قال تعالى :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(١) .

والعبادة قمة المحبة ، والمحبة قمة المعرفة . . وليس بعد هذا الفضل شيء .

أن الله سبحانه وتعالى ، والكرياء إزاره والعظمة رداوئه ، قد شاء لعباده أن يعرفوه وأنذن لهم أن يعبدوه ، ولو لا رحمته بالناس ما منحهم مجد عبادته . .
ولأن المجد لا يناله إلا أصحاب المواهب الرفيعة قل عدد العارفين وزادت كمية التعasse .

هكذا ينظر العارفون بالله إلى العالم ، يجدون الحب قانونا حاكما في الوجود ، ويرون عطاء الله سببا في ميلاد الكون والإنسان ، ويسعون أن رحمة الله نسيج يشف به ثوب الكون على رحابته وجلاله ، وهم يرون أن الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه . . وخلقنا ليتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .

قرئت هذه الآية أمام جلال الدين الرومي شاعر الصوفية الأكبر فبكى :
(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)^(٢) .

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

إن الله يتوعد أثم الارتداد عن الدين وهو أفح الذنوب القاسية ، بأرقى ما في الوجود من مشاعر الحب وقيمه . . أنه لا يهدم المرتدين عن دينهم بالنار أو النحاس الم世人 أو القتل ، إنما يهدمهم بأن يستبدلهم بقوم يحبهم ويحبونه . . إن القيمة الوحيدة التي تقف على نقيض الردة والشرك . . هي حب الله . .

سئل جلال الدين الرومي ما هو العشق فقال : حين تصير مثنا فسوف تعلم . . أن العشق هو المحبة بغير حساب ، ولقد قيل انه صفة حقيقة الله ، وأما اتصف العبد به فمن قبيل المجاز . . أن كلمة « يحبهم » يقين كامل . . أما كلمة « يحبونه » فمن ذا الذي يصدق عليه هذا الوصف . . نريد أن نتأمل قليلا في عبارة جلال الدين .

لماذا يعتبر أن اتصف العبد بمحبة الله مجاز ، بينما اتصف الله تعالى بمحبة العبد يقين كامل . .
نعرف أن قانون الحب الأعلى هو العطاء .

إذا كان الحب عطاء ، فإن الله هو المعطى وحده في الحقيقة . . يعطى الله تبارك وتعالى للعبد كل شيء ، ابتداء من نعمة الخلق من عدم ، وانتهاء بنعمة القبول والدخول في الرحمة . ماذا يعطي العبد الله تعالى مقابل ذلك . . ماذا تستطيع أنت كإنسان أن تعطي الله . . لا شيء على الاطلاق . .

لو انفق الإنسان كل ماله في سبيل الله ، فإنه لا يعطي الله شيئا . لأن المال مال الله الذي استأمنك عليه وأودعه عندك ، ولو مزق المرء جسده آلاف الشظايا في سبيل الله ، فإنه لا يعطي الله شيئا ، لأن الجسد ملك الله الذي سخره لك ، ولو ناعت روحك تحت أنقاض العذاب في سبيل الله فإنك لا تعطي الله شيئا . . أنت وما تملك ملك الله أصلا . . ولا يقال لمن يرد الوديعة للملك الأصلي أنه يعطيه . .

وإذن لا يسرى قانون العطاء حقيقة إلا على الله . . وليس غير الله تعالى محبًا في الحقيقة . .
وهم إذن أن يتصور الإنسان أنه يحب الله . . الحقيقة أن الله تعالى هو الذي يحب الإنسان .

برغم ذلك . . نرى الكريم العظيم يقبل من الناس الشكر بدلاً من
العطاء ، ويجعله - رحمة منه - سبباً في زيادة العطاء .

قال تعالى :

(وإن تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم)^(١) .

(١) سورة إبراهيم الآية ٧ .

ذات الله

لو أن الحكمة الإلهية تكشفت للعبد ببعادها الكاملة . . لذهب اختيار الناس ويطلت حركتهم وتوقف صرائهم . . ذلك أن انكشف الحكمة الإلهية لأى إنسان ، يعني أنه لا يعود إنساناً كما كان . إن الفترة التي يستغرقها التأمل في الحكمة الإلهية حين تكشف ، يمكن أن تمتد ملايين السنين . . والدهشة التي تولد في نفس الإنسان حين يعرف حكمة الله ، تستطيع أن تقضي على إدراك الإنسان الإنساني ، ويمكن أن تدمر كيانه المحصور في الرغبات والآحالم والأمال . .

ولذن لا يتحرك الإنسان حرفة واحدة .

يكف عن محاولة استكمال نقصه وتسجنه الدهشة في مكانه . .
لا يصبر الإنسان حين يعاين طرفاً من حكمة الله ، مثلما لم يصبر موسى وهو يرقب تصرفات الخضر وهو يخرب السفينة ويقتل الغلام البريء ويصلح جداراً في قرية أبىت أن تصيفهما . . إن غضب موسى ودهشته واحتاججه على تصرفات العبد الذي آتاه الله من لدنـه علماً . . كان أمراً طبيعياً للغاية .
لقد وقف موسى وهو نبـى من أولى العزم العارفين بالشريعة ، وقف أمام عبد يعلم طرفاً من حكمة الله فلم يصبر عليه . . (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)^(١) . كذلك حدثه العبد العالم بالحقيقة . .

رحمة بالناس . . اخفى رب الناس حكمته عن البشر . .

أعطى الناس من حكمته قدرًا يمكنهم من الخلافة في الأرض ، أو تحقيق مشيئته في عمارة الكون .
وأعطى الأنبياء من حكمته قدرًا أعلى يمكنهم من الدعوة إليه ورسم آفاق الكمال الإنساني .

وأعطى عبداً من عباده آتاه من لدنـه علماً ما لم يعطـه لنـبـى من أولى العزم .

وأعطى الملائكة من حكمته قدرًا يمكنهم من أداء مهامهم الجليلة .

(١) سورة الكهف الآية ٦٨ .

أما عمق حكمته . أما سر حكمته . . فقد أبقاءه سرا لذاته سبحانه . .
كيف يتصور الإنسان أن يكشف الله ذاته سبحانه . . وهو قد أخفى
حكمته . . أفضل من الأسئلة حول الذات الإلهية أن نسجد ونقترب .
ذلك أرقى للإنسان وأكرم لعقله .

رغم هذه الحقيقة ، نرى الإنسان لا يكف عن الأسئلة . . سواء كانت هذه
الأسئلة عن حكمة الله أو ذات الله .

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي أثار غبار الأسئلة حول ذاته قبل
مجيئه . . و هو المخلوق الذي لا يكف عن طرح الأسئلة على نفسه بعد
مجيئه . . قبل خلق الإنسان ، أثار وجوده قبل أن يوجد رغبة الملائكة في
السؤال . . رغم أن طبيعتهم تتجاوز الأسئلة إلى الطاعة المطلقة .

(وإن قال ربكم للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . .
قال إني أعلم ما لا تعلمون)^(١) .

صحيح أن سؤال الملائكة كان سؤال استفهام واستشراف ، ولم يكن
سؤال انكار واعتراض ، ورغم أي شيء ، فقد حرك فيهم آدم الرغبة في
السؤال . . وبعد خلق آدم . . قال خالقه عنه (وكان الإنسان أكثر شيء
جدلا)^(٢) هو المخلوق الوحيد الذي لا يسجد طواعية واحتياراً بغير أن
يفكر ، وهو المخلوق الوحيد الذي لا يتوقف عن الأسئلة .

لماذا خلقنا الله ؟ لماذا خلق الله العالم ؟ متى تبدأ الحرية الإنسانية ومتى
تنتهي ؟ متى يبدأ الجبر الإلهي ومتى يتوقف ؟ لماذا يbedo الألم نسيجاً من
أنسجة الحياة ؟ لماذا خطيء ، ولماذا خلق الله أليس رغم علمه أنه
سيعصيه ؟ كيف يبعثنا الله بعد الموت ؟

ستتعثر على ألف « لماذا » وألف « كيف » .

هذا تكوين الإنسان ، وهذه طبيعته ومعجزته في ذات الوقت .

والأصل في العقيدة الإسلامية هو المعرفة والسؤال . .

من حق الإنسان أن يسأل عن كل شيء . . وأي شيء . .

من حق الإنسان أن ينشر أشرعة الفكر ويبحر بعقله في بحار المعرفة .

(١) سورة البقرة الآية ٢٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٥٤ .

ليس هناك غير منطقة واحدة محرمة . .
منطقة الأسئلة عن ذات الله تبارك وتعالى .
لسبب بسيط . .

إن ذات الله تبارك وتعالى تتجاوز طاقة العقل البشري وقدرة الفكر الإنساني ، يضيع العقل حين يحاول الدنو من تصور الذات الإلهي قبل خلق الوجود أو بعده ، مثلما يضيع الطفل لو رسم مركتبا على الورق وحاول بها عبور المحيط . .

يضيع العقل ويتبعد ولا يصل لشيء .
سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله .
قال : الله .

قال له : فما العقل .
قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .
لو وضعنا كلمة (مخلوق) بدل كلمة (عاجز) لكنا أقرب إلى الدقة . .

— العقل مخلوق لا يدل إلا على مخلوق مثله .
من نقطة البدء هذه ينهى الإسلام عن سياحة العقل في منطقة الذات الإلهية . . احتراما للعقل وخشيته عليه ، وإجلالا للذات الإلهية وتقديرها حق قدرها . .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية هي المسئول الأول عن قيام المنهج التجريبي في دنيا المادة ، وهي المسئول الأول عن اطلاق العنان للفكر وحثه على النظر والتأمل ، فإن ذات الله تبارك وتعالى ليست مادة تخضع لأسئلة العقل . . وإذا كانت العقيدة الإسلامية أكثر العقائد احتراما للعقل ومخاطبة له ، فإنها قد بيّنت للعقل حدوده التي يتوقف عندها .

وفي دنيا الغيب لا يلجم المسلم إلى العقل .
إنما يلجم إلى الوحي يأخذ عنه . . ويكتفى به . . ويصدق رسوله الذي أنزل عليه . . يقول الله تبارك وتعالى عن نفسه أنه (لا تدركه الأبصار)^(١) .

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

وأنه (ليس كمثله شيء) ^(١).

بعد هاتين الآيتين يصير السؤال عن ذات الله إيجارا في مياه غريبة لم تُرجع أحداً من أبحر فيها.

وإذن يمنع السؤال من باب الرحمة . . مثلاً تمنع السباحة في المياه الخطيرة من باب الرحمة .

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا :

خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟

فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله » . .

هذا أحد الأسئلة التي تخطر بالذهن البشري ، وهو سؤال بلغ من خطورته حديث النبي صلى الله عليه وسلم عنه .

والسؤال أصلاً خطأ . . وهو بتعبير عصتنا غير علمي . .

وهو غير علمي لسبب بسيط . . أنه يفترض خضوع الله تبارك وتعالي لقوانين الحياة الإنسانية . .

تعرف الحياة الإنسانية بالمشاهدة والتجربة والمنطق أنه لا بد لكل شيء من موجد ، ولا بد لكل مخلوق من خالق . . وإن فهى تتصور أن هذا القانون يمكن أن ينطبق على الله . . ولهذا تسأل : من خلق الله . . نحن نعرف أن الأسماك تعيش في الماء وتتنفس فيه . . هذا قانونها الخاص .

ونعرف أن الطيور تعيش في الهواء وتطير فيه . . هذا قانونها الخاص .

لو سألت أحدي الأسماك زميلة لها : لماذا لا تسبح الطيور مثلكنا تحت الماء . . فهذا هو نفسه سؤال من يسأل : خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ إن السمكة أرادت تطبيق قانونها الخاص في الحياة على الطيور . . الإنسان يحاول تطبيق قانونه الخاص في الحياة على الله . . والله المثل

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

الأعلى . . ولكن محاولة تطبيق قانون يختص بأحد الكائنات ، على كائن غيره يختلف عنه . . هو أمر غير علمي وغير موضوعي . . لهذا السبب لم يرد الرسول على السؤال . . استبعده برفق ورد العقل إلى الصواب والايمان قائلا : « من وجد شيئاً من ذلك فليقل أمنت بالله » . نحن نعرف أن الإنسان يستطيع أن يتحرك وينتقل من مكانه ، بينما الأشجار لا تتحرك إلا إذا حركها أحد . من صفات الإنسان أنه يتحرك بذاته ، ومن صفات الأشجار أنها لا تتحرك بذاتها . . من صفات الأسماك أنها تتنفس في الماء ، ومن صفات الطيور أنها تختنق وتغرق في الماء . .

لكل كائن في الوجود قانونه الخاص أو ناموسه . . ومن صفات البشر أنه يجيء من طريق الولادة . . ومن صفات الله أنه « لم يلد ولم يولد » . . من طبيعة الإنسان والمخلوقات أنها لا توجد بذاتها . . لا بد لها من موجود وخالق . .

أما جلال الإلهية . . (ولا نقول قانونها) فيتعالى على احتياج الإله إلى موجد . .

السؤال إذن عن خلق الله خطأ . .
أساسه خطأ . . وجوابه آمنت بالله . .

نحن ننعم بخير مئات العناصر دون أن نعرف ذواتها أو حقائقها . . ننعم بخير الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية دون أن نعرف كنهها ، صحيح أننا نعرف الانتفاع بها والاستفادة منها ، وصحيح أن هناكآلاف الكتب العلمية عنها ، ولكن كتابا واحدا من هذه الكتب لا يحاول معرفة كنه هذه العناصر . .

تدرس العلوم آثار العناصر وخصائصها وتأثيرها ونظرياتها وقوانينها . . أما حقيقتها فما زالت سرا . .

كيف يتجاوز العلم معرفة حقائق الأشياء المادية وذواتها ، ويحاول طرح الأسئلة عن الذات الإلهية . .

.
.

إن العلم يمتليء بآلاف الأشياء التي يمكن اعتبارها غيباً . . والغيب هو كل ما غاب عنا . . ورغم ذلك لا يرفض الناس العلم رغم امتلاكه بالأسرار المغيبة . . فلماذا يرفضون الدين إلا إذا منح كل أسرار غيبه لهم .
لا يستقيم المنطق هنا . .

ولقد ضل أقوام كثيرون تكلموا في ذات الله تبارك وتعالى . . وكان كلامهم سبباً في اختلافهم وفتنتهم ، لأنهم تكلموا فيما لا يقدرون على معرفته ، وإنما اختص الله وحده بمعرفته . . ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفكير في ذات الله . . قال : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذات الله فنهلكوا » ليس هذا المنع حبراً على حرية الفكر ، ولا تضيقاً على العقل ، ولكنه خوف عليه أن يقع في الهلاك أو العبث . . إذ يعالج أمراً لا يملك أدوات علاجه ، ويبحث شيئاً ليس مهياً في الأصل للبحث فيه . . وقد كانت هذه طريقة الصالحين من عباد الله ، العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره . .

سأل سائل يحيى بن معاذ :
أخبرني عن الله عز وجل ؟
قال : إله واحد .

قيل له : كيف هو ؟
قال : ملك قادر .

قيل له : أين هو ؟
قال : هو بالمرصاد .

قال السائل : لم أسألك عن هذا .

قال العارف بالله : ما كان غير هذا صفة المخلوق . . أما صفتة فما أخبرتك عنه .

الوعي بالله

أصل الإنسان وفصله هما التراب والنطفة .
جد الإنسان الأول هو التراب .
وأبوه المباشر هو النطفة .

والتراب يوطأ بالأقدام ، والنطفة تغسل منها الثياب . . فتأمل من يستعلى على الله تعالى وينكره أو يجده ، متناسياً أصله وفصله (الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)^(١) .

من التراب والنطفة أمر الله العظيم أن تقع المعجزة . فإذا نحن أمام كائن جديد هو الإنسان . . كائن لا علاقة له بأصله ولا بفصله . . كائن تختلف مادته عن مادة الجد والأب ، كائن شرفته العناية الإلهية فسخرت له كل ما في الكون ، وكرمته الرعاية فأسجدت له الأرض وذلتها لعقله ، كائن وقع عليه اختيار الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة في الأرض . .
كائن يختلف عن الملائكة كما يختلف عن وحوش الغابة . .
يختلف عنهم بالعقل . .
ويختلف عنهم بالوعي الإنساني . .

ولكنه يتساوى معهم ومع بقية الخلائق من بنى جنسه في الافتقار إلى الله . . وال الحاجة إليه . . وعدم القيام بنفسه . . وعدم الاستغناء عن ربه أبداً .
يستوى في فقره إلى الله من يعرفه ومن ينكره . . ويستوى في الحاجة إليه من يعبده ومن يلحد في اسمائه . . احتاج الناس جميعاً إلى الله . . وإن أختلف احتياج المؤمنين عن الملحدين في الوعي .

(١) سورة السجدة الآياتان ٧ ، ٨ .

يدرك المؤمن بوعيه أنه يحتاج إلى رحمة الله وعونه . .
ولا يعي الكافر أنه يعيش عالة على نعم الله رغم أنه يجحد المنعم .
اختلاف الإدراك عند العارفين والمنكريين هو الذي يضع العارفين على
قمة الخليقة - بسبب الوعي - . . . ويضع المنكريين في مرتبة أدنى من حصى
القاع وصخور الجبل . .

ليست العبارة الأخيرة تعبيراً أدبياً وإنما هي قاعدة من قواعد العقيدة
الإسلامية . . تقوم العقيدة الإسلامية على قاعدة رئيسية تقول أن جميع
الكائنات تعرف لها خالقاً هو الله ، وتدرك بطبيعتها الخاصة أن لا قيام لها
بغيره ، وتسبح له وتعبده بأسلوب غامض قد يخفى على بقية الخلق وإن كان
الله وحده يعرفه .

لا يخرج عن هذه القاعدة أحد . ولا يشد عنها مخلوق .
يستوى في ذلك النجم والشجر (والنجم والشجر يسجدان . . فبأى آلة
ربكما تكذبان)^(١) .

يستوى في ذلك حيوان الصحراء الشارد وصخور الجبل الهاوية (وإن
من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهون تسبيحهم)^(٢) .

يستوى في ذلك المؤمن والمنكر . . إذا كان المؤمن يسبح الله بلسانه
وعقله وقلبه ، فإن المنكر لوجود الله لا يستطيع الزعم بأنه هو المسئول عن
تسخير قلبه ودقاته ، ولا يستطيع الزعم بأن الآف العمليات الكيميائية التي تقع
في معدته تقع تحت اشرافه وهيمنته وتحكمه . . هذا النظام المحكم الدقيق
نوع من أنواع تسبيح الخلايا لله ، وإن لا يستطيع أعني الكافريين أن يمنع
خلايا جسده من تسبيح الله رغم أنفه ، ولا يستطيع أن يمنع جوارحه من
الشهادة عليه يوم القيمة رغم أنفه . . وإن يبقى القدر الإلهي قائماً في
الحالتين . . في الدنيا والآخرة . .

معيار التمييز هنا هو الوعي . .

وعى الكائن بحقيقة وجوده ، واكتشافه أنه سيد من صنع الله ، وعبد
لرحمته وجلاله .

ماذا لو سقط عن الإنسان وعيه بالله ؟ ماذا لو أسقط الإنسان وعيه بالله ؟

(١) سورة الرحمن الآية ٦ والآية ١٣ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٤٤ .

يحدثنا التصور الإسلامي عن حجارة أرق وألين من قلوب البشر .
يقول الله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة
أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأتهاى وإن منها لما
يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله)^(١) .
يصرح النص القرآني أن هناك حجارة تهبط من خشية الله .
يصرح النص القرآني أن هناك قلوبا من اللحم والدم حاربت الله
 وأنكرته .
خلقها أرحم الراحمين فحاربته وأنكرت نعمته وقتلت أنبياءه وأضطهدت
أولياءه وسخرت من المؤمنين .
كيف ؟

أيكون لحجارة الجبل من الوعى الغامض والأدراك الصامت ما ليس
لإنسان ينكر الله تعالى ؟ .

إن الإجابة الصحيحة للسؤال هي : نعم .
وستبقى إجابة السؤال سرا من أسرار الخليقة .
إن الوعى صفة إنسانية أصلًا . . وإن خلاعها عن الإنسان يعيده عاريا
إلى التراب الذي جاءت منه نشأته الأولى . بل إن إنخلاع الإنسان عن وعيه
بارادته ، وكفره بالله تعالى ، يجعله ينزل في مرتبة الخلائق عن درجة
التراب الذي جاء منه .

تأمل قوله تعالى في القرآن الكريم مخبرا عن أحد الكافرين ، وكيف
يلقى أمنيته في وجه التعasse التي تنتظره يوم القيمة قائلا :
(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت
ترايا)^(٢) .

ولذن فقد صار التراب أمنية ورغبة مشتهاه .
وكيف يكون التراب أمنية إلا إذا كان الإنسان بغير وعي أقل منه
وأدنى .
من هنا تجيء أهمية معرفة الله تعالى .

(١) سورة البقرة الآية ٧٤ .
(٢) سورة النبأ الآية ٤٠ .

بغير معرفة الله ينعدم وعي الإنسان ، وتصير حجارة الجبال أرق من قلبه وألين ، ويصير تراب الحقول أشرف من عقله وأكرم .

قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)^(١) . فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة ، وقرأ الآية هكذا وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون .

والمعرفة أنواع عديدة ، منها معرفة الإنسان لنفسه ، ومنها معرفة الإنسان لخصائص الحياة وطبائع الأشياء ، ومنها معرفة الإنسان لربه ، وهذه المعرفة الأخيرة أخطر من دقات قلب الإنسان للإنسان ، ونحن نعرف أن توقف القلب يكون إيذانا بوفاة الإنسان وعودته إلى التراب ، لكننا لا نعرف أن توقف معرفة الله عند الإنسان تعنى وفاة الوعي الإنساني ..

وأخطر أنواع الموت موت الأحياء الذي لا يدركونه .
وهذا ما يكرهه الله لعباده .

أن يكونوا قلوبيا لا تشعر ، وعقولا لا تعرف ، وأذنا لا تسمع ، وعيونا لا ترى . . .

يأبى الله لعباده أن يكونوا كائنات بغير وعي ..
لهذا دعا الله تعالى الخلق إلى عبادته .. وأفهمهم أنه تبارك وتعالى غنى عن انتظار الرزق منهم ، إنما هو الذي يرزقهم ويطعمهم .. وأخطر رزق يسوقه إليهم هو دعوتهم إلى عبادته ومعرفته .

تشحب كل أنواع الرزق جوار هذا الرزق .. وتندد كل أنواع الرزق ويبقى هذا الرزق .. رزق يتمثل في الإذن لعباده أن يعرفوه ، والسماح لهم أن يعبدوه ، ولو لطفه بالخلق لتركهم يولدون ويهلكون أقل مما تولد الأشياء وتهلك .. ولو لولا هذا الحنان من لدنه لما عرفنا أن لنا خالقا نتجه إليه بذل الدعاء ، ونعرف في الذل مجد العبودية .

تحديث العقيدة الإسلامية أن الله عز وجل هو الغنى عن عبادة العابدين ، وهو المتعال على انكار المنكرين .
ولو أن الجن والإنس منذ خلق الأرض إلى يومبعث كفروا بالله والحدوا

(١) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

في أسمائه ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ، ولو أنهم عبدوه حق عبادته ما زاد في ملكه شيئاً ، إنما يزيد العابد في ملكه الخاص حين يعبد ، ويجرور الكافر على ملكه الخاص حين يكفر ، وليس في الكون المرئي أو الخفي مخلوق إلا ويعيش عالة على الله عز وجل .. ليس في الوجود من يقوم بنفسه من الخالق .. حتى الملائكة تقوم بأمر الله وإذنه .. عالة على نوره ورحمته ، مثلما يعيش البشر والجن عالة على نعمائه ورزقه .

ورد في الحديث القدسى قوله تعالى :

(يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتتفعونى .

يا عبادى ، لو أن أولكم وأخركم ، وإنكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملکي شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وأخركم ، وإنكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملکي شيئاً) .

شَهَادَةُ اللهِ

تحكم الطواهر الإنسانية جميعاً قوانين النسبية وقوانين اختلاف مستويات
النظر . .

ينظر الطفل إلى البحر فلا يرى منه غير سطحه الأزرق الواسع . .
وينظر العاشق إلى البحر فلا يرى منه غير عرق أزرق ينبض في
جبهته الحبيبة . .

وينظر الصياد إلى البحر فلا يرى منه غير سمكة في شباكه . .
وينظر العالم إلى البحر فيرى فيه عالماً من المواد الكيميائية والمعادن
الذائبة . .

ومثلاً تختلف مستويات النظر إلى الشيء الواحد . . كذلك يختلف
الدليل على وجود الله تبارك وتعالى . .

على أبسط المستويات يمكن أن يبدأ التدليل هذه البداية الديكارتية .
أنا أفكّر إذن أنا موجود . . لم أوجد نفسي . . إذن أنا مخلوق . . كوني
مخلقاً يقتضي أن يكون لي خالق . .
(أم خلقو من غير شيء أم هم الخالقون . . أم خلقو السماوات
والأرض بل لا يوفون)^(١) يطلق علماء التوحيد على هذا الدليل اسم دليل
الابداع أو دليل الوجود . .

ان وجود الإنسان نفسه دليل على وجود الخالق . .
ليس هناك إنسان يزعم أنه قد خلق نفسه . .

يفاجأ الإنسان يوماً بأنه موجود . . ويفاجأ بأن له ملامح لا يستطيع
الفرار منها ، ويفاجأ بأنه ولد لأبوين لم يخترهما وفي بلد لم يختاره ، كما يفاجأ

(١) سورة الطور الآيات ٣٥ ، ٣٦ .

بأن له لوناً معيناً وطولاً معيناً وقد ورث مزاجاً معيناً وخصائص معينة لا يستطيع الإدعاء أنه مسئول عن وجودها . ويعيش الإنسان على الأرض فيشرب مياهاً ويتنفس هواء لا يستطيع الإدعاء بأنه خلق واحداً منها .. وتشرق الشمس كل يوم وتغرب كل يوم وتمضي النجوم في مساراتها طبقاً لنواميس حاكمة وقوانين حكمة .. من خالق هذا كله؟ .. من الذي يعني بهذا كله ..؟ ..

هناك من يرشح لدور الخالق ظناً يسمونه الصدفة .. ومعنى القول بأن الصدفة هي المسئول عن اعجاز النظام الذي يسود الكون .. معنى القول بهذا هو الإقرار بأن عدم التدبير أو الفوضى يمكن أن يقوداً إلى احتمال يؤدي إلى النظام .. وذلك أمر لا يقبله المنطق ، كما يقطع العلم باستحالته ..

تصور قصر رائع البناء ، فاخر الأثاث ، متعدد الحجرات ، يقع وسط حديقة منسقة .. تصوّر أن رجلاً جاء إلى البيت وبدأ استكشافه له .. نظر إلى صخور البيت وحدثته نفسه أنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها .. ثم سارت تجمع ما تناثر منها لتأخذ شكل هذا البيت البديع .. وحدثته نفسه أنه ربما تكون أشجار الحدائق قد تشققت بنفسها ألواحاً ، وتركت أبواباً وسرراً ومقاعد ومناضد ، ثم أخذ كل منها مكانه في القصر ، وأنه من الجائز أن تكون خيوط النبات وأصول الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها لأنسجة موشاه ، ثم تقطعت وسائل وطناس ، فانبعثت في حجراته ، واستقرت على أرائكه ، وأنه عسى أن تكون المصابيح الزجاجية قد تحولت من رمال على الشاطئ إلى كريستال منقوش ، ثم جعلت تهوى إلى القصر من كل مكان ، ثم تعلقت في سقفه بغير مساعدة من أحد .. أو بصدفة فحسب ..

لو قال لك هذا الكلام أحد ، فكيف يكون حكمك على سلامته تقديره .
ما قولك فيمن ينظر إلى الكون فيراه قد جاء صدفة ، أو وجد إتفاقاً ،
أو صنع نفسه بنفسه ..

أيكون الكون أهون شأننا من بيت صغير صنعه الإنسان .
إن القول بنشوء الكون عن طريق الصدفة قد صار قضية
مرفوعة .. إن العلم يقطع اليوم باستحالة ذلك ..

كتب دكتور فرانك اللن عالم الطبيعة البيولوجية يقول :

« تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا ، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول أنها تحدث بطريقة المصادفة كقذف الزهر في لعبة الطاولة . . كما أصبحنا قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة ، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة . .

يمكن أن يلتقي الإنسان بصديق لم يره منذ سنين بطريق المصادفة .

ويمكن أن يسقط الإنسان في حفرة بطريق المصادفة . .

ولكن نشأة الحياة بطريقة المصادفة أمر مستحيل تماما . .

قادنا العلم إلى أن البروتينات هي المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وقد حسب العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين احتمالات الصدفة في تكوين جزء من البروتين على سطح الأرض بعدد من السنوات قدرها بأنها عشر سنوات وأمامها ٢٤٣ صفرا . . وهذا رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وهو يزيد عن عمر الأرض بلايين من السنين . .

ولو عرفنا أن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة . . ولا تدب فيها الحياة إلا بعد اتصالها بالإنسان . . وهو يحمل سره العجيب الذي لا ندرى من كنهه شيئا . .

لو عرفنا ذلك لأدركنا أن الصدفة احتمال غير قائم في وجود الكون أو الإنسان » . . أ . ه .

ولو تصورنا أن فردا يجلس أمام الله كاتبة لمدة عام كامل . . ويدق عليها . . يمكن أن تقوده الصدفة إلى كتابة كلمة أو كلمتين . . أما أن يكتب لنا القرد دراما شكسبير « روميو وجولييت » . . أو يكتب لنا التراجيديا الشكسبيرية « هاملت » . . فهذا هو تصور مصغر يشبه تصور من يعتقد أن الكون قد جاء صدفة . .

بالعكس . . . أن صورة القرد وهو يكتب هاملت أقل جنونا من يتصور أن الكون قد جاء صدفة .

إن كل بحث في الكون يقود إلى إعجاز الله وعنایته .

وكل بحث في الإنسان يقود إلى إعجاز الله وعنایته .

(سريرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق
أو لم يكُن ربكم أنه على كل شيء شهيد)^(١) .

إن الشهادة هنا هي رعاية الله عز وجل .

هنا يبرز علماء التوحيد دليل العناية . .

إن كل شيء في الكون محكوم بالعناية الإلهية . . يتحدث الله عن هذه العناية فيقول أنه سخر لنا البحر ، وسخر لنا ما في السماء والأرض جميعا منه ، ويلفتنا بعد ذلك إلى التفكير والتأمل .

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتنبتوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه . إن في ذلك لآيات لقوم ينتفرون)^(٢) . .

ولو تأملنا حكمة تسخير الله للبحر فسوف نلتقط أول إشارة لمعنى العناية الإلهية . إن الحياة تبدأ من الماء . . وبغير الماء تهلك الكائنات على الأرض ، وكل ما في الأرض من مياه عذبة هي أصلًا مياه قادمة من البحر . . إن المياه تغطي أربعة أخماس كوكبنا الأرضي . . بحيث تظهر الأرض في الفضاء مثل كرة مائية معلقة تدور حول نفسها وحول الشمس . . وبسبب حرارة الشمس تتبخّر المياه وتتصنّع السحب . . وبسبب كهرباء السحب تسقط الأمطار ، ولو لا سقوط المطر لاستحال وجود الأنهر والبحيرات ، واستحال الزراعة على الأرض ، ولا يزال الإنسان حتى اليوم يأكل من الأرض .

وكل ما في الكون يقطع بوجود الحق تبارك وتعالى ويشهد له . .

يروى لنا القرآن الكريم حوارا دار بين موسى وفرعون حين جاءه لإخراج بنى إسرائيل من مصر .

سأل فرعون : فمن ربكم يا موسى ؟

قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . . .^(٣) .

نعتقد أن فرعون لم يفهم كلمة موسى مثلاً نستطيع اليوم فهمها . . أراد موسى أن يلفت نظر فرعون إلى دليل العناية الإلهية الموجودة في الكون . .

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) سورة الجاثية الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٣) سورة طه الآية ٥٠ .

ولقد أتاح لنا تقدم العلوم اليوم أن نضع أيدينا على جزء من تفسير قوله تعالى : (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ..

إن ملائمة الأرض للحياة تتخد ملايين الصور التي لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة ، ويستقيم تفسيرها بدليل العناية الإلهية ..

إن الأرض كة معلقة في الفضاء ، وهي تدور حول نفسها أمام الشمس ، فيؤدي ذلك إلى تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول ، وهذا يؤدي إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة ، ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات الازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع خمسمئة ميل ، وهذا الغلاف يشبه درعا كثيفا يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا ، وهي شهب تنقض بسرعة ثلاثة ميلا في الثانية ، والغلاف الجوى الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يتكافف مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، والمطر مصدر الماء العذب ، والماء العذب مصدر الحياة ، وبغيره تحول الأرض إلى صحراء قاسية تخلو من الحياة ، وتحتوى تربة الأرض على جميع العناصر التي يمتلكها النبات وتحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يتغذى عليها الحيوان والإنسان ، ومعظم المعادن توجد قريبا من سطح الأرض ، ولولا ذلك لاستحال قيام الحضارات القديمة والحديثة ، ولتعطل نشوء الصناعات والفنون .. وهناك علاقات وثيقة بين حجم الأرض وبعدها عن الشمس وسرعتها في مدارها .. ونشوء الحياة على الأرض ..

لو كانت الأرض صغيرة كالقمر .. لعجزت عن الاحتفاظ بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها ولصارت درجة الحرارة فيها فاسية إلى حد الموت .. ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها ١٥٠ ضعفا ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى من خمسمئة ميل إلى أربعة أميال ، ولاصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولارتفاع الضغط الجوى إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراما على السنتيمتر

الربع ، ولتضاعل حجم الإنسان إلى حجم الفأر الكبير ، ولتعذر الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . .

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالى عن الشمس ، لنقصت كمية الحرارة التى تلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، وإن تتجدد المحيطات والبحار ويغلف الأرض كلها جليد تنتحر فيه الحياة ، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التى تلقاها الأرض أربعة أمثال ، ولغلت مياه المحيطات وتبخرت وسط حرارة تموت فيها الحياة . .

ذلك أن المادة الحية تحتاج إلى بيئه كبيئة الأرض لكي تعيش . والكوكب الذى يحمل كائنات حية لا بد أولاً أن تتراوح درجة حرارته بين الصفر و ١٠٠ درجة مئوية ، وهو المدى الذى يمكن للماء فيه أن يوجد كسائل ، أما فى الأجواء التى تزيد برودتها عن ذلك ، فإن التفاعلات الكيميائية لا تتم إلا ببطء بالغ ، وفي درجات الحرارة التى تزيد على ذلك فإن من شأن الحرارة أن تحطم الصلات القائمة بين ذرات الأيدروجين والكريون ، وهى المقومات الأساسية للمادة الحية . .

وهكذا فان كل شيء على الأرض محسوب بدقة ، ومقدر بعناية ، وهذا ما يعرفه علماء التوحيد باسم دليل العناية . .

ومع دليل العناية . . يضيف علماء التوحيد دليل الحركة . .
إن قانون الحركة قانون أساسى من قوانين الكائنات . . كل شيء في الكون يتحرك وإن بدا شكله الخارجي ثابتا . .

إن الإنسان النائم يبدو ثابتا في المظاهر ، بينما يتحرك قلبه ويجري دمه في عروقه وتتحرك خلاياه . . والجبل الثابت ليس ثابتا في الحقيقة ، إن كل ذرة من ذراته تكشف عن عالم من الحركة حول نواة الذرة . . والنجوم التي تبدو ثابتة في السماء تتحرك هي الأخرى وتدور حول نفسها وحول نجوم أكبر منها ، وتسبح كل المدن النجمية في الفراغ الكوني فلا تصطدم ولا تتدخل مدارتها . . ولا شيء في الكون كله يقف ثابتا . . ثمة دورات من العيالد والحركة والنمو والموت . . وهي دورات لا ينجو منها أحد . .
من هو المسؤول عن حركة الكائنات . ؟

من هو المسئول عن انضباط قوانين الحركة وانسجامها . . بحيث لا تصطدم الشمس بالقمر ، ولا تقترب الأرض من الشمس فتبتلها الشمس . ؟

من هو المسئول عن هذا النظام الغريب البديع المحكم الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا . . .

ليس هناك غير جواب واحد تقدمه العقيدة الإسلامية . . الله . .

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حلينا غفورا)^(١) .

يشير النص القرآني إلى قدرة الخالق وعجز المخلوق . إن الإنسان لا يتدخل في حركة قلبه ولا ينظمها . . وهو لا يتدخل في حركة النجوم ولا ينظمها . . والله تعالى هو الثبات السرمدي وراء هذه الحركة كلها . . يتحدث علماء التوحيد عن دليل الحدوث . . بمعنى أن حدوث الأشياء دليل على وجود الباريء سبحانه . .

يولد الإنسان ويموت . . تولد الجبال فتبدو مستعصية على الفناء والموت ، ولكن دراستها تقول أنها كانت قياعانا في المحيط قبل أن تكون جبالا ، وبعد ملايين السنين قد تعود إلى قياع المحيط وتولد بدلا منها جبال جديدة . .

لا شيء في الوجود يستعصي على الميلاد والموت . .
هاتان هما الحقيقةان اللتان وقف أمامها الكون كله صاغرا . .

نعرف من خبراتنا البشرية أن الإنسان يولد ويموت . .
ونعرف من تجارب العلم أن أصغر ما في الكون وهو الذرة . . يولد هو الآخر ويموت . . كان الظن التقليدي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . .
لا تموت ولا تولد . .

ومن هذا الظن نشأت فكرة أزلية العالم أو قدمه .
غير أن تفجير الذرة هدم هذا الظن ، انكسر ما اعتبره العلماء قانونا علميا . . صارت المادة شيئا يخضع للميلاد والموت شأنها شأن بقية الكائنات . .

(١) سورة فاطر الآية ٤١ .

حتى الشمس هي الأخرى مخلوق يجري عليه ما يجري على العصافير
من سنن الميلاد والموت ويجرى عليه ما يجري على زهور المانolia
جراندافلورا . .

تعيش هذه الزهور يومين اثنين . .
وتعيش العصافير شهورا معدودة . .
ويعيش الإنسان سنوات محدودة . .
يرث الله جل شأنه الزهور والعصافير والإنسان . . كما يرث الشمس
والقمر والنجوم . .

(كل شيء هالك إلا وجهه)^(١) .

يقول علماء الفلك في أحدث نظرياتهم عن الشمس . . إنها تعتبر . .
في قياس الزمن الفلكي . . مولود حديث الميلاد نسبيا في مجرتنا أو مدینتنا
النجمية . . فعمر المجرة يزيد على عشرة آلاف مليون سنة ، أما الشمس
فuemراها نصف هذا العدد من السنين . . فقد ولدت الشمس من سحابة غازية
منذ خمسة آلاف مليون سنة ، واكتسبت الخصائص التي تتميز بها اليوم ،
ومن حسن حظ البشرية أن الشمس ليست إلا نجماً متوسط الوزن ، وفي
الإمكان أن تتوقع لها أن تتمتع بعمر مديد نسبياً قبل أن تتضخم إلى حالة
العملقة الحمراء . .

لقد مضى على الشمس الآن خمسة آلاف مليون سنة من حياتها العادية ،
ومازال أمامها خمسة آلاف مليون سنة أخرى ، وبسبب ذلك فإن تفاعلات
التغير النموي داخل الشمس ستكون في ذلك الوقت قد رسّبت داخل لها من
رماد الهليوم كمية ترغم فرنها الذري على تفاعلات أنشط وحرارة أعلى ، عند
ذلك سيتمدد حجم الشمس بشكل هائل ، وسيؤدي هذا التمدد إلى تبريد
سطحها فيصبح لونه برتقاليًا في البداية ثم يتحول إلى اللون الأحمر ، ولكن
الحرارة الكلية التي تشعها ستكون أكبر كثيراً من المعدل بسبب حجمها
المتضخم . . وسيخbiz عطارد حينذاك وتشوى الزهرة . . أما درجة حرارة
سطح الأرض فسترتفع إلى ما فوق درجة الغليان بكثير . . بيد أن تدفق
الحرارة والطاقة بهذه الغزارة سيكون أضخم من أن يستمر طويلاً . . لذلك

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

فإن الشمس ستبدأ بعد حوالي ٢٠٠٠ مليون سنة في الانكماش من جديد . . .
وسيؤول حالها في أضمحالها النهائي الطويل إلى أن تصبح قزماً أبيضاً . . .
ثم تفقد حرارتها وتبرد . . وبعد خمسة آلاف مليون سنة ، ستكون قد
استحالـت إلى لا شيء . . إلى فراغ أسود . . مثله في انعدام الحرارة مثل
الفضاء الحالي الذي يحيط به . .

هذا القول الذي قيل في الستينيات من القرن العشرين . . بعد أن وصل
علم الفلك إلى إنطلاقه العظيم في المائة سنة الأخيرة . . هذا القول يتفق مع
العقيدة الإسلامية التي تقول إن الكائنات جميعاً سوف تهلك . وأنها ترجع
جميعاً إلى الله . .

(كل شيء هالك إلا وجهه . . له الحكم وإليه ترجعون)^(١) .
وإذن . . فإن كل شيء يولد ويحدث . . ثم يموت ويهلك . .
دليل الحدوث هذا دليل عليه سبحانه . .
وما أكثر الأدلة عليه . .

وما أضعفها جميعاً عن استيعاب أنوار قدسه الأعلى . .
لا تنكر العقيدة الإسلامية أن يستدل الإنسان بنفسه وبالكون على وجود
الله . . لا تنكر ذلك وإنما تدعو إليه احتراماً لدور العقل الإنساني . .
كل ما هناك أن هناك مستويات في العقيدة الإسلامية للاستدلال على
وجود الله . . النظرة التقليدية هي البدء من الكون والإنسان . . أن نستدل
بوجود الكون على وجود الله . .

النظرة الأعلى هي تجاوز الصور إلى المصور . . وتجاوز الكون إلى
الله . . بمعنى أن نستدل بوجود الله على وجود الكون . . هكذا يفعل
العارفون بالله . .

يقول النفرى في كتابه المواقف والمخاطبات . . أنه يرفض أن يستدل
بوجود الكون على وجود الله .

— أنا لا يستدل على . . إنما يستدل بي . .

أيضاً يرفض ابن عطاء الله السكندرى الفكرة التقليدية في الاستدلال على
وجود الله . .

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

يعتقد ابن عطاء الله أن الكون كله ظلمة . . وإنما أثاره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهد الله فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد حجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار . . وهو يقول : « كيف يتصور أن يحجبه شيء ولو لاه ما كان وجود كل شيء ؟ »

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء . .

إلهى كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك . .

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك .

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك .

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك .

شنان بين من يراه ويستدل به ، ومن لا يراه فيستدل عليه . . » .

يريد العارفون بالله أن يقولوا أن الموجود بحق هو الله . . وأن الكون ليس غير الصورة التي تنطبع في عيوننا عن الكون . . وهذه الصورة ليست هي الحقيقة . . والحقيقة لا ندريها لأنحصر الحواس البشرية وعجزها . . والكون نسبي ، وجوده مؤقت . له بداية وله نهاية ، أما الله تبارك وتعالى فهو الأزلى المطلق الدائم . .

وما يراه العارفون بالله يتفق مع ما يراه العلماء الماديون . .

يعتقد واحد من أكبر علماء العلوم الطبيعية في عصرنا . . هو السير جيمس جنierz .

« أن هذا الكون ليس له وجود فعلى ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا . . واحساسنا بهذا الكون وإدراكتنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام » .

يريد العالم أن يقول أننا نحكم على الكون بحواسنا الممنوعة لنا ، وهذه الحواس مخادعة ولا تقود إلى الحقيقة وليس نهائية . . وإن فلان الحقيقة التي ندركها كبشر ، أو نستمدّها من الكون كبشر . . هي في نهاية الأمر نسبية . . أما الحقيقة المطلقة فلا يعلمها غير الله . . وإن . .

لا نريد - تأدبا مع الله - أن نستدل على وجوده بوجود خليقته . .

لقد كان الإنسان صبرا قبل خلقه . . وكان الكون عندما قبل خلقه . .

ونحن نرفض أن نستدل بوجود الصفر على وجود الأحد الصمد . . كما

نرفض أن نستدل بوجود نبع من العدم على الحى القيوم المتأبى على
الفناء . .

فمة النظر فى العقيدة الإسلامية إذا سئلت : ما الدليل على وجود
الله . . أن تقول : الله .

فإن قيل لك : ألا تشک فى وجوده ؟

فقل : أشك فى وجودى ولا أشك فى وجوده . . (أفى الله شك فاطر
السماءات والأرض)^(١) .

فإن قيل لك : لا بد لكل دليل من شهادة يستند إليها . . ما هي شهادتك
فى التدليل على وجود الله . . قل : قول الله تعالى : (شهد الله أنه لا إله
إلا هو . . والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز
الحكيم)^(٢) .

إذا سئلت : لماذا أضاف الله شهادة الملائكة وأولى العلم إلى شهادته . .

قل : تكرما من الله على الملائكة ، وتشريفا من الله للعلماء . . وليس
استدلاً بشهادتهم . . وإنما أغنى الحق الخالق عن شهادة المخلوقين .

أرفع استدلال فى العقيدة الإسلامية على وجود الخالق أن نقول :
(شهد الله أنه لا إله إلا هو) .

هذه شهادة الجلال الخالق . . وهى عين اليقين . .

وإذا شهد الخالق ، فأى شيء يبقى للمخلوق أن يقول ؟

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .

جنود الله

على مستوى السطح ينقسم الخلق إلى عباد الله ، وأعداء الله . . .
وفي العمق البعيد نرى كل مخلوق خلقه الله جنديا من جنود الله . . .
حتى فرعون الذى حارب الله كان جنديا من جنود الله رغم أنفه ، وكان
ينفذ باستخدام حريرته وجحوده حكمة عليا ، وكان أداة قهر وفتنة ليري الله من
يسلمه لفرعون ومن يهتدى مع موسى .

والجندى فى الأصل هو الذى يتلقى الأوامر . . .
وكل مخلوقات الله تتلقى أوامره .

وفي الجنود من يمثل للأمر فيدخل فى رحمة الله . كالإنسان والجن .
وفيهم من يعصى الأمر فيعرض نفسه للعقاب . . كالإنسان والجن .
ومنهم من ركبت طبيعته بحيث يطيع دائمًا . . كالملائكة .
ومنهم من ركبت طبيعته بحيث يخرج من الرحمة ويعصى أبدا . .
كالشياطين .

ومنهم من يمضى فوق قوانين محكمة (نعرفها باسم العلم) ، ثم تصدر له
الأوامر أن يطيع قوانين المشيئة الإلهية ، ومثال ذلك الخلائق المختلفة كالبحر
والرياح والسحب والأمطار والذرات والحيوان والنبات وكل ما خلق الله .
إن البحر الذى أنشق لموسى وأغرق فرعون كان جنديا من جنود الله . .
أطاع أمراً أصدرته عصا موسى حين هوت على أمواجه . . وخرج البحر
عن قوانينه إلى قوانين المشيئة الإلهية الطلاقة . . وذلك ما نعرفه فى لغتنا
البشرية باسم المعجزة . . وإن كنا لا نعرف اسم ذلك فى علم الله .
أيضاً كانت الرياح العنيفة التى دمرت قوم عاد ، جنديا من جنود الله ،
صدر لها الأمر الإلهى أن تهب وتكتسح كل شيء ففعلت . .
نعرف أن القوانين التى تحكم البحر ليس فيها أن ينشق البحر إذا ضربه

بالعصا أحد . . وليس فى قوانين الرياح أنها تدمر كل شيء . . غير أن هذه القوانين من خلق الأحد الصمد . .

وال الأحد الصمد إذا خلق قانونا خضع له القانون ولم يخضع هو للقانون .
تبقى مشيئته الطلقة مصدرا للقانون فوق القانون .

من الخطأ البالغ أن نقيس الوضع فى هذا المجال على الوضع فى المجال البشرى . . إذا وضع أحد من البشر قانونا ، خضع للقانون مثل غيره من البشر ضمانا للعدالة وعدم الاستثناء . . وفي حق الله تبارك وتعالى لا نسأل عن ضمانات العدالة . . فهى موجودة وموشاة بضمانات الرحمة العليا . .

وإذن يعني توجه المشيئة الإلهية إلى أمر . . وقوع هذا الأمر بغير ابطاء .

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء وإليه ترجعون)^(١) .

تأمل قوله تعالى : (فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء) . .
تأمل المعنى تدرك كيف تستمد القوانين منه . . وكيف ينتهي إليه مصير كل شيء . . سواء أكان هذا الشيء قانونا محكما أم نظاما كونيا أم ملكا مقتريا أو نبيا من أولى العزم أم بشرا خاطئا أم نملة خرجت تبحث عن طعامها فوق صخرة في جبل . . أم ورقة صفراء هوت من الشجرة الأم .

تنتهي إليه المصائر والضمائر . .

وتعود إليه الدول والممالك . .

ويرجع إليه البنود والجنود . .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن أحدا لا يعرف جنود الله إلا الله . .
لا يعرف عددهم غير الله . . ولا يعرف مظاهر أعمالهم وسر سرائرهم إلا الله . . قال تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو)^(٢) .

وأشرف جنود الله وأكرمه هم رسله من الملائكة ورسله من البشر . .

على السطح الترابي للأرض يعيش الخير عادة مجردا من القوة . .

ويمضي في عباءة الفكر الهشة ، ويستمد كيانه من كلام الأنبياء الهدى ،
ويصطدم بجيوش الباطل المدرية . .

(١) سورة ياسين الآيات ٨٢ ، ٨٣ . (٢) سورة المدثر الآية ٣٣ .

وفي السماء يجمع الخير إلى روحه جسد القوة الرهيب وأجنحة الملائكة ..

وكثيراً ما احتاج رسل الله من البشر إلى رسل الله من أولى الأجنحة ..

كثيراً ما يواجه الخير في الأرض موافق يتراجع فيها مرغماً أمام الباطل .. وفي اللحظات التي يبدو فيها أن المعركة ستحسم لحساب الشر .. يضرب أحد الملائكة بأجنحته الأرض فيتغير الموقف ..

في قصص الأنبياء شاهدنا الملائكة كثيراً ..

أحياناً يحملون البشرى وأحياناً يحملون العذاب وأحياناً يجيئون للتثبيت ..

حين وضع إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم في المنجنيق وهم الطاغية بالقائه في النار .. وقف جبريل عند رأسه يسأله للتثبيت والتثمير : — يا إبراهيم ألم حاجة ؟

لم يكن خليل الله تعالى خائفاً .. ولا كان مشفقاً من النار .. إن نار الحب الإلهي في قلبه أطفال النار التي سرعت لإحرافه .. وإن يجيب جبريل عليه السلام فائلاً :

— أما إليك فلا ..

وأقوه في النار ..

() قلنا يا نار كوني بربادي وسلاماً على إبراهيم (١) .

وفي قصة لوط .. حين يحدق الخطر بالنبي ، ويزداد أنين الباب تحت ضربات الظالمين ، ويحس النبي الكريم بالحصار والضيق .. يهدئه الملائكة قائلين :

() قالوا : يا لوط إننا رسليك .. لن يصلوا إليك (٢) .

وفي قصة إبراهيم نرى الملائكة يحملون إليه البشرى بالإنجاب بعد أن مسه الكبر ..

وفي قصة مريم شاهد جبريل عليه السلام وهو يبشر ابنة عمران بأمومة نبى من أولى العزم وكلمة من الله وروح ..

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٩ .

(٢) سورة هود الآية ٨١ .

وفي لحظات الخطر في معارك الإسلام كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرى جبريل وهوأخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياها النقع . . .
ثمة ارتباط بين رسل الله في الملا الأعلى . . ورسل الله من البشر . .
ارتباط بين طرفين أحدهما شديد القوى . . وأحدهما بالغ التواضع في
قوته الإنسانية . .

ارتباط بين نوعين من جنود الله تعالى . .
أحدهما يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والمعونة الحسنة . . والثاني يدعو
إلى الله تعالى بالقوة التي لا يصمد لها أحد . . أو يقدر على مقاومتها أحد ،
أو يجرؤ على الوقوف أمامها أحد .
وفي النهاية . . يربط بين تواضع رسل الله من البشر ، وفورة رسل الله
أولى الأجنحة .
إن النوعين ليسا غير صورتين من صور الرحمة الإلهية والعدل
الإلهي . .

رُسُلُ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

سُئلَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ . . أَحَدُ أَعْدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . عَنْ رأْيِهِ فِي الْقُرْآنِ . .
وَلَمْ يَكُنْ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ غَبِيًّا وَلَا مُغْلِقُ الْعُقْلِ . . إِنَّمَا كَانَ طَامِعًا فِي
الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ ثُمَّ جَاءَ الإِسْلَامُ فَضَاعَ حَلْمُهُ فِي الْأَثْنَتِينِ مَعًا .
وَكَانَ حَقْدُهُ الدَّاخِلُ عَظِيمًا عَلَى اللَّهِ وَالنَّبِيِّ . .
وَنَظَرَ فِي الْقُرْآنِ وَرَاحَ يَفْكِرُ . . لَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ شَعْرًا وَلَيْسَ نَثْرًا . .
إِنَّمَا هُوَ قُرْآنٌ . . لَيْسَ سِبَكَ آيَاتِهِ مِنْ صُنْعِ بَشَرٍ كَمَا يَقُولُ الظَّالِمُونُ مِنْ كُفَّارِ
مَكَّةِ . . يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ فِي الْقُرْآنِ قُولًا كَبِيرًا . . يَجْبُ أَنْ يَسْعَ إِلَى النَّبِيِّ
وَيَلْحُدُ فِي اللَّهِ بِأَسْلُوبٍ مُقْنَعٍ . . وَاسْتَغْرِقَ الْوَلِيدُ فَتَرَةً ثُمَّ أَرْدَاهُ كَبْرِيَاؤهُ وَعَنَادُهُ
فَقَالَ :

(إِنْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ يَؤْثِرُ)^(١) . .
وَكَانَمَا أَحَسَّ أَنْ كَلْمَتَهُ مَائِعَةٌ فَأَضَافَ اتِّهَامَهُ لِلنَّبِيِّ أَنَّهُ يَؤْلِفُ الْقُرْآنَ فَائِلاً
(إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)^(٢) وَنَزَّلَتْ قَصْتَهُ فِي سُورَةِ الْمَدْثُرِ
نَزَّلَتْ مُتَكَامِلَةً الْحَلْقَاتِ فَرَأَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . .

صُورَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَعْظَمِ الصُّورِ زَرَابَةً وَمَهَانَةً . . وَهَدَدَهُ
بَعْذَابَ الْوَقْوفِ وَحِيدًا أَمَامَ اللَّهِ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ . .
قَالَ تَعَالَى : (ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . . وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا
وَبَنِينَ شَهُودًا . . وَمَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيدًا . . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا
عَنِيدًا . . سَأْرَهُقَهُ صَعُودًا . . إِنَّهُ فَكَرٌ وَقَدْرٌ . . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدْرٌ . . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ

(١) سُورَةُ الْمَدْثُرِ الآيَاتُ ٢٤ .

(٢) سُورَةُ الْمَدْثُرِ الآيَةُ ٢٥ .

قدر . ثم نظر . ثم عبس ويسر . ثم أذير واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر)^(١) .

وهكذا دخل الوليد بن المغيرة النار بكلمته . . قال تعالى (سأصليه سقر . .)^(٢) .

لم تكن النار التي هدده الله بها نارا من نيران الجحيم المهولة العادية . . إنما كانت مكانا يحمل اسم رعبا هو سقر . .

وهو مكان يتحدث الله عنه إلى نبيه فيقول له في استهوان مبهم غامض ، يلقى في النفس رعبا غامضا مبهما (وما أدرك ما سقر . . لا تبقى ولا تذر . . لواحة للبشر)^(٣) .

ويستمر الوحي في الحديث عن سقر . . فينبئ الله أن (عليها تسعة عشر)^(٤) .

وفهم المسلمون أن الله جندا يحرسون عمقا من أعماق الجحيم . . فهموا أن عددهم ١٩ ، وازدادوا إيمانا بربهم وأنسا برحمته وتضرعا وخشية من عذابه . .

وكان عدد هؤلاء الملائكة واردا في صحف اليهود التي لم تحرف بعد . . واستيقن الذين أوتوا الكتاب .

أما الكفار فقد تلقو العدد باستهزاء بالغ . . وراحوا يستهزئون من قلته ويقولون تسعة عشر فقط . . كم يكفيانا لهزيمتهم . . مئة . . مائتان . . وهكذا زاد العدد من فتنة الكافرين وكفرهم . .

وقال الله تبارك وتعالى مفهema نبيه صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الجن المكفرون بسقر هم ملائكة . .

() وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عذتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الدين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ولهم الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر)^(٥) .

(١) سورة المدثر من الآية ١١ - ٢٥ .

(٢) سورة المدثر الآية ٢٦ .

(٣ ، ٤ ، ٥) سورة المدثر الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

تقوم عقيدة التوحيد على الإيمان بالملائكة . .
هم سفراء الله تعالى إلى أنبيائه . . وهم جنوده في كونه . . وهم أنقى
خلقه وأقواه . .

والملائكة غريب ينتهي للملأ الأعلى .

وفي التصور الإسلامي كثير من الحقائق عن عالم الغيب . . وهو عالم
فوق إدراك العقل البشري أثناء رحلته على الأرض ، عالم « غاب » عنا
رحمة بنا وحكمة . . ولو اكتشف طرف من عالم الغيب لبشر عادى ،
أو ظهرت الملائكة للناس مثلا ، لبطلت إرادتهم وذهب اختيارهم ، ووجدوا
أنفسهم مجبرين على الإيمان ، ولا تفتت عندئذ الحكمة من خلق الإنسان
وابتلائه .

لا نعرف متى خلق الله تعالى ملائكته المكرمين .

أكان ذلك قبل خلق الكون أم بعده أم أثناءه . .
هذا غيب أسدلت عليه الأستار الكثيفة . .

كل ما نعرفه أن الملائكة خلقو قبل البشر ، فقد أخبرهم الله تعالى أنه
سيخلق الإنسان ويختلفه في الأرض ، وأمرهم أن يسجدوا لأدم ، وفهم بعض
العلماء أن هذا دليل تفضيل البشر على الملائكة . . ولسنا من هذا الرأي . .
لأن التفضيل يجوز بين الاثنين من جنس واحد ، ولا يجوز بين الاثنين من
جنسين مختلفين ، أو بين جنس وجنس . . وقد يرى قارئ إيليس مقارنة ظالمة
بين النار التي صنع منها والطين الذي خلق منه آدم ، وانتهى إلى ترجيح
نفسه ، رغم أنه ليس خالق الطين والنار ليعرف أيهما أشرف . .

ولا نريد أن نقع في خطيئة عدونا القديم . .

لم يرد في كتاب الله ذكر للمادة التي خلق منها الملائكة ، وأوردت السنة
المطهرة حديثا روتته عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه
« خلقت الملائكة من نور » ^(١) . .

而对于他们的形象，我们在“天庭”上看到的，是怎样的呢？
对于他们的形象，我们在“天庭”上看到的，是怎样的呢？
对于他们的形象，我们在“天庭”上看到的，是怎样的呢？
对于他们的形象，我们在“天庭”上看到的，是怎样的呢？

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد .

خلقهم الله عليها إنسان . . إلا إذا كان هذا الإنسان أميراً للأنبياء وخاتماً للرسل ورحمة للعالمين .

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سفير الله تعالى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها مرتين ، مرة عند بدأ نزول الرسالة الإسلامية ، ومرة أخرى عند سدرة المنتهى في رحلة الإسراء والمعراج . (ولقد رأه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يعشى السدرة ما يعشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)^(١) .

ورغم أن جبريل هو الروح الأمين ، ورسول رب العالمين إلى رسالته ، وسيد الملائكة ، إلا أنه في نهاية الأمر جندي من جنود الله عز وجل ، وعبد من عباده ، لا يتحرك إلا بأمر ، ولا يصدر إلا بأمر ، ولا ينزل إلى الأرض إلا بأمر . .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل :
ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا . . ؟
فنزل قوله تعالى : (وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلقنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسي)^(٢) .

ليس الملائكة أجساداً ظاهرة لترابها ، وبالتالي لا ينطبق عليهم ما ينطبق على الأجساد الظاهرة من ميلاد وحياة وشيخوخة وموت ، لا ينطبق عليهم ما ينطبق على البشر من طعام وحاجة ونوم وذكرة وأنوثة ، إنما هم خلق آخر من خلق الله قائم بذاته ، لا يتصرف بشيء مما يتصرف به غيره من الخلق . .

هم أرواح خفية . . ورسل أولو أجنحة . . وليس أجنحتهم كأجنحة الطيور أو الطائرات ، إنما هي غيب مثلهم ، ومثلاً يتفاوت الجنود في الرتب والمهام ، يرمي تفاوت الأجنحة في الملائكة إلى تفاوت المهام . (وما منا إلا له مقام معلوم)^(٣) .

عدد الملائكة مثلهم غيب . . لا يعرف عددهم بالتحديد إلا الله ، وإن

(١) سورة التجمّع الآيات من ١٣ إلى ١٨ .

(٢) سورة مریم الآية ٦٤ .

(٣) سورة الصافات الآية ١٦٤ .

رسم الحديث النبوى صورة مقربة لهذا العدد الهائل فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« اطت السماء وحق لها أن تتط ، ما من موضع فيها إلا وفيه ملك راكع أو ساجد ». .

وللملائكة عملهم في الملا الأعلى ، ولهم عملهم في الحياة الدنيا ، ولهم عملهم مع العناصر الطبيعية ، وقد شرفهم الله تعالى بالطاعة المطلقة وشرفهم بصفاء لا تخشه عكارة ، وشرفهم بقوة لا حدود لها ، وشرفهم بالقرب منه سبحانه وامضاء أوامره . .

وفي الملا الأعلى ، لا حدود لمهام الملائكة ، وقد حدثتنا العقيدة الإسلامية بطرف من هذه المهام .

إن السجود والخوف جزء من عمل الملائكة . . والتسبيح والتمجيد جزء من عمل الملائكة . . وتنفيذ ما يؤمرون به جزء من عمل الملائكة ، يقول تعالى : (والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة . . والملائكة . . وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)^(١) .

لا نعرف صفة سجود الملائكة . .

نعرف أن المؤمنين يسجدون بوضع جباههم على الأرض . . أما الملائكة فسجودهم غريب مثل كل ما يتعلق بهم .

من أعمال الملائكة في الملا الأعلى احتفاظهم بصحف الله تعالى . . (كلا إنها تذكرة . . فمن شاء ذكره . . في صحف مكرمة . . مرفوعة مطهرة . . بآيدي سفرة . . كرام ببرة)^(٢) .

من مهام الملائكة في الملا الأعلى أن فيهم من يحمل عرش الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن به ، ويسبح بحمد ربها ، ويستغفر للذين تابوا .

يقول تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسع كل شيء رحمة وعلما ، فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا

(١) سورة النحل الآيات ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة عبس الآيات من ١١ إلى ١٦ .

وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السينات ومن نق السينات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم (١) .

أيحس القارئ بالدهشة ؟

ألا يثير الدهشة أن يهتم الملائكة الكرام الذين يحملون عرش الله بالخاطئين التائبين ؟

تعلمنا تجارب الحياة أن معظم الخلق يفقدون رؤوسهم في الارتفاعات الشاهقة ، وربما فقدوا ذاكرتهم ونسوا ماضيهم وأصدقاءهم وأهلهم ، إن مجد القمة يفتن المخلوق عادة وينسيه كل شيء .. وأى ارتفاع يتحقق الإنسان لا يقارن بارتفاع الملائكة الذين يحملون عرش الله ..

تأمل كيف ترسم الآية الكريمة صورة لنبيل الملائكة وكرمه ، إن مجدهم وقربهم من الله تعالى لا ينسفهم خطأ الخاطئين وتوبية التائبين فيدعون لهم بالرحمة ، ويدعون لهم بالنجاة من أحزان الجحيم ، ويدعون لهم بدخول جنات عدن ..

ومن المدهش أن أهواه يوم القيمة والبعث والحساب لا تنسى الملائكة رحمتهم بأبناء آدم ، ولا تنسفهم الشفاعة لهم .. وإنما يعلق الله سبحانه وتعالى قبول هذه الشفاعة عليه .. كى تنضبط الرحمة فلا تفيض إلا على من يستحقها ..

(وكم من ملك في السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) (١) .

تأمل رحمة الله بالملائكة والناس ، وتأمل كرم من تقدست ذاته ، وكيف صاغ نفوس ملائكته من النبل المحض والنقاء المطلق والرحمة اللا نهائية .. وكيف يعلق الحق كل شيء على إذنه ومشيئته ورضاه . تحدثنا العقيدة الإسلامية أن يوم القيمة سيكون إيذاناً بظهور الملائكة للبشر بعد طول استثارهم عنهم ..

يرى الخائق يوم القيمة ملائكة الرحمن ، بعد أن ينكشف الغطاء عن

(١) سورة النجم الآية ٢٦ .

الحواس والأبصار ، يرون حملة العرش الكرام ، ويرون ما شاء الله أن يروه من دلائل عظمته ونوره .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية) (١) .

لا تقتصر مهام الملائكة في الملا الأعلى على التسبيح والتمجيد والسجود وحمل عرش الله عز وجل والقيام بأمره وإنفاذ مشيئته سبحانه ، وإنما تتعداها إلى القيام بمهام في الجنة والنار . .

وإذا كان الملائكة هم سفراء الله إلى عباده في الجنة يدخلون عليهم بالسلام فإن في الملائكة جنداً الله يقومون بحراسة الجحيم ، عبئاً ثقيلة هنا عن الرحمة التي نعرفها في الملائكة ، نحن أمام ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (٢) .

هل تعنى الغلظة والشدة أنهم جردوا من الرحمة . أغلب الظن أنهم لا يكتسبون طبيعة ثانية ، وإنما تتحول رحمتهم - بعد الله وأمره إلى شدة مروعة ، وهذه الشدة وإن بدا ظاهرها بعيداً عن الرحمة ، إلا أنها جزءٌ نهائى من رحمة العدل . وللعدل رحمة تشفى صدر الكون المجروح بالظلم والآثام .

ويتبر عالم الملائكة مع الإنسان الدهشة من جانبين . جانب النظام الدقيق الذي نرى الإنسان محكوماً به ، حتى لا تغادر كلمة منه أو خاطرة تسجيل الملائكة الكاتبين . . وجانب الرحمة الحانية الذي يكلا الله تعالى به الإنسان ويُسخر له ملائكة تدعوه له وتؤمن معه في الصلاة .

يحدثنا الله تبارك وتعالى أن في الملائكة حفظة على أبناء آدم ، لا يكاد الإنسان يولد ويبلغ حد التكليف حتى يوكل به ملكان . يكتب أحدهما

(١) سورة الحاقة الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة التحريم الآية ٦ .

حسناه ، ويكتب الثاني سيناته . . يتلقى الاثنان عن اليمين وعن الشمال ، يسجلان كل شيء ويعرفان كل شيء ويحفظان كل شيء . . هذه الرقابة المحكمة تنتهي بموت الإنسان وأغلاق سجل أعماله . . ويوم القيمة ينشر الله تعالى صورة لهذا الكتاب الذي ربما احتفظ به المخ في سنتيمتر واحد من تلافيفه الغامضة .

يقول تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)^(١) .

لا يقف عمل الملائكة مع الإنسان عند حد تسجيل أعماله . . في الملائكة من يتوفى أنفس الناس عند الموت ، في الملائكة من هو موكل بقبض الأرواح ، وفيهم من يبشر أصحاب النقوس الطيبة بالجنة ، ويتبعون النقوس الظالمة بالنار . فيهم من يضرب وجوه من أخطط الله وكره رضوانه ، وأدبارهم .

وطوال الفترة التي يحياها الإنسان ، يصاحبه الملائكة عليهم السلام . . يدعون له إن كان مؤمنا ، ويؤمنون معه في الصلاة إن كان مصليا . . ويشهدون قرآن الفجر إن كان يقيمها . . ويحضرون مجالس الذكر الوقور الذي يعرف حق الله . . ويصلّى الملائكة لطلاب العلم ويضعون أجذثعهم رضا بما يصنع . . وهم يحملون البشري لأهل الأرض ويثبتون المؤمنين . .

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٢) .

وتتبع رحمة الملائكة من رحمة الله وإذنه . . هم جند مأمورون . .
وهم يصلون على المؤمنين بأمر منه سبحانه . .
يتبعونه سبحانه في الصلاة . .

(١) سورة ق الآيات م ١٦ إلى ٢٢ .

(٢) سورة فصلت الآياتان ٣٤ ، ٣١ .

قال تعالى : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات
إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما)^(١) .

سبحانه وتعالى ..

هو أهل الرحمة ..

وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ..

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

رَسُّلُ اللَّهِ مِنَ الْبَشَرِ

روى ابن عمر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم :
ما الإيمان .
قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره
وشره .

قال جبريل : صدقت . رواه مسلم .
هذه هي الأصول الجوهرية التي يقوم عليها التصور الإسلامي .
وأى خروج عن أصل من هذه الأصول يخرج صاحبه من ظلال العقيدة
الإسلامية .

لو قلت - مثلا - إنني آؤمن بالله ولكنني لا آؤمن بملائكته ، فهذا الإيمان
مردود على . . وهى عقيدة جديدة اخترعها وليس من الإسلام .
ولو قلت - مثلا - إنني آؤمن بالله وملائكته ولكن لي تحفظات على كتبه
ورسله ، ولا أصدق أنه أرسى كتاب التوراة لموسى أو القرآن لمحمد . .

فهذا القول كسابقه يخرج صاحبه من قلعة الإسلام . .
والسر فى ذلك يسير . .
إن الإيمان بالله ليس تفضلا من البشر على الله عز وجل . . وليس فيه
مساومة أو أخذ وعطاء ، إنما هو منة الله على عباده . .
(قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم
للإيمان)^(١) .

(١) سورة الحجرات الآية ١٧ .

والله تبارك وتعالى يجعل الإيمان به قضية واحدة .. كلا واحدا لا يتجزأ .. عقيدة أصلية تعنى الإيمان به ويجنوده وكتبه ورسله وقضائه وقدره ويعثه وحسابه وجنته وناره ..

قد يقول المرء : إننى أؤمن بهذا كله ، ولكننى لا أعرف كيف تكون صفة الجنة ، ولا أعرف هل سنأكل فيها كما نأكل على الأرض .. ولا أفهم كيف ننعم فيها ..

مثل هذا القول لا يخرج صاحبه من الإسلام .. لأنه يتحدث عن غيب لا يدرىه ولا يعرف صفتة .. يؤمن به دون أن يدرى كنهه .. ثمة فرق جوهري بين الإيمان بالعقيدة ، مع عدم إدراك كنه أشياء فيها ، وبين استئصال أجزاء من العقيدة والقبول ببعضها ورفض البعض الآخر .. في الحالة الأولى أنت لم تزل فى ظلال العقيدة الإسلامية .

وفي الحالة الثانية أنت فى ظلال عقيدة جديدة أنت مبتكرها ، ومسئول عنها أمام قاضيك يوم القيمة .

* * * *

أنبياء الله تعالى ورسله إلى البشر قسمان .
نبي يبعثه الله إلى قومه لهدائهم إلى الحق ..
ورسول يبعثه الله بكتاب إلى قومه لهدائهم إلى الحق ..
أنت ترى أن هدف الأنبياء والرسل واحد .. هو هداية الناس إلى الحق .. وإذا كان الله تعالى هو الحق ، فإن هدف رسالات الرسل ودعوات الأنبياء هو « الدعوة إلى الله » .
لا فرق بين النبي والرسول إلا في الكتاب الذي يحمله الرسول إلى قومه .

ونحن لا نعرف عدد أنبياء الله ورسله .
لا نعرف كم نبياً أرسل الله لأقوامهم ، ولا نعرف كم رسولاً بعث للناس ..
حدثنا الله في القرآن الكريم عن رسل ، وأبيان سبحانه وتعالى أنه لم يحدثنا عن رسل .

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)^(١).

من الفضول أن نحاول معرفة ما لم يقله لنا الله . .
وإن كان من المهم أن نعرف سر إرسال الأنبياء والرسل . .
الأصل أن إرسال النبي رحمة .

إن الله تعالى لو لم يرسل أنبياءه ورسله لألزم الناس حجته لسبعين :
السبب الأول : أخذه العهد عليهم يوم خلق الخلق وهم ذرات في ظهر
أبيهم آدم .

السبب الثاني : حديث الله الرحيم المستمر إلى الناس ، وأياته في الكون
وفي أنفسهم ، ومعجزاته المدهشة في الأفاق وتحت زوايا الرؤية . . ولو
تأمل الإنسان نفسه فحسب . . لو أدرك أنه يعيش في كل نفس عالة على
هواء خلقه الله ، ويتجذب دمه على نعم أوجدها الله ، ويمضي محفوفاً بنعم الله
وفضله . . لو عرف الإنسان هذا لأدرك أن الحجة تلزم دون ما حاجة
لإرسال الرسل .

وهذا ما نعرفه باسم الفطرة المودعة في النفوس ، وهي فطرة تهدي إلى
الله ما لم تتلوث . وإن . . لا تفسير لإرسال الأنبياء غير الرحمة . .
محض كرم من الله ورحمته أنه أرسل أنبياءه ، ومحض كرم من الله
ورحمته أنه قضى القضاء الرحيم التالي :
(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)^(٢).

وثمة سبب آخر لبعث الرسل . .

تصحيح صورة الخلق عن الحق . . والرجوع بالإنسان إلى منابع
الإيمان الأصيلة كلما زحزحته عنها ظروف الحياة أو بواطن الهوى
أو ضغوط المصالح . .

وإذا كنا في العلوم البشرية لا نأخذ إلا عن مصادر محترمة يعول
عليها ، ففي عالم الغيب لا ينبغي أن نأخذ إلا عن الرسل . .
وهم وحدهم الذين يملكون حق الحديث عن الله . .

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الأسراء الآية ١٥ .

وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يقولوا لنا آخر ما يمكن قوله في هذا المجال . . وأصح ما يمكن قوله . .
والسبب في ذلك هو الوحي . .

مصدر علم الأنبياء هو الوحي . . ومصدر علم غيرهم هو العقل سواء
كان هؤلاء الغير فلاسفة أو عباقرة أو حكماء أو أذكياء . .
والعقل أداة للحياة في الأرض ، هو وسيلة اكتشاف للحياة البشرية . .

وتکلیف العقل بالبحث في عالم الغیب ، يشبه سؤال الكبد عن المشهد التي
تراه عین الإنسان . . يستطيع الكبد أن يحدثك عن تحولات السوائل التي
تدخل فيه وتخرج منه . . ويستطيع أن يحدثك عن عمل جيرانه كالمعدة
والأمعاء والقلب لكنه لا يدرى أن هناك عينين ولا يعرف ماذا ترى هذه العيون
من مشاهد الطرق والجبال والبحار والسماءات والنجموم .

من الظلم لعضو خلقه الله لشئ محدد ، أن نكلمه فوق طاقته ونحاول به
بحث أمر غير محدد . .

ولله تعالى المثل الأعلى . .

منبع علم الأنبياء هو الوحي . .
وأصل حركتهم هي اصطفاء الله .

سر اختيار الله لهم هو علمه سبحانه بحقيقةتهم . .
يقول الله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)^(١) .

ويقول عز وجل : (الله يصطفى من الملائكة رسلًا ومن
الناس)^(٢) .

بعد هاتين الحقيقتين . . علم الله ، واختياره سبحانه . . لا نرى داعيا
لل الحديث عن نقاء قلوب الأنبياء وذكاء عقولهم وطهارة نفوسهم وقدرتهم على
الاحتمال في الله . .

لو قلنا هذا وأكثر منه . . فقد قال الله عز وجل أنه « يصطفى » . .
قال أنه « يختار » . .

بعد اختيار الله يسقط كل قول واختيار .

(١) سورة الانعام ١٢٤ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٥ .

من الأسئلة التي تثار عن الأنبياء سؤال يقول :
— لو أن الله لم يختار أحد أنبيائه للنبوة .. . أى شيء كان يصيده النبي ؟
والجواب : كان النبي يصيير سيدا على البشر .. . يؤهله للسيادة أنه
أفضل البشر معدنا في الأرض .. .
يختار الله أفضل البشر .. .

ويعلم - سبحانه - بوصفه خالق البشر من أفضلهم .. .
ومن المعروف أن فضل الاختيار الإلهي لا يمنع فضل الجهد البشري
إنما هو يزيده ، بمعنى أن النبي قبل اختياره يعيش في سلام خارجي عظيم ،
لا يعاديه أحد ولا يحاربه أحد ولا يتآمر عليه أحد ولا يهزأ به أحد .. .
بعد اختيار الله للنبي تبدأ مرحلة جديدة في حياته .. .
تقف كل قوى الشر ضد النبي .. . تؤذيه في بيته ونفسه وأهله وعقيدته
وأفكاره .. . يمتد الإيذاء إلى كل مقدساته .. .

يفقد النبي سلامه الخارجي ويترافق سلامه الداخلي .. . ويمضي في
كافحة من أجل الدعوة إلى الله حتى يلقى ما قدره الله عليه .. .
يزيد فضله بعد الاختيار .. .

يدفع من احتماله العناء في الله ، ثمن اختيار الحق تعالى له .. .
وما أدنى الشمن الذي يدفعه الأنبياء ، وما أعظم تضحياتهم جميعاً من
أجلنا نحن البشر الخطأ .. .

.....
يحكم حياة الأنبياء فضل بشري .. . وعصمة إلهية .. .
تحلق حياتهم قبل البعثة في أفق من الكمال لا ينزلون عنه شعرة .. .
وتتصعد حياتهم بعد البعثة لآفاق من الكمال لا ندر فيها نحن البشر .. .
ويعصمهم الله تبارك وتعالى قبل البعثة وبعدها من الخطأ البشري
القصور الإنساني .. .

أحياناً يخطيء النبي .. . ويعاتبه الله .. .
غير أن خطأ النبي يختلف هنا عن خطأ الإنسان العادى .. . ينطبق هنا
قانون النسبية وقانون اختلاف المستويات .. . إن حسناً الأبرار سيئات
مقربين .. . وحسنات المقربين يعاتب عليها الأنبياء .. .
والمسألة أمر نسبي بحت .. .

إنذا النون أخطأ حين غضب من قومه وتركهم لأنهم لا يهتدون إلى الله . . هذا الخطأ لو ارتكبه فرد بشري لكان حسنة يجازى عليها . . فهو قد ترك قوماً عاصين لا يريدون الهدية . . وهذا شيء يأمر الله تعالى به البشر . . أن يعتزلوا الخاطئين .

أما النبي . . فهو الأب الحقيقي للبشر ، ومن تعليم الله له أن لا يترك الأب أبناءه مهما أجرموا . .

لتبقى الأبوة في الأنبياء أعلى أفقاً من أن تغضب . .
وأرفع مقاماً من أن تهجر . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس يوماً وسط سادة مكة يدعوهם إلى الله . . لحساب الإسلام لا لحسابه الخاص .

إنه حريص على نجاح الدعوة وليس حريصاً على مغنم شخصي . .
ثم يدخل عليه عبد الله بن أم مكتوم . . رجل أعمى وفقيه يريد أن يسأله عن الإسلام ويزكي في دينه ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، والنبي صلى الله عليه وسلم مشغول بالدعوة ، وقد اختار عبد الله وقتاً غير مناسب . .
كل ما فعله النبي أنه قطب جبينه وأدار وجهه . . كل ما فعله أنه « عبس وتولى » هذا كل ما فعله .

لو فعله أتقى الأنبياء لكان فعله حسنة يثاب عليها . . فهناك أولويات لكل شيء . . لكن . . أن يفعله النبي . .
أن يفعله وهو رحمة الله للعالمين . .

هناك يعاتبه ربها ويعلمها . .

هناك لا يرضي الله بما حدث . .

(عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدرك لعله يزكي ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك إلا يزكي ، وإنما من جاءك يسعي ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى . . كلا إنها تذكرة) ^(١) .

ويعرف النبي أن قانون الأولويات سائد في حق الخلق جميعاً وليس سائداً في حقه صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة عبس الآيات من ١ إلى ١١ .

عليه أن يدعو السادة والكتاب ، في نفس الوقت الذي يفتح فيه قلبه
للأعمى ولا يدبر بصره عنه .

عليه أن يفهم أن وقته كله لله ، وجهده كله لله . . وللفقراء والحزانى .
هذه أخطاء الأنبياء .

هي حسناً بأى مقياس بشري تقيسها به . .
لكنها في قياس الله عز وجل تأخذ شكلاً آخر . . ويعاتب عليها
سبحانه . .

ليس النبي بشراً عادياً .

هو بشر . . لكنه بعد اصطفائه يرتفع في مدارج البشر إلى أفق من
الصعب معرفته . .

لا يخرج النبي عن بشريته . . يظل داخلها محكوماً بالميلاد والأحزان
والمتاعب والمعاناة والموت . .

لكنه يحتمل ما لا يحتمله البشر ، ويدفع ما لا يقدر عليه البشر . .
ويزوده الله بما لا يزود به البشر . .
يزوده الله بالمعجزات . .

وتختلف معجزات الأنبياء باختلاف عصورهم وأزمنتهم .
المعجزة هي دليل إثبات النبوة عند الكافة . . وهي خروج عن السنن
المألوفة في الحياة والكون . . أن من يدعى أنه رسول من رب العالمين عليه
أن يثبت دعواه . .

ولإذن يؤيده الله تعالى بما يثبت دعواه . .
كانت معجزة نوح أنه مكث يدعو قومه ٩٥٠ عاماً ثم أيداه الله بالطوفان .
وكانت معجزة إبراهيم أن قلبه خلا من كل ما سوى الله . . وأنه ألقى في
النار فكانت برداً وسلاماً عليه . .

وكانت معجزة موسى عصا تحول إلى حية جباره . .

وكانت معجزة عيسى أحيا الموتى . .

وكانت معجزة محمد كتاباً هو القرآن ، وخلقاً هو القرآن .

* * *

يقول الله سبحانه : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)^(١) . وقد فهم بعض العلماء أن أولى العزم هم كل الرسل . . وأن كلمة « من » هنا لبيان الجنس . .

وقال بعض العلماء أن أولى العزم من الرسل هم خمسة . . نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد واستندوا إلى قوله تعالى : (وإن أخذنا من النبئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً)^(٢) .

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)^(٣) .

وقد فضل الله تعالى بعض الرسل على بعض :

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلام الله ورفع بعضهم درجات وأتينا عيسى بن مريم البيانات وأيدناه بروح القدس)^(٤) .

وجمهور العلماء على أن أفضل الأنبياء هو خاتم الأنبياء وهو المقصود بقوله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(٥) . . فلزم أن تكون الرحمة العامة المطلقة أفضل من رحمة تختص بزمان محدد ، ورغم ذلك ، وضع الرسول عليه الصلاة والسلام قاعدة عامة تقضي بعدم التفضيل فقال « لا تفضلوا بين أنبياء الله » ، كما قال أيضاً « لا تفضلوني على يونس بن متى » .

وكان قصده صلى الله عليه وسلم هو التأدب مع الله . . إن الله يفضل بعض الرسل على بعض ، نتيجة لعلمه سبحانه بهم ، وعلى البشر الذي لا يملك علم الله أن يتأندب مع رسليه جميعاً ، وأن يضع كلامهم جميعاً على نفس القدر من الحب والاحترام والاجلال .

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٧ .

(٣) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٤) سورة البقرة . الآية ٢٥٣ .

(٥) سورة الأنبياء . الآية ١٠٧ .

كلمات الله

كتب الله تعالى هي بعض كلماته إلى خلقه .

الله تعالى كتب يبعثها إلى عباده ، يحملها إليهم رسلاه من البشر ،
ويوحياها الله عز وجل إلى رسلاه هؤلاء .

(كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النببيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل
معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)^(١) .
من هذه الكتب :

الصحف التي نزلت على إبراهيم .

والزبور الذي أنزل على داود .

والتوراة التي أنزلت على موسى .

والإنجيل الذي أنزل على عيسى .

والقرآن الذي أنزل على محمد .

عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام . . .

والأصل في كتب الله تعالى أنها دساتيره إلى خلقه . . . والدستور هو
القانون الأساسي كما نعلم ، والأصل في كتب الله تعالى أنها وصاياه لخلقه ،
وأحكامه بشأن حياتهم ، ورحمته وتكرمه أن تفضل بالحديث إليهم .

ومن كتب الله تعالى ما يركز على الدعوة إلى التوحيد والتبسيح والتمجيد
وضرب الأمثل للناس ومثال ذلك صحف إبراهيم وموسى . . .

لا نعرف بالتحديد ماذا كانت صحف إبراهيم تضم ، وليس بين أيدينا
نصوص مكتوبة لهذه الصحف ، ليس من دليل غير هذه الإشارات المضيئة
التي يضمها القرآن عن هذه الصحف .

يقول تعالى : (قد أفلح من تزكي ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لففي الصحف الأولى ،
صحف ابراهيم وموسى)^(١) .

نعرف من هذه الاشارة السريعة بوجود صحف ابراهيم ، والصحف هنا
تنصرف لمعنى الكتاب . . نعرف من اشارة أخرى بمضمون كتاب
ابراهيم . .

(ألم ينبع بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفي ، ألا تزد
وازرة وزر أخرى ، وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف
يُرى . ثم يجزاه الجزاء الأولي . وأن إلى ربكم المنتهي)^(٢)
سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيف كانت صحف ابراهيم .

قال : كانت أمثالاً كلها .

فسألته عن صحف موسى .

فقال : كانت عبراً كلها .

ويسمى الله تبارك وتعالى هذه الصحف . . بالصحف الأولى . . اشارة
إلى نزولها القديم وكونها سبقت غيرها من الكتب .

وإذا كانت الله تعالى كتب تركز على الأمثال وال عبر ، مثل صحف
ابراهيم وموسى ، فإن له كتاباً تركز على التسبيح والتمجيد مثل كتاب دواد . .
وهو الزبور . . وفي كتاب الله تعالى ما يحمل شريعة كاملة ومنهجاً للحياة
وقواعد للمعاملات والإرث كالقرآن . .

والالأصل أن كتب الله تعالى تصلح لكل زمان وكل مكان . . لأن منزلتها
سبحانه هو خالق الزمان والمكان ، وهو أعلم بنسبية الزمان والمكان ، وهو
ال قادر على أن يتجاوز كلامه نسبية الأزمنة والأمكنة ويجيء مطلقاً يصلح لها
جميعاً . ينطبق هذا الأصل على صحف ابراهيم ودواد كما ينطبق على
التوراة والإنجيل والقرآن .

ولو فهمنا أن كتب الله تعالى هي دساتيره إلى خلقه . ولو عرفنا أن
الدستور هو القانون الأساسي الذي يضع القواعد العامة للحياة الإنسانية . .

(١) سورة الأعلى الآيات من ١٤ إلى ١٩ .

(٢) سورة النجم الآيات من ٣٦ إلى ٤٢ .

لادركتنا أن الله لم يكن يكلف الناس فوق طاقتهم حين طالبهم بتطبيق هذه
الدستائر في حياتهم . .

والأصل أن الله تعالى يرسل كتبه إلى الناس لتكون شريعة للناس
يتبعونها ، ولا عبرة هنا بالتعنّى بها أو تعليقها على جدران المنازل أو تقديسها
مع عدم العمل بها . . لا عبرة بهذا كله . .

إنما يرسل الله كتبه المقدسة للناس ، لتكون واقعا حيا يرى سبحانه أثره
في حياة الناس .

ورد ذكر التوراة في أكثر من موضع في القرآن الكريم . .

قال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون
الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار)^(١) .

(وما قدروا الله حق قدره . إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء .

قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه
قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا)^(٢) .

أيضا ورد ذكر الانجيل الذي أنزل على عيسى في أكثر من آية .

(وفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة
وأتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى
وموعظة للمتقين)^(٣) .

ورد ذكر كتاب داود في ثلاثة آيات في القرآن الكريم . .

فى سورة الأنبياء الآية (١٥) (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر
أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) .

وفى سورة النساء (٦٣) : (وأتينا داود زبورا) .

وفى سورة الإسراء (٥٥) : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض
وأتينا داود زبورا) .

ومن القواعد الأساسية أن كل كتب الله يصدق بعضها البعض ويكمel
بعضها البعض ، ولا تختلف في أصل أو قاعدة من قواعد التوحيد . .

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة الانعام الآية ٩١ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٦ .

إنما تنالى إرسال الكتب لأن عديدا منها لم يسلم من التدخل البشري والتبديل والتحريف . . كما أن أصولا خطيرة من أصول التوحيد قد انحرفت بفعل الإنسان إلى التشنيه والتلبيث وما شابه ذلك من العقائد الوثنية القديمة .

يقول تعالى :

(افطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)^(١) .

ويقول تعالى في نفس السورة :

(فویل للذین یکتبون الکتاب بآیدیهم ، ثم یقولون هذا من عند الله لیشتروا به ثمنا قبیلا . فویل لهم مما کتبت آیدیهم وویل لهم مما یکسیبون) .

وإذن ، فقد لزم أن نأخذ عن الكتاب الوحد المذکور سلم من التدخل البشري ، وذلك هو القرآن ، فقد حدث الحق تبارك وتعالى أن القرآن محفوظ كما أنزل . . (إنا نحن نزلنا الذکر وإنما له لحافظون)^(٢) .

كما أخبر الله تعالى أن القرآن يهيم على ما سبقه من الكتب . قال

تعالى :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهينا عليه)^(٣) .

إذا اتفقنا على هذه القاعدة الأساسية . . وهي الأخذ من القرآن دون غيره ، فإن هذا لا يمنع أن ننظر في الكتب السابقة ، إن كان فيها ما يتفق مع القرآن أخذنا به ، وإن كان فيها ما يختلف معه تركناه .

في المزامير الواردة في العهد القديم مثلا ، لا يبعد الكلام فيها أن يكون مع الله وعن الله . والأساس فيها التوحيد ، الإيمان بإله خالق ، وكل آلهة الوثنين إلى جانب الإله « يهوه » الحق . . مجرد عدم . . والإله الواحد الحق باق مهيمن لا يتغير ، موجود في كل مكان ، قريب منا ، فهو بكل شيء عليم ، بكل شيء بصير ، على كل شيء قادر ، خلق الكون بكلماته ،

(١) سورة البقرة الآية ٧٥ ، ٧٩ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨ .

ولما كان حيا فإنه يحيى ويميت كما يشاء ، ولما كان هو الرب والملك والحكم ، فهو المدبر لمجرى الكون ومجرى التاريخ ، الكائنات جميعا خاضعة لحكمه ، وهو قائم بذاته ، غنى عن كل شيء ، وهو وإن لم تدركه الأ بصار ، إلا أنه يظهر بفعله كماله الذي لا انتهاء له ، من رحمة وقدس وعد وصدق .

وإذا نسب إليه وجه أو صفة من صفات البشر كالغضب . . فليس هذا غير مجاز . تتحدث المزامير عن الله . . فتقول أن السماء تحكم عن جلال الله ، والملائكة حاشيته ، وهم يسبحون بحمده ، وهم جنده ورسله ، وعليهم حفظ المؤمنين ونصرتهم ، والبشر أقل منهم منزلة ، ولكن لهم السلطان على الحيوان ، وحياة الإنسان قصيرة واهية ، ومع آثame يحبه الله الذي يعاقب الخبيثين وينعم على الصالحين ويغفر للنادمين المستضعفين . .

استمع إلى المزمور التاسع عشر من العهد القديم . .

« السماوات تقص قصص جلال الله . والقبة تنبئ بما خلقت يداه .
النهار يحدث النهار بخبره . والليل ينقل لليل نبأ .

ولا حديث ولا كلام ، ولا صوت يسمعه الأنام .

بل سطور للأرض جميعا بارزة . وكلمات إلى أقصى الدنيا بينه » .
أو استمع إلى المزمور السابع والتسعين .

« تذوب الجبال كالشمع . عند تجلى رب الأرض .

السماء تنبئ بعدله ، الناس كافة يشاهدون جلاله .

الخزي لعبدة الأصنام . الذين هم بالأباطيل يفخرون .

يا أيها الأرياب . خروا جميعا له ساجدين » .

أو استمع إلى المزمور الخمسين بعد المائة .

« هلويا

الحمد لله في قدس أقداسه . له الحمد في سماء عزته .

له الحمد على جليل فعاله . له الحمد في كامل عظمته

سبحوا بحمده نفخا في الصور . سبحوا بحمده ايقاعا على الأوتار .

ليحمد الله كل حي يتتنفس . . هلويا » .

إذا كان فيما سبق ما لا يخالف جوهر التوحيد في القرآن ، فنحن أمام مشكلة ثانية . . من أين نعرف أن هذه المزامير هي الزبور الذي أنزل على

داود . إن عناوين المزامير في كتاب العهد القديم تنسب ٧٣ مزموراً داود ، و ١٢ مزموراً لآسف ، و ١١ لبني فورح ، ومزامير متفرقة لهيمان وأتيان ، أو يدونون ، وموسى وسليمان ، ويبقى ٥٣ مزموراً لا تنسب لأحد ، وعنوانين الترجمة الأغريقية لا تتفق دائماً والنص العبرى ، وهى تنسب لداود ٨٢ مزموراً ، ثم أن الترجمة السيريانية أكثر اختلافاً .

والمؤرخون يرون أن من الصعب تحديد مؤلف المزامير ، فهى خلاصة قرون عدة من النشاط فى الشعر ، وهى ثمرة لحماسة بنى إسرائيل الدينية مدى سبعة قرون أو ثمانية من تاريخهم ..

وإذا كان داود قدقرأ على قومه كتابه ، فقد أضيف إلى الكتاب بعد موته الكثير . . الأمر الذى يجعلنا أمام كلام جوهره التوحيد ، وإن كنا لا نستطيع التثبيت بأنه من عند الله ، ونحن نقلبه كلام حكيم عظيم ونحتن له رؤوسنا ، ولكننا لا نستطيع القطع بأنه كلام الله تعالى ، ولا نستطيع القطع بأن هذا السطر كلام الله الذى أنزل على داود ، وهذا السطر كلام بشر مضاف ومنسوب لداود .

وما ينطبق على الزبور ينطبق على الكتب السماوية الأخرى التى لحقها التبدل والتحريف وإن . . لا يبقى أمامنا إلا كتاب الله الأخير ، وهو القرآن الحكيم . .

ليس معنى ما نقول أن نتخلى عن الإيمان بالكتب السماوية ، إن نص القرآن يخاطب الرسول ، ومن بعده جميع المسلمين قائلاً :

(قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون)^(١) .

الإيمان بكتب الله تعالى جزء من الإيمان بالله تعالى . .

حتى لو كانت بعض هذه الكتب غير موجودة . . أو موجودة ومحرفة . . يكون الإيمان بها إيماناً بالغيب ، أى إيماناً بها كما أنزلت قدימה لا كما صار إليه أمرها حدثاً . . بمعنى أن على المسلم أن يؤمن بجميع

(١) سورة آل عمران الآية ٨٤ .

الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله ، حتى لو لم يكن بين يديه غير بعضها . . أو مجرد اشارات إليها . .

يكفى أن يحدث القرآن عنها ليؤمن بها كما أنزلت . .

وإذا كنا لا نعرف أول كتاب أنزله الله على رسله . .

فإننا نعرف أن آخر كتاب بعثه هو القرآن . .

والقرآن هو كتاب الله المبين ، نزل به الروح الأمين جبريل ، على قلب خاتم النبئين ، بلسان عربي مبين ، القرآن منزّل من الله ، من الله بدأ . . وإليه يعود ، وهو سور محكمات ، وأيات بينات ، وحروف وكلمات ، له أول وأخر ، وأجزاء وأبعاض ، فيه حكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، وخاص وعام ، وأمر ونهي . . وقصص وموعظة . .

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)^(١) .

والقرآن - بوصفه كلام الله تعالى - كتاب معجز . . وقد تحدى الله البشر وغير البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وأعلن هذا التحدي منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . . وإلى يومنا هذا لم يزل التحدي قائما ولم يزل عجز البشر وغير البشر قائما .

قال تعالى : (قل لئن اجتمعـت الإنس والجنـ علىـ أنـ يـأتـواـ بـمـثـلـ هـذـاـ القرـآنـ لـاـ يـأتـونـ بـمـثـلـهـ وـلـوـ كـانـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ ظـهـيرـاـ)^(٢) .

وإذا كانت الكتب التي سبقت القرآن قد تعرضت للتغيير ، ونجا القرآن من إضافة كلمة أو حذف كلمة ، فإنه لم ينج من عديد من الاتهامات البشرية . .

اتـهمـ الـكـافـرـونـ القرـآنـ بـأـنـهـ قـولـ بـشـرـ .

(انـ هـذـاـ إـلـاـ قـولـ بـشـرـ)^(٣) .

واتـهمـهـ الـبـعـضـ بـأـنـهـ شـعـرـ . . وـرـدـ اللـهـ قـائـلاـ : (وـمـاـ عـلـمـنـاـ الشـعـرـ وـمـاـ يـنـبـغـىـ لـهـ ،ـ إـنـ هـوـ إـلـاـ ذـكـرـ وـقـرـآنـ مـبـيـنـ)^(٤) .

(١) سورة فصلت الآية ٤٢ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٨٨ .

(٣) سورة المدثر الآية ٢٥ .

(٤) سورة يس الآية ٩٨ .

وطوال ثلاثة وعشرين عاما نزل فيها القرآن ، لم ينج النبي ولا نجا القرآن من الهجوم والإفتراء . . حين عجز الكافرون عن الإتيان بمثله . . تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله أو آية . فلما عجزوا ، بدأوا يعلنون صراحة عدم رضاهم عنه ، بدأوا يطالبون النبي الكريم بتبدلاته وتغييره .

(وإذا تتنى عليهم آياتنا ببيانات قال الذين لا يرجون لقائنا إنت بقرآن غير هذا أو بدلـه ، قـل ما يكون لـى أن أـبدلـه من تـلاقـء نـفـسى)^(١) . وبهذه الآيات الكريمة ، أثبتـتـ النبي عدم قدرـته على التـصرـفـ في حـرـفـ من حـرـوفـ القرـآنـ ، فهو مـبلغـهـ وـحـامـلـهـ ، وليس صـاحـبـهـ ليـتـصرفـ فيـهـ بالـتبـديلـ أوـ التـغـيـيرـ . والـقرـآنـ يـبدأـ بـسـورـةـ الـفـاتـحةـ ، ويـخـتـمـ بـسـورـةـ النـاسـ ، ويفـتـحـ اللهـ تـعـالـىـ تـسـعاـ وـعـشـرـينـ سـورـةـ مـنـهـ بـالـحـرـوفـ المـقـطـعـةـ مـثـلـ : (كـهـيـعـصـ)ـ أوـ (حـمـ)ـ أوـ (أـلمـ)ـ ، وـقـدـ اـخـتـلـفـ الـعـلـمـاءـ فـيـ تـفـسـيرـ هـذـهـ الـحـرـوفـ المـقـطـعـةـ ، وـقـالـ بـعـضـهـمـ أـنـ لـهـ أـسـرـارـاـ لـاـ يـعـرـفـهـاـ إـلاـ اللهـ وـقـالـ بـعـضـهـمـ أـنـ اللهـ يـعـلـمـ تـحـديـهـ وـتـعـجـيزـهـ لـلـبـشـرـ فـيـ بـدـاـيـةـ هـذـهـ السـوـرـ بـإـيـرـادـهـ هـذـهـ الـحـرـوفـ المـقـطـعـةـ ، فـكـأـنـهـ يـقـولـ لـهـمـ . . إنـ الـقـرـآنـ يـتـكـونـ مـنـ حـرـوفـ كـهـذـهـ الـحـرـوفـ ، وـهـىـ مـنـ جـنـسـ الـحـرـوفـ الـتـىـ يـتـكـلـمـ بـهـاـ الـبـشـرـ وـيـكـتـبـونـ بـهـاـ ، رـغـمـ ذـلـكـ لـاـ يـسـطـعـ الـبـشـرـ أـنـ يـأـتـواـ بـأـيـةـ وـاحـدـةـ مـنـ آـيـاتـهـ . .

قال الإمام الشافعى عن القرآن . . هو حجة الله على البشر . . لا يجهل من علمـهـ ، ولا يـعـلـمـ منـ جـهـلـهـ . .
وقـالـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ . منـ كـفـرـ بـحـرـفـ مـنـ الـقـرـآنـ فـقـدـ كـفـرـ بـهـ كـلـهـ . . وـلـاـ خـلـافـ فـيـ الـعـقـيـدـةـ الـإـسـلـامـيـةـ عـلـىـ أـنـ مـنـ جـهـدـ مـنـ الـقـرـآنـ سـورـةـ أـوـ آـيـةـ أـوـ كـلـمـةـ ، أـوـ حـرـفـ ، أـوـ عـطـلـ لـهـ حـكـمـاـ أـوـ مـنـعـ النـاسـ مـنـ تـطـبـيقـهـ وـالـحـكـمـ بـهـ . . لـاـ خـلـافـ عـلـىـ كـفـرـ مـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ .

كتبـ اللهـ تـعـالـىـ هـىـ بـعـضـ كـلـمـاتـ اللهـ تـعـالـىـ إـلـىـ رـسـلـهـ وـعـبـادـهـ . . غـيرـ أـنـهـ لـيـسـ كـلـ كـلـمـاتـ اللهـ . .
لاـ يـعـرـفـ كـلـ كـلـمـاتـ اللهـ تـعـالـىـ غـيرـ اللهـ تـعـالـىـ . .

(١) سـورـةـ يـونـسـ ١٥ـ .

من صفات الله أنه متكلم بكلام قديم ، يسمعه من شاء من خلقه ، سمعه موسى عليه السلام منه تعالى من غير واسطة ، وإن كان ذلك من وراء حجاب . . وسمعه جبريل عليه السلام ، ومن أذن له من ملائكته ورسله . . ورد في الآثار أن موسى عليه السلام حين رأى النار أحس بالخوف وفزع منها فناداه ربه : يا موسى .

أسرع يجيب استئنasa بالصوت فقال : لبيك لبيك . . اسمع صوتك ولا أرى مكانك . . فأين أنت .

قال : أنا فوقك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك .

فعلم موسى أن هذه الصفة لا تنبغي إلا لله تعالى .

قال : كذلك أنت يا إلهي . . أفكلامك أسمع أم كلام رسولك .

قال : بل كلامي يا موسى . .

قال تعالى في سورة النساء : (وكلم الله موسى تكليما)^(١) .

وقال في سورة الأعراف : (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) .

وقال في سورة البقرة عن أنبيائه ورسله : (منهم من كلام الله)^(٢) .

غير أن كلام الله تعالى لرسله لا يكون مواجهة أو مباشرة . .

قال سبحانه في سورة الشورى : (وما كان ليشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب)^(٣) .

.....

كلمات الله تعالى أكبر من أن يعرفها الخلق كلها . . سواء كانوا ملائكة أم رسلأ أو بشرا . .

وإذا كان القرآن هو كلام الله المنزّل على عبده ، فإن الكون بعجائبها هو قرآن الله المخلوق . . وهو بعض كلمات الله . .

وليس كتب الله تعالى ، ولا كونه العظيم ، غير جزء من كلمات الله . .

وهناك قاعدة أساسية تشير إلى عظمة كلمات الله وتضعها في مكانها الصحيح . . هي قوله تعالى :

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٣) سورة الشورى الآية ٥١ .

(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مداداً)^(١) .

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحار ما نفدت كلمات الله)^(٢) .

نحو نقول « الله أكبر » عند إقامة الصلاة .

إشارة إلى أنه الكبير بغير حد .. العظيم بلا أفق ..

وكذلك كلمات الله تعالى ..

تنفذ البحار ولا تنفذ كلمات الله .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٧ .

يوم القيمة

يعرف كل طفل أن من السهل نفع فقاعة من الصابون ، ولكن المحافظة عليها زماناً أكبر من دقيقة أو دقيقتين أمر شديد الصعوبة ، لأن الفقاعة عرضه لأن تنفجر بعد هذه الثوانى وتختفى . .
اكتشف حديثاً جداً أن الكون شبيه بذلك .

اكتشف الرياضي البلجيكي ليستر أن الكون كما يصوّره أينشتين له خواص كخواص فقاعة الصابون . . اكتشف أنه غير ثابت الاتزان ، بمعنى أنه غير قابل لأن يقف ساكناً ، فالكون بمجرد خروجه إلى حيز الوجود يأخذ حجمه في الازدياد ، ولا مناص له من أن يستمر في التمدد إلى غير حد . .
هذه هي نظرية الكون المتمدد . . وهي أرقى اكتشافات علم الفلك في هذا القرن . يزداد حجم الكون على الدوام ، ولا مناص من أن يزداد حجمه حتى آخر الزمان .

وكما أن فقاعة الصابون ترق كلما ازدادت حجماً ، وتبتعد أجزاؤها المختلفة ، فكذلك يقع للكون . . كلما ازداد حجم الكون ازدادت المسافة بين أجرامه المختلفة في الفضاء ، وتحركت المدن النجمية العظيمة الواقعة في الغشاء الصابوني ، وتبتعدت عن بعضها البعض . .

إن أغلبها في الوقت الحاضر هو من بعد عنا بحيث تحتاج في رؤيته إلى مرصد لا تتوفره لنا امكانياتنا على الأرض ، وعلى مر الزمن سيبقى وقت يكون بعدها عنا أكبر من بعدها الآن ، فنحتاج إلى مراصد أقوى مما نملكه الآن .

والكون المتمدد لا يزداد حجمه باستمرار فحسب ، وإنما تزيد سرعة تمدده على الدوام .

ولسوف يأتي الوقت الذى لا يمكن فيه لشاع من الضوء ان يتم دورته حول الكون أبدا . . علما بأن الضوء يسير بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة .

وسيجيء الوقت على الكون ، فيصل إلى الحالة التالية .
إذا قطع الضوء مليون ميل . . يكون محيط الكون قد تعدد بقدر مليوني ميل ، وبذلك لا يستطيع الضوء ذاته أن يتم دورته حول العالم ، وعندئذ تكون محاولة اقتحام الكون بالابصار كمحاولة اللحاق بقطار سرعته أكبر من السرعة التي تستطيع أن تجري بها . .

تقوم نظريات الفلك على أن مثل هذا الوقت لا بد آت .
وإذا كان لنا أن نثق بحسابات الرياضيين فهذا الوقت قد حل بالفعل . .
أى أننا قد ولجنا الكون بعد أن ولی زمن احاطته بالابصار .
ضع هذه الحقيقة التي يقررها السير جيمس جنیز في كتابه « النجوم في مسالكها » . .

وأضاف إليها هذه الحقيقة الثانية التي يقررها العالم الفلكي نفسه . .
« نحن الأفراد لا نرى العالم إلا كما يرى السائح أرضا في ضوء ومضة من البرق » .

لقد كانت الأرض هناك قبل أن يكشف ضوء البرق عنها بكثير ،
وستظل هناك فترة طويلة بعد أن يكتنفها الظلام مرة أخرى ، فاللومضة فصيرة
لدرجة أنها لا تتبين في خلالها تغيرا في منظر الأرض ، ومع ذلك فنحن
نعلم أن هذا المنظر ليس خلوا من التغير ، ولو أستطعنا أن نسلط عليه ضوءا
أبطأ في الزوال من وميض البرق لرأينا صورة دائبة التغير من نمو يعقبة
انحلال . .

ونعتقد نحن (علماء الفلك) أن الكون ليس بناء ثابتنا وإنما هو يحيا
حياته ويختار الطريق من المهد إلى اللحد شأنه شأننا جميعا . . فالعالم
لا يعرف تغيرا سوى التغير بالكثير ، ولا تقدمها سوى التقدم نحو القبر .
إن أقصى ما وصلنا إليه الآن من العلم يضطرنا إلى الاعتقاد بأن الكون
المادي بأسره صورة مكبلة لهذه القاعدة .

من الحقائق التي يقررها علم الفلك اليوم أن النجوم في انحلال دائم إلى

شاع ، انحلال لا يقل في ثبوته واستمراره عن انصهار جبل من الثلج يطفو في بحر دافئ . . قد لا نحس أن الجبل يذوب ، ولكنه يذوب . . من الحقائق الجديدة أيضا في علم الفلك أن الشمس تفقد من مادتها ويقل وزنها . .

وهي الآن أقل وزنا عنها منذ شهر ملائين كثيرة من الأطنان . . ولما كانت النجوم الأخرى تنحل بنفس الأسلوب ، فالكون في مجموعة أقل من مادته مما كان عليه منذ شهر .

يشير الكاتب إلى أن اشتعال النجوم ليس احتراقا كيميائيا تتحول فيه المادة ، وإنما هو احتراق نووى تفني فيه المادة بعد أن تتحول إلى طاقة ، وفنا جزء من المادة يعني نقص وزنها

لا يقتصر الأمر على أن مقدار المادة في الكون أخذ في التناقص ، بل إن الشمس تفقد من وزنها على الدوام ، فإن قوة قبض جاذبيتها على السيارات تضعف ضعفا يزداد أمد الدهر ، وإن فان الكواكب كلها ومنها الأرض تتحرك باستمرار متعددة عن الشمس في زمهرير الفضاء ، كذلك كل نجوم المجموعة المجرية تتمدد باطراد تمدا لا ينقضي ، فمدینتنا النجمية تزداد على الدوام في الكبر في حين أن أضواء أفرادها تزداد ضعفا وبرودة إلى الأبد ، وإن كنا لا نحس بذلك . . وتنطبق هذه الحقيقة على جميع المدن النجمية الأخرى في الفضاء . .

إن هذا التمدد العام للكون يشبه ازدياد انتفاخ فقاعة الصابون .

وهكذا تتحرك المدن النجمية العظيمة على الدوام . . تبتعد عن بعضها البعض إلى الأبد . . وهكذا يسير الكون المادي بكيفية ما إلى الانقضاء كما تنقضى حكاية تروى . ويأخذ في الاندثار إلى لا شيء كأنه حلم من الأحلام . .

والجنس البشري الذي لما يمضى على ظهور العقل فيه إلا دقة واحدة من دقات ساعة الفلك ، لا يكاد يرجو أن يفهم عاجلا معنى ذلك كله . .

قد يأتي يوم نفهم ذلك فيه . .

أما الآن فليس في وسعنا إلا أن نعجب » .

انتهت كلمات عالم الفلك والطبيعة . .

أثار عجب العلم في القرن العشرين . . جزء من حقيقة قررها القرآن

الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان . وتلك إحدى معجزات القرآن ودليل على كونه من لدن حكيم عليم .

حين اكتشف علم الفلك أن الكون يتحرك ويتمدد ويرد وأن مصيره إلى الانكسار والانطفاء مثل حكایة تروي . .

حين اكتشف علم الفلك هذه الحقيقة لم يستطع أن يمنع نفسه من العجب . . ولهذا العجب موضعه . . فبغير نظرية النسبية وما تلاها من اكتشافات ونظريات ، لم يكن ممكناً أن يصل علم الفلك إلى نظرية الكون المتمدد الآخذ في الانطفاء والبرودة . . ومنذ قرون عديدة . . حين كان علم الفلك يقوم على نظرة ساذجة مؤداها أن الأرض مركز الكون ، وأن الشمس والنجوم أجساد ثابتة في مادتها ومواضعها ، لا يقع لضوئها تغير ولا يحدث لها شيء . . بل إن كثيراً من الناس عبدوا النجوم لما تصوروه من بقائهما الحال . .

نزل القرآن يشير إلى حقائق لم يتكتشف جزء منها إلا بعد ١٤ قرنا .

قال القرآن في أكثر من سورة أن النجوم لها بداية ولها نهاية . . أنها خلقت وستموت . . وحدد أسلوب موتها بالانكسار أو الانطفاء . . وتلك حقيقة لم تعرف إلا في هذا القرن ، حين عرفت مادة النجوم وأسلوب احتراقها النووي وطريقة استهلاكها لطاقتها ، وكيف أنها تفني حين تستهلك طاقتها .

يقول تعالى في كتابه العزيز :

(إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت)^(١) كورت في لغة العرب يعني ذهب ضوؤها وإنكدرت في لغة العرب يعني انطفأت .

(يوم تكون السماء كالمهل)^(٢) المهل هو ذوب المعادن .

(إذا السماء انفطرت . . وإذا الكواكب انتشرت)^(٣) انفطرت السماء بمعنى انشقت وانفجرت متهاوية ذاتية .

(وانشققت السماء فهى يومئذ واهية)^(٤) مثل فقاعة صابون تمددت جدرانها فصارت واهية ثم انشقت .

(١) سورة التكوير الآيات ١ ، ٢ .

(٢) سورة المعارج الآية ٨ .

(٣) سورة الانفطار الآيات ١ ، ٢ .

(٤) سورة الحاقة الآية ١٦ .

تتحدث الآية السابقة جمِيعاً عن يوم القيمة . . وهو يوم رهيب تنطفيء فيه النجوم وتنشق السماء وينحل في الكون عائداً إلى الفناء . . ساجداً بفنائه وعدمه بين يدي ربِه .

لو فتحت كتاب الله في الجزء التاسع والعشرين . .
وقرأت سورة الحاقة ، فسوف تعيش زماناً باد وانتهى ، وزماناً لم يأت بعد . .

(الحاقة . . ما الحاقة . . وما أدرك ما الحاقة)^(١) .

هي سورة هائلة من سور القرآن كما يقول المفسرون ، سورة تطالع قارئها بالهول القاسم ، والجد الصارم ، وتتناول فيها المشاهد مؤكدة أن أمر الدين والعقيدة جد خالص . . لا لهو فيه ولا مجال فيه لظن . .
هو جد في الدنيا وفي الآخرة . وجده في ميزان الله وحسابه .
جد لا يحتمل التلفت عنه لحظة . . وأى تلفت عنه يستنزل غضب الجبار وأخذه الحاسم . . ولو كان الذي يلتفت عنه هو الرسول . .
فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . .

إنه الحق الحاسم من رب العالمين . .

الحافة . . اسم من أسماء يوم القيمة . .

وليوم القيمة أسماء عديدة . . القارعة ويوم الدين ويوم التلاق ويوم الحسرة ويوم الطامة ويوم الخروج والصلاحة والحافة . .

والحافة هي التي تتحقق فتنزل بالحق على الناس . . وتحقق فيكون فيها الحق . . وتحقق فتفجأة . . الحافة كلمة مشتقة من الحقيقة . . والحقيقة اسم ليوم القيمة ، ويوم القيمة هو يوم الحقيقة . .

والجو كله جو هول وروع . .

هول من القدرة الإلهية . . وروع من ضآلة الإنسان والتاريخ والكون والنجم إزاء هذه القدرة . .

في البدء يقول الحق كلمة مفردة . .

(الحافة)^(٢) .

(١) سورة الحاقة الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحاقة الآية ١ .

لا خبر لها في ظاهر اللفظ ..

ثم يتبعها باستفهمان يدثره استهواه واستعظام ..
(ما الحافة) ^(١) .

ثم يزيد الاستهواه والاستعظام بتجهيل الأمر .. مخرجا الأمر عن
حدود العلم والإدراك .

(وما أدرك ما الحافة) ^(٢) .

يسكت الحق فلا يجيب عن السؤال ..

يدعك مأخوذا أمام سؤال بغير رد ..

أنت لا تدرى رده .. ولو قاله الله عز وجل لك فلن تدرى ..
هو غيب ..

هو أعظم من أن يحيط به علم البشر المحدود . أو إدراك الإنسان .
يوم القيمة الرهيب هو موضوع السورة ..
« الحافة » .

ما الحافة .

وما أدرك ما الحافة .

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) ^(٣) .

القارعة اسم جديد للحافة . فوق أنها تحق الحق ، فهي تقرع ، وذلك
ضرب الشيء الصلب بشيء أصلب . كذبت ثمود وعاد باليوم القيمة . النقلة
سقيقة في التاريخ . أنت تواجه صورة قوم عاشوا في قديم الزمان .. قوم
كذبوا باليوم الله .. لا تفصل لك الآيات أين عاش القوم ولا تحدثك عن أسماء
رسلهم ولا عن عبادتهم الوثنية ولا عن أسلوب تكذيبهم وعنادهم .. إنما يساق
إليك خبر تكذيبهم ويتلوه خبر الجزاء .

(فأما ثمود فأهلکوا بالطاغية) ^(٤) .

نعرف من سور القرآن الأخرى أنهم أهلکوا بالصيحة .. أما هنا فيذكر
الحق وصفا للصيحة دون لفظها .. يفيض الوصف بالهول المناسب لجوء
السورة .. إذا انتهيت من قراءة الآية تلشت من أمامك صورة ثمود ..

(١) سورة الحافة الآية ٢ .

(٢) سورة الحافة الآية ٣ .

(٣) سورة الحافة الآية ٤ .

(٤) سورة الحافة الآية ٥ .

طفت عليهم الصيحة وطوطهم فبادوا أمام عينيك في لحظة مثلما أبدوا
في لحظة .

بطويم السياق القرآني ويز لك صورة أخرى ..
(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)^(١) .

تشي الألفاظ بصرير الرياح وبرودتها .. ويرسم جرس الريح العاتية
في نفسك ظلا فتعرف أنهم كانوا عنة .. فأهلكتهم ريح أعنى وأشد ..
(سخرا عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما)^(٢) .

تأمل تسخير الرياح .. لم يكن الأمر مصادفة .. لم تكن الريح تهب
نتيجة لعوامل كونية أو طبيعية .. كانت رياحا باردة وعاتية ومسخرة ،
وتسخير الشيء يعني تكليفه بمهمة وأمره بشيء ..

استمر الأمر الصادر إلى الرياح سبع ليال وثمانية أيام حسوما ..
حسوما يعني قاطعة ومستمرة في القطع .. يرسم التعبير القرآني مشهد
العاصفة المدمرة ، ويحدد وقتها بالليالي والأيام .. تستطيع أنت أن تحسب
عدد الساعات التي هبت فيها الرياح ..
يتغير أمامك المشهد ..

صورة ولا صوت .. مات صوت الرياح بعد أن أدت مهمتها .. ولم
يعد باقيا غير مشهد الموت الهاشي ..

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجز نخل خاوية)^(٣) .
انتهى الأمر وصرعنهم الرياح وجوفتهم مثلما تجوف نخلا وتلقيه في
الصحراء ..

إن سؤالا يصدر من الحق تبارك وتعالى إليك ..
(فهل ترى لهم من باقية)^(٤) .

سبحانك يا الله .. ليس لأحد بعد عذابك من باقية ..
يبيد كل شيء إذا غضبت عليه ..

يتغير المشهد وينقلك السياق إلى قوم آخرين .. قوم فرعون وقوم

(١) سورة الحاقة الآية ٦ .

(٢) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٤) سورة الحاقة الآية ٨ .

لوط . سبق قوم لوط قوم فرعون في الوجود الزمانى ، ولكنهم تلاقوا معا في التكذيب ، فكانت نهايتهم واحدة . . شهقة غرق واحدة . .
(وجاء فرعون ومن قبله والمؤتكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية)^(١) .

لا يسمى الله قوم لوط احتقارا لشأنهم . . المؤتكات هم قرى لوط التي اتبعت الإفك فانقلب . . تلاقوا مع قوم فرعون في مجئهم بالنفوس الملتوية الخاطئة . . تلاقوا في عصيان الرسل المتعددين ، فكأنهم عصوا رسولا واحدا ، لأن حقيقة الرسل واحدة ورسالتهم واحدة . . كانت نهايتهم أن الجبار العظيم أخذهم أخذة رابية . .

رفعت مدن لوط وضررت بها الأرض فانفجرت من الأرض المياه ومات الأحياء غرقا بعد صدمة الضربة . . واحتلت مكان مدنهم بحيرة لم تزل موجودة . .

والتأم الموج على فرعون وجيشه فمات غرقا بعد صدمة المفاجأة . . ثمة مياه تملأ المشهد . . مياه عذاب مرير من الماء إلى الماء تنقلك السورة . . من البحيرة إلى البحر إلى الطوفان تنقلك السورة .

(انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)^(٢) .

نفس ما وقع لقوم نوح ، بعد ٩٥٠ عاما قضاها يدعوهم إلى الله وهم يرفضون دعوته ويؤذونه ويقاومون . . بعدها طغى الماء . .
حين زادت آثار الناس وتلوثت الأرض أمرها الله أن تغسل منهم . .
وارتفعت جبال الموج وألبيد الظالمون ونجا من ركب السفينة الجارية . .
وجعلها الله لنا تذكرة كى تعيها إذن واعية . .
من هول إلى هول أشد تنقلك السورة .

ثمة تصاعد في الهول وتنوع في العذاب . .
من صرخة واحدة ساخنة . . إلى ريح باردة مستمرة . . إلى مياه تعلو كل شيء ويختنق فيها كل أحد . . إلا من رحم الله . .

(١) سورة الحاقة الآيات ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الحاقة الآيات ١١ ، ١٢ .

هو نغم واحد يتلون حتى إذا وصل إلى قمته اكتشفت أنك أمام قمة أخرى
تشحب جوارها هذه القمة ..

كنت تشهد مصارع المكذبين في الأرض ..

كنت ترى ماضياً وقع .. وعذاباً تم .. وتاريخاً ذهب وانقضى ..

المكان : هو الأرض ..

والزمان : هو الماضي ..

دع عنك الماضي فسوف تنقلك السورة إلى مستقبل لم يأت بعد .. لم يقع

بعد ..

بنقلك السياق من ماضي الأرض وتاريخها إلى يوم القيمة ..

إلى مستقبل الأرض وحسابها ..

إن نغم الهول يذوب هنا ليبدأ جلال هول من لون آخر ..

كل ما أطلعتك عليه السورة من مصارع المكذبين يتوارى خجلاً أمام
عظمة الواقعه ..

(فإذا نفح في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا
دكة واحدة . في يومئذ وقعت الواقعه)^(١) .

أشهدك الله غيباً وقع في الماضي .. وهو سبحانه يريك الآن غيباً يقع في
المستقبل حيث تبدأ أهوال القيمة بنفخة واحدة في الصور ..

بوق لا ندرى حقيقته .. يمسكه ملك كريم من ملائكة الله يقول العلماء

أنه إسرافيل .. وينفح فيه إذاناً ببداية النهاية ..

ما هي صفة هذا البوق ؟

ما هي حقيقته ؟

ما دلالة هذه النفخة ؟

هذا كله غيب لا ندرى ولا نخوض فيه بغير علم .. كل ما نعرفه أنه

ما أن ينفح في الصور حتى تتبع النفخة حركة هائلة تتمثل في حمل الأرض

والجبال ودكتها دكة واحدة ..

من الذي يحمل الأرض والجبال ويدكتها دكة واحدة ؟

(١) سورة الحاقة الآيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

لا يحدثك السياق القرانى عن تفصيلات قدرة الله ، ويترك لذهنك ان
يتخيل المشهد المروع ..

يوم النفح فى الصور ، ودك الأرض والجبال .. يومئذ وقعت
الواقعة ..

بدأ يوم القيمة .. اسمه هنا « الواقعة » ..
اشارة موحية إلى المكذبين والمرتابين في حقيقة وقوعه .. بينما اسمه
« الواقعة » .

لا يقتصر الهول على حمل الأرض الثقلة والجبال الراسخة ودكها دكة
واحدة ..

إن السماء في هذا اليوم ليست بناجية .

(وانشقت السماء فهي يومئذ واهية)^(١) .

السماء في اللغة هي كل ما علا الأرض .. والسماء المقصودة هنا هي
الكون بنجومه ومدنـه النجمية و مجراته وسدائمه ..

انشقت السماء فهي يومئذ واهية ..

انفجرت فقاعة الصابون بعد أن تمددت ورق غشاوتها ووهـت
جدرانها ..

انطفأت النجوم ويردت .. انتهى الأمر وانفرط عقد الكون ومات الكون
ذاته ..

بعد ضجيج يوم القيمة وأصواته المروعة .

بعد النفحة الصاعقة في الصور ..

بعد صوت دكة الأرض والجبال .

بعد أصوات انفجار الكون وتشققه وانهياره ..

بعدها ينسدل الجلال على المشهد وينغشه ..

تسكن الضجة ويملاً النور مكان المكان ..

يبيد كل شيء .. وينتهي كل شيء .. ويظهر في المشهد عرش الواحد
الأحد تحمله الملائكة .

(١) سورة الحاقة الآية ١٦ .

(والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية)^(١) .

يظهر الملائكة على أرجاء السماء المنشقة وأطراها . والعرش فوقهم
يحمله ثمانية . .

ثمانية من الملائكة . .

أو ثمانية صفوف منهم . .

أو ثمانية طبقات من طبقاتهم . .

أو ثمانية ملابسين أو بلايين . .

أو ثمانية مما يعلم الله . .

هذا كله غيب . .

عرش الله نفسه سبحانه غيب . .

لا ندري صفتة . . وإن آمنا بوجوده . .

لا نعرف كيف تحمله الملائكة . . وإن صدقنا أنهم يحملونه . .

لا نعرف ولا يصح أن نحاول المعرفة . .

مثل هذه المعرفة اليوم لا تفيينا شيئاً في استخلافنا على الأرض ، زودنا
خالق العرش في الأرض بما يحقق حكمته العليا من الخلافة .

وحدثنا رحمة منه وتكرما عن عرشه وملائكته . .

وتركنا لنؤمن أو ننكر . .

ولو عرفنا اليوم حقيقة عرش الله أو ملائكته . . لو رأينا اليوم طرقاً من
غيب الله لذهب اختيارنا وبطلت إرادتنا والفيينا أنفسنا . مجبرين على
الإيمان . .

واذن تنتهي الحكمة من خلق الإنسان وابتلائه .

سنعرف حقيقة هذا كله حين نستيقظ يوماً من الموت . .

سنرى بأعيننا وبصائرنا ما لا نستطيع اليوم تخيله . .

سنملك من القدرات ما يمكننا من الرؤية يومئذ .

دع عنك فضول الفضول وادلف إلى الظل الجليل الذي يخلعه العرش
على الموقف . .

(١) سورة الحاقة الآية ١٧ .

تصور عظمة الموقف وعرش الله تبارك وتعالى أمامك . . . تصور رهبة الموقف . .

(يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية)^(١) .

يومئذ ستري كل ما أردت رؤيته . .

ويومئذ يرى الله تعالى كل ما أخفيته حتى عن نفسك . .

كان يراه وأنت لا تدري . . واليوم يراه وأنت تشهد . .

يومئذ تسقط الأستار التي كانت تحجب الأسرار . .

وتتعرى النفوس تعرى الأجساد . . وتبرز الغيوب بروز الشهود .

(يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية)^(٢) .

أخيرا يقف المخلوق عاريأ أمام الخالق . .

أخيرا تقف عاريأ أمام خالقك . .

تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الهائل بلا ستار .

عاري الجسد والقلب والضمير . .

عاري الشعور والنية والعمل . .

منتظرا قضاء من لا راد لقضائه . .

وحكم من لا معقب لحكمه . .

يقع هذا كله بعد البعث في اليوم الآخر . .

(١) سورة الحاقة الآية ١٨ .

(٢) سورة الحاقة الآية ١٨ .

البعث

يشبه النوم بحراً إحدى جزره هي الموت . . وشاطئه الأخير هو البعث
والعالم الآخر . . يرقد الإنسان على ظهره ويطفئ نور العالم الخارجي
باغلاق جفونه ، يغمض الإنسان عينيه فكأنما يقطع تيار الحياة عن عقله .
تهداً ضربات القلب ويتسلل إلى العقل شيء غامض .
في البداية يعبر الماء موجاً أخضر من مياه البحر . . لم يزل الموج
يشف عن قاعة القريب من شاطئ اليقظة . .

أى مؤثر من العالم الخارجي يستطيع إيقاظ النائم . .
تبطئ ضربات القلب أكثر . . ويقع شيء غير مفهوم للعقل فيبطئ
نهر الأفكار من تدفقه . . يعبر الماء موجاً أزرق . . نبتعد عن الشاطئ
أكثر . . وتنسدل على العقل ستارة تمنع العالم الخارجي أن ينفذ إليه .
بعد ساعة من النوم تبدأ المياه الغريبة . .
ينقلب الماء ويهدهده موج داكن الزرقة . .

مثل تنفس البحر يتنفس الإنسان . . تناسب في الأفق القريب أشرعة
الأحلام البيضاء . . تزداد توغلًا في البحر . . تدخل المياه الداكنة . . يهدأ
الهياج الجامع للموج ويتحول الماء إلى زيت . . هذه مياه النوم العميقه . .
لا أحلام هنا . . وهنا لا يصل إلى الواقع أحد .

نحن أمام تجربة كاملة من تجارب الموت . .
تقدّم إليك رحمة الله بروفات للموت كل ليلة . .
أرأيت أحداً من الناس يكره النوم؟ ألم تر كيف يعلن الناس عن احتفالهم
بالنوم بالتأذيب . . لماذا يكره الناس الموت ويتصورونه نهاية . . بينما هو
مرحلة من مراحل الطريق يجيء بعدها اليوم الآخر . .

يموت الإنسان إذا نام ثم يبعثه الله إذا جاء أوان يقتطعه . .
كيف ينكر الإنسان بعث الموتى وهو يموت كل ليلة ويبعثه الله كل
صباح .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهاير ثم يبعثكم فيه
ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبعكم بما كنتم تعملون)^(١) .
لا شيء يمضى عبثا ولا شيء يقع عفوا .

كل شيء مقدر ومحسوب ومسجل ، وكل شيء يعلن عن قدرته
سبحانه . وكل شيء يسجد لعظمته ويعرف جبينه في تراب الذل أمام كبرائه .

(أفحسبيتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله
الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)^(٢) .

يقوم الإيمان بالله في العقيدة الإسلامية على الإيمان باليوم الآخر .
لا يكون المؤمن مؤمنا إذا آمن بالله ولم يؤمن بيوم البعث . . وذلك يوم
قيامة الموتى من القناء وعودتهم إلى الله . .
إن الإيمان بالله . . يضع يدنا على معرفة المصدر الأول الذي صدر
عنه الكون .

والإيمان باليوم الآخر . . يحقق المعرفة بمصير الوجود . . ويوضع يدنا
على النهاية التي ينتهي إليها الكون . .

ويوم القيمة ضرورة من ضرورات عدل الله . كما أن الجنة والنار
ضرورتان من ضرورات رحمة الله وعدله . .
كثيرا ما ترى الملحدين في الدنيا يملكون أسباب التقدم . . ويستمتعون
بكل شيء ، ويحضرون لإرادتهم كل أحد . . وربما رأيت المؤمنين يتعثرون
في عباءة الفقر والأحزان والمشاكل .

وكثيرا ما ترى الجريمة في الدنيا تجلس في مقاعد القضاة ، وتحكم على
الخير بالسجن والتشريد والموت ، كثيرا ما ترى الشر يكسب ما كان ينبعى
على الخير أن يكسبه . . كثيرا ما تنتهي الجولات بين الخير والشر بانتصار
الشرور . .

(١) سورة الانعام الآية ٦٠ .

(٢) سورة المؤمنون ١١٥ - ١١٦ .

وتمضي الأيام ويموت أصحاب القضايا والحقوق ، وتطوى الصفحة
على الظلم ..

لو كانت الدنيا هي أيام الله وحدها لكان ما يقع فيها من الظلم أضعف
ما يقع فيها من العدل ..

لو اقتصر الوجود على الدنيا .. وكانت أغلبية الوجود ظلما بحثا ..
تبارك الله تعالى على ذلك ..

لقد خلق الله الدنيا دارا للابتلاء . (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم
أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)^(١) .
وخلق الله اليوم الآخر دارا للقضاء .

اسأل نفسك ما هي قيمة أي انتصار يحرزه الشر في الدنيا ، لو عرفت أن
جميع القضايا سيعاد نظرها مرة ثانية أمام الله يوم القيمة .

ولن يكون القاضي هذه المرة إنسانا يمكن التأثير فيه أو خداعه . إنما
سيكون الحق هو القاضي .. سيكون الله هو القاضي ..

ولن يكون الشهود شهود زور يمكن شراؤهم ، إنما ستكون الأيدي
والأقدام والعيون والأذان شهودا على الإنسان ..

وسوف ينادي الله يوم قيام المحاكمة الكبرى سائلا .
(لمن الملك اليوم)^(٢) .

وسيرد عن الكائنات لسان ذلها وانسحاقها قائلا :
(لله الواحد القهار)^(٣) .

ويحكم الله على عباده .. (ونضع الموازين القسط ليوم
القيمة)^(٤) .

عندئذ يتحقق العدل ..

يتتحقق بشكل مطلق ونهائي وحاسم .. للمرة الأولى في الوجود .

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم)^(٥) .

.....

(١) سورة الملك الآية ٢ .

(٢) و (٣) سورة غافر الآية ١٦ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٥) سورة غافر الآية ١٧ .

استبعد كثير من الناس فكرةبعث .

(وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)^(١) .

وتساءل كثير من الناس .

— كيف يعيد الله بعث الأجساد بعد أن تتحول إلى التراب ؟

والحقيقة أنها لا تتحول إلى التراب فحسب . إنها تتحول إلى ملايين الصور قبل أن تتحول إلى التراب . لقد أكلت إحدى أسماك البحر عين فرعون . ثم اصطاد السمكة صياد ، وأكلت ابنة الصياد عين فرعون والسمكة ، ثم ماتت ابنة الصياد فتحولت إلى شجرة ورد في حديقة ، ومن عين فرعون نمت شجيرات عشب ، جامت إحدى الأبقار الجائعة وأكلت العشب ، ثم ذبح الجزار البقرة ، وزع عين فرعون والسمكة وإبنة الصياد على عشرات من الناس فأكل الناس . مات هؤلاء الناس وأكلهم ناس آخرون .

كيف يبعث الله عين فرعون الضائعة في ملايين الصور .

أريد أن أضحك قبل أن أجيبك .

أتظن أن الأمر صعب . . ؟

من الصعب علينا نحن أن نبحث عن عين فرعون . مثلاً يصعب علينا أن نسترد طعاماً أكله الذباب منا . .

(وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب)^(٢) .

مجرد البحث عن عين فرعون صعب . .

لقد ولدت العين الظالمة في ملايين الصور الجديدة . ولهذا يصعب العثور عليها واسترجاعها . . هذا ما تظنه أنت . .

نحن نعرف بشبهة منكري البعث ، ونواجههم على استبعادهم عودة الأجساد بعد تحولها وفنائها . لو كانوا هم الذين سيغيثون هذه الأجساد ! ! . .

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٢) سورة الحج آية ٧٣ .

أما إذا كان الله تعالى هو الذي سبّع الأجساد الفانية . .
أما إذا كان الله هو الذي يريد . .
فالأمر يختلف . .

بالنسبة إليه تعالى لا يقع الأمر كما يقع منا . .
إذا أراد الإنسان استرجاع عين فرعون . . فعليه أن يبحث عنها خلال
ملايين الصور التي تحولت إليها . . والأمر مستحيل . .
أما إذا أراد الله سبحانه استرجاع فرعون كله . . فلا عليه أن يبحث
سبحانه . . إنما هو يأمر فقط . . (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون فسبحان الذي بيده ملکوت كل شيء وإليه ترجعون)^(١) .
سيأمر الله فرعون أن يقف بين يديه . . استيقظاً من الموت . .
حضوراً من العدم . . من الضياع . . من التشتت . . من التوزع في
ملايين الصور . .
 مجرد الأمر يكفى . .

مجرد توجه المشيئة الإلهية يكفى . .
لا تسأل إذن . . من يحيي العظام وهي رميم ؟ . .
 وإنما تأمل قوله تعالى :
(وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ،
قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق علیم)^(٢) .

.
 قبل أن يولد فرعون كان عدماً . .
 كان فناً . .
 كان صفرًا . .

ثم أمر الله قطرة من الماء المهيمن أن توجد . .
 ومن هذه قطرة أمر أن يخلق فرعون . .
كيف يصعب على من يخلق من العدم أن يعيد بعث صورة ترابية توزعت
في ملايين الصور . .
 سبحانه وتعالى على الصعوبة والسهولة وكل مسمياتنا البشرية .

(١) سورة يس الآيات ٨٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة يس الآيات ٧٨ ، ٧٩ .

(أفعيننا بالخلق الأول ، بل هم في لبس من خلق جديد)^(١) .
 يلفت الله نظر عباده إلى تحولات الإنسان وتحولات الأرض ، كمظهر
 من مظاهر إعجازه وقدرته . . ويوجه أنظار المرتابين في البعث إلى أنه
 خلقهم من تراب . . ثم صور لهم مراحل خلقهم وقارنها بالأرض حين تموت
 وينزل عليها الماء فترتد إلى الحياة . . ثم أفهمهم أن قدرة الله لا يعجزها في
 الكون شيء . .

يقول تعالى في سورة الحج :

(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإذا خلقناكم من تراب ثم
 من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر
 في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا
 أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من
 بعد علم شيئا ، وبرى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
 وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق . وأنه يحيي الموتى .
 وأنه على كل شيء قادر . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من
 في القبور)^(٢) .

(١) سورة ق الآية ١٥ .

(٢) سورة الحج الآيات ٧ ، ٦ ، ٥ .

الساعة والحساب

تقوم قيامة الإنسان إذا مات ..

وتقوم قيامة الأرض إذا جاءت الساعة ..

وقيام الساعة يعني نهاية الحياة البشرية ، ويعنى موت الكون واختلال قوانينه الحاكمة ، وانطفاء نجومه و مجراته وصيروحة كل شيء إلى الفناء ..
(يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب .. كما بدأنا أول خلق نعيده)^(١).

وقيام الساعة غيب ..

استأثر الله وحده بعلمها . وسئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند رب لا يجيئها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بقترة يسألونك كأنك حفي عنها قل : إنما علمها عند الله)^(٢).

وقيام الساعة يعني وقوع الحساب .. ويعنى التفريق بين المؤمنين والكافرين ، ويعنى رد المظالم إلى الذين ظلموا ، ويعنى التمييز بين المتقين والفجار ، ويعنى قبل هذا كله وبعده .. تنزه الخلق عن العبث والباطل .. وصيروحة كل شيء إلى منشئه وبارئه ، وعودة الخلق إلى ربها ومولاه ..
(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)^(٣).

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٣) سورة من الآية ٢٧ .

وقيام الساعة يقتنى بالحساب والله هو الذى يتولى حساب البشر وغيرهم من خلقه .

وحساب الله تبارك وتعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لا يفلت ذرة ولا أقل من الذرة ، وثمة قاعدة أصيلة تحكم الحساب وتبين بدقته وأحاطته . قوله تعالى أنه مع الخلق وينبئهم بما عملوا ..

(ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبعهم بما عملوا يوم القيمة إن الله بكل شيء علیم)^(١) .

ويترفع من هذه القاعدة الأساسية عديد من القواعد التفصيلية : سنرى يوم القيمة أن الإنسان كان خاضعا لرقابة رهيبة دون أن يحس .. وسنرى يوم القيمة أن انكار المنكرين لا يجديهم ، وسنرى أن محاولتهم الأفلات لا تنفعهم .. إن الأرض تشهد عليهم . وصحف الملائكة تشهد عليهم .

وكتب الأعمال المسجلة تشهد عليهم . حتى الألسنة والأيدي والأرجل تشارك في الشهادة . حتى سمع الناس وأيصالهم وجلودهم تشهد عليهم . انتهى الأمر وضاقت الحلقة حول الإنسان وغيره من خلق الله . كيف تشهد الأرض على الناس ؟

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها .. وأخرجت الأرض أثقالها .. وقال الإنسان ما لها .. يومئذ تحدث أخبارها)^(٢) .

توقف عليه الصلاة والسلام وسأل : أتدرون ما أخبارها .. ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها « رواه أحمد والبغوي والترمذى وصححه » .

كيف تشهد كتب الأعمال المسجلة على الإنسان ؟ تأمل قوله تعالى : (وكل إنسان الزمان طائره فى عنقه ونخرج له

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .

(٢) سورة الزلازل الآيات من ١ إلى ٤ .

يُوْم الْقِيَامَةِ كِتَابًا يُلْقَاهُ مُنْشُورًا أَقْرَا كِتَابَكَ كَفِي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)١(.

كيف تشهد الألسنة والأيدي والأرجل .

أنظر قوله تعالى : (يُوْمَ تُشَهِّدُ عَلَيْهِمُ الْأَسْنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، يَوْمَئذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ . وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)٢(.

ومثال شهادة الألسنة والأيدي والأرجل ، شهادة السمع والأبصار والجلود ..

قال تعالى في كتابه العزيز : (وَيَوْمَ يَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهَدُوا عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا : أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلْقُكُمْ أُولَمْ رَبُّهُمْ تَرْجِعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشَهِّدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكُنْ ظَنْنُكُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كُثِيرًا مَا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرِبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)٣(.

.....

إذا كان عدد الشهود هكذا .. فكيف تكون دقة الحساب يوم القيمة ..

يشير الحق تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةِ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)٤(.

نريد أن نتوقف قليلاً عند قوله تعالى :

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

أى ضمادات لدقة الحساب واحاطته وشموله يطلبها البشر بعد هذا الضمان .. أى ضمادات للعدل والرحمة يطلبها البشر بعد هذا الضمان ..

(١) سورة الاسراء آية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة النور الآيات ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) سورة فصلت الآيات من ١٩ إلى ٢٣ .

(٤) سورة الانبياء الآية ٤٧ .

ليس بعد عدل الله ورحمته عدل أو رحمة .
وكفى بنا حاسبيين) .

سئل الإمام على كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين .. كيف يحاسب
الله الناس كلهم في وقت واحد .
قال - كما يرزقهم في وقت واحد .

○ ○ ○

الجنة والنار

إذا فرغ الله تعالى من حساب عباده . .
ادخل أصحاب الجنة . . ودفع بأصحاب النار إلى النار . .
الإيمان بهذه الحقيقة جزء من الإيمان بالله تعالى . . لا يصح إيمان
إنسان يؤمن بالله وينكر الجنة أو النار .

والجنة والنار غيب من غيب الله تعالى كالملائكة واليوم الآخر وأسلوب
الحساب . غير أن الإيمان بالله يعني الإيمان بالغيب الذي حدثنا عنه . ولقد
حدثنا الله تعالى أن له عبادا يدخلون الجنة ، وأن له خلقا يدخلون النار . .
بشر الله عباده المؤمنين بالجنة ونعمتها . . كما خوف عباده الكافرين بالنار
وعذابها . .

.....
قال تعالى في وصف النار :
(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به
عباده يا عباد فاتقون) الزمر .
وقال تعالى في وصف الجنة :
(ويشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها
الأنهار) البقرة من الآية ٢٥ .

.....
نريد أن نلتف النظر إلى ملاحظة أساسية قبل أن ندخل في موضوع
الجزاء الذي وضعه الله لدار الابتلاء في الدنيا .
هذه الملاحظة أن الجنّة غيب . والنار غيب . وكل ما ذكر عنهما من

الفاظ إنما ذكر لتقريب المعنى من الذهن البشري . (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصلبهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيم)^(١) .

حين يقول الله تعالى أن هناك نارا تحرق الجلود وبدل الله الجلود بغيرها ليستمر الاحتراق . . حين يقول تعالى ذلك نفهم من ذلك أن جسد الإنسان لن يكون كجسده على الأرض . . إن شيئا مجهولا سيقع للجسد الإنساني فيمنعه من الموت . .

نعرف من حقائق الحياة على الأرض أن النار إذا أحرقت جلد الإنسان كله مات الإنسان على الفور .

كيف تحرق نار الآخرة جلد الإنسان فيبدل الله بجلد آخر ليستمر الاحتراق ؟

هل سيموت الموت يوم القيمة . . أم أنها ستنشأ خلقا آخر يتحمل عذابات الجحيم ونعميم الجنة . ؟

يشير النص القرآني إلى اختلاف النشأة الأخرى يوم القيمة بقوله في سورة الواقعة : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ونشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

ينفي القرآن عن الإنسان معرفته بهذه النشأة الأخرى . وإن صرخ بأنها تختلف تمام الاختلاف عن النشأة الأولى . .

ولعل هذا أول خطير راعب يصلنا من الوعيد . .

إن طاقة الإنسان على الاحتمال فوق الأرض محدودة بحياته وجسده .

أما طاقة الإنسان على الاحتمال بعد قيامه من الموت في الآخرة فهي بلا حدود .

أى نعيم هناك يستمر . . وأى جحيم هناك يستمر . .

هذه الحقيقة الأولى تكفى لالقاء الرعب في قلب أعظم الأسود الظالمة على الأرض . . إن عمر الإنسان النسبي على الأرض يتراوح بين الستين عاما والمائة ، لو زاد عن ذلك لم يزد إلا قليلا .

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

أتساوى هذه الأعوام حقباً وعصوراً وأزمنة ودهوراً من العذاب الذي
لا يتوقف ؟

يحدثنا القرآن الكريم أن قسوة العذاب تدفع الكافرين إلى تمنى الموت
والصراخ توسلاً له أن يجئ .

(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربنا . قال انكم ماكثون)^(١) .

إن مالك هو اسم لأحد ملائكة النار الأشداء .

وضيوف النار المؤبدين يتسلون إليه أن يتسل إلى ربه أن يريحهم
بالموت ويقضى عليهم . . ويجيء رد الملك الكريم موجزاً غاية الإيجاز . .
صريحاً كل الصراحة . . حاسماً راعباً هادئاً في كلمتين . .

— انكم ماكثون .

لا أمل في الخروج إذن . . ولا أمل في الموت . . ولا سبيل إلى
الراحة .

يقول الشاعر أبو الطيب المتنبي :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يكون أمانياً

هذه الصورة الشعرية المتخيّلة تتحول إلى واقع حقيقي يعيشه الكافرون
في النار . . إنهم يتمسّكون الموت للخلاص من العذاب . . ولا موت .
وهم يلقون في مكان لا يمتهن من فرط قسوته ورعبه . . مكان لا يسبّع
أبداً ويطلب المزيد دائماً .

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)^(٢) .

قال مجاهد . . ليس هناك قول وإنما جرى الكلام على سبيل تمثيل حال
جهنم بأنها امتلأت حتى لم يبق فيها مكان خال . . ونحن لا نرى بأساً من
رفض هذا الفهم ، فإن الجنة مخلوق من مخلوقات الله عز وجل . . والكلام
يجري يوم القيمة ، ويوم القيمة تقلب طبائع الأشياء ، وتتكلم الأيدي
والأقدام ، وتشهد الجلود والأسماع . . وأدعى إلى الرعب أن تتكلم النار . .
ولو تأملنا سؤال الكافرين لأعضائهم - لم شهدتم علينا .

ورد هذه الأعضاء : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . .

(١) سورة الزخرف الآية ٧٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٣٠ .

لو تأملنا ذلك لأدركنا أن لا غرابة في كلام النار يوم القيمة . .
 إن كلامها ينسجم مع الجو الرهيب الموحش الذي يرسمه الحق عز وجل
 لعذابه ، وهو عذاب يود المجرم لو افتدى نفسه منه بكل من يحب .
 (. . . .) يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته
 وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جمِيعاً ثم ينجيه .
 كلا (١) .

غير أن كل أمنيات المجرمين في الافتداء تضيع بدوا . .
 إنهم يدخلون النار أخيراً . . وهم يدخلونها لأسباب وجيهة .
 (إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون . عن المجرمين .
 ما سلككم في سقر .
 قالوا : لم نك من المصلين .
 ولم نك نطعم المسكين .
 وكنا نخوض مع الخائضين .
 وكنا نكذب بيوم الدين .
 حتى أثانا اليقين) (٢) .

حتى أثانا الموت . . لم يترب أحدنا قبل موته ، ولهذا تجاوزتنا رحمة الله
 وأستحق عملنا أن ندخل النار .
 وإن يعترف الكافرون بالأسباب التي أدخلتهم النار . .
 وهكذا يدخل الناس الجحيم بعملهم . .
 ولكنهم يدخلون الجنة برحمة الله . . لأن عمل الإنسان مهما تسامى
 لا يوازيه أو يساوئه أن يدخل الجنة .
 إنما يسمح الله للناس بدخول جنته رحمة منه ، وإن نسب ذلك سبحانه
 لعملهم . .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله .
 قالوا : حتى أنت يا رسول الله .

(١) سورة المعارج الآيات ١١ - ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآيات ٣٩ - ٤٧ .

قال : حتى أنا . . إلا أن يتغمدني الله برحمته .
 لا تنفي هذه الحقيقة أن دخول الجنة يتوقف على من يبيع الله تعالى نفسه
 ويقاتل في سبيله ويعبده ويحفظ حدوده ويسجد له ويرکع .
 تحدث الله تعالى في سورة التوبة الآياتان ١١١ ، ١١٢ عن صفة أهل
 الجنة .

(إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
 يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة
 والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببِيَعْكُمُ الَّذِي
 بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

التائبون

العبدون

الحامدون

السائحون

الراکعون

الساجدون

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

والحافظون لحدود الله

وبشر المؤمنين) .

• • • • •

تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بالجنة والنار . .

والإيمان بنعيم الجنة وعذاب النار . .

ويسيطر عليها أن هذا النعيم ليس نعيمًا حسياً فحسب . .

وأن عذاب النار ليس عذاباً حسياً فحسب . .

ان قاعدة أصلية تهيمن على الجنة والنار . .

قاعدة أوردها الرسول في حديث له .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال :

« أَعْدَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ . وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ

على قلب بشر . . اقرأوا ان شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من فرة
أعين)^(١) « .

ينطبق هذا الكلام على الجنة .

وينطبق بمفهوم المخالفة على النار . . فقد أعد الله لعباده الكافرين
ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

(فضِّرَتْ بَيْنَهُمْ بَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ
العذاب)^(٢) .

واذن فان نعيم الآخرة لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا .

وجحيم الآخرة لا يشبهه شيء من عذاب الدنيا .

ان شابهه فى الاسم فهو مختلف عنه فى الصفة . .

لا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء .

وكذلك النار . .

• • • •

لم نحدثك بعد عن أعلى نعيم في الجنة . . كما تصوره العقيدة
الإسلامية .

أيضا لم نحدثك عن أرهب عذاب في النار . .

تجاوز بفكرك فواكه الجنة وحورها العين ولحم الطير وكل أنواع
المنع . .

وتجاوز بفكرك نار الجحيم التي تشوى الجلد وتصهر البطون وتغلق
بها الأدمغة . .

تجاوز هذا كله وارتفاع أكثر . .

إلى نعيم ينخسف جواره نعيم الفردوس الأعلى . .

أو إلى جحيم تشحب جواره نار سقر . .

نتحدث عن الله عز وجل . .

ان الذين يعبدون الله خوفا من ناره يشبهون عبدا خائفًا من سيده .

والذين يعبدون الله طمعا في جنته يشبهون عبدا طامعا في سيده . .

(١) سورة السجدة آية ١٧ .

(٢) سورة الحديد آية ١٣ .

ولا بأس بالخوف والأمل ما داما في الله
 غير أن فوق الطمع والخوف قمة لم نصل إليها بعد . .
 قمة هي ذروة الذري ومنتهى أمل السالكين . .
 وجه الله تقدست ذاته . .
 النظر إلى وجه الله تقدست ذاته .
 إن الله العظيم الجليل يحجب ذاته عن أهل النار غضبا عليهم ، ويكشف
 نور حجابه الأقدس فيراهم أهل الجنة . .
 يقول تعالى في صفة أهل النار :
 (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لم矽وبون)^(١) .
 ويقول تعالى في صفة أهل الجنة :
 (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة)^(٢) .
 عندئذ تسفر النار عن وجهها الحقيقي . . ويبداً عذاب المحظوظين عن
 الله . .
 وعنده تسفر الجنة عن وجهها الحقيقي . . ويبداً نعيم الناظرين إلى
 الله . .
 توارى النار وتتوارى الجنة . . وتظهر الحقيقة الكبرى . .
 لا يبقى غير نار بعد من الله .
 ولا يبقى غير نعيم النظر إلى وجهه .
 عن أي عذاب أو نعيم تسأل بعد ذلك ؟

(١) سورة المطففين الآية ١٥ .

(٢) سورة القيامة الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

القضاء والقدر

تقوم العقيدة الاسلامية على أن الایمان بالله تعالى يستوجب الایمان
بقضاءه وقدره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعريف الایمان : أن تؤمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والقدر خيره وشره وحلوه ومره من
الله . . . (حديث صحيح) .

لا يتحرك عصفور في عشه إلا يعلم الله هذه الحركة ، سجلت في
كتاب منذ الأزل . .

لا تسقط ورقة من شجرة إلا والله يعلم سقوطها . . جرى بها قضاء الله
وقدره . . لا ترتعش يد عاشق إلا يعلم الله سر ارتعاشتها ، سبق العلم الالهي
بها . .

كل أحداث الأرض والكون ، كل أحداث التاريخ والزمن ، كلها مسجلة
عند الله في كتاب . يعلم الله الأشياء قبل أن تقع ، ويحيط علمه بها قبل أن
تولد ، ولا يخرج شيء في الكون عن علمه سبحانه ، سواء كان هذا الشيء
عظيمًا أم بسيطًا . . ابتداء من أطماء الملوك ودسائس الساسة ، وانتهاء
برغبات الأجنحة وأحلام الأطفال . . لا شيء يخرج عن علم الله . . تستوي في
ذلك أخطر الأشياء وأكبرها ، وأقلها وأصغرها . . سجل الله تعالى حرکات
النجوم والأفلاك ، كما سجل همس النفس . .

الله أقرب إلى كل شيء من ذرات هذا الشيء ونواته . .
والله أعلم بكل شيء من معرفة الشيء بذاته أو حياته . .

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)^(١) .

وحبل الوريد جزء من جسد الانسان ، والله أقرب إلى الانسان من أجزاء الانسان للانسان . .

وإذن . . فإن كل شيء وقع على كوكب الأرض ، أو يقع عليه ، أو سيقع عليه ، سواء كان هذا الكوكب هو وحده العامل بالانسان ، أو كانت هناك كواكب أخرى . . كل شيء مسجل في كتاب . .

قبل أن يخلق الله تعالى الخلق . . أحاط علمه بكل ما سيقع من الخلق . . وكتب الحق سبحانه وتعالى كل ما سيحدث . .

يختلف علم الله سبحانه وتعالى عن علم البشر . .

يجهل البشر ما سيقع غدا . . ويجهلون ما سيكون من أمرهم بعد سنوات . .

وتظل اللحظة القادمة بالنسبة إليهم سجينه في الغموض . . بينما يعلم الله تعالى الماضي والحاضر والمستقبل من قبل أن يقع الماضي والحاضر والمستقبل . .

ان النص القرآني صريح في الدلالة على ذلك . . قال تعالى : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين)^(٢) .

هذا الكتاب المبين ، هو ما نعرفه في العقيدة الإسلامية باسم القضاء والقدر .

هذا الكتاب المبين هو علم الله الأزلى السابق (الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى)^(٣) .

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان الإيمان بالقضاء والقدر جزءا من الإيمان بالله تعالى . .

كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف قبل بعثته بالرسالة أنه سيكون نبيا . .

(١) سورة ق آية ١٦ .

(٢) سورة يومن الآية ٦١ .

(٣) سورة الأعلى آية ٢ و ٣ .

فلا صار نبيا مارس حرية الانبياء واحتمل أمانة الرسالة وبذل جهدا
بشريا لا يطأوله جهد بشري ، ولم يتوقف يوما ليسأل عن علاقة فعله
بالقضاء والقدر ..

وكان الصحابة يعرفون ان الاسلام دين بغير معجزات حسية مبهرة ..
فصنعوا من مقاومتهم للشر ودعوتهم إلى الحق معجزة حسية باهرة .. مع
إيمانهم بالقضاء والقدر ..

كانت فكرة النبي والصحابة عن القضاء والقدر أن الله كتب كتاب الخلق
قبل خلقه . ورغم ذلك لم يتوقف أحدهم ليسأل :

— إذا كان الله يعلم ما سأفعل .. فأين حرفيتي كأنسان فيما أفعله ..
لم يتوقف أحدهم ليأسأ :

— هل الانسان مسيير أم مخير .. هل الانسان حر أم مسلوب
الارادة ..

كانوا أحكم من ذلك وارسخ في دين الله ..
فهموا أن القضاء والقدر لا ينافي حرية الانسان ..
وأدرکوا أن حرية الانسان لا تقف أمام طلاقة المشيئة الالهية ..
كان الانسجام بينهم وبين الكون شيئا يثير الدهشة ..
لقد آمنوا بالقضاء والقدر كاطار عام تتحرك داخله حرية الانسان وقدرته
على الحركة .. وأيسط دليل على ذلك ما استطاعوا تحقيقه في ثلاثة
وعشرين عاما ..

ان الطفرة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم كانت حدثا لا مثيل له
في تاريخ العقائد ، كما كانت دولة الاسلام دولة لا مثيل لها في تاريخ
الدول ..

تحول المجتمع العربي بعد الاسلام إلى حضارة راسخة تملك أسباب
حياتها الدائمة ، وتملك فكرها الالهي وتفسيراته البشرية ..
وبعد مجموعة القبائل التي تتناحر لأنفه الأسباب .. صار ل الاسلام دولة
سخرت كل عبقريتها العسكرية لنشر طموحها في الدعوة إلى الله وتحرير
الانسان ..

قبل معركة القادسية .. وقفت جيوش المسلمين بقيادة سعد بن أبي
وقاص أمام جيوش الفرس بقيادة رستم .. كان عدد الجيش الفارسي

مائتين وأربعين ألفا . . أما جيش المسلمين فكان عدده اثنين وثلاثين ألفا .
أى أن عدد الجيش الفارسي كان ثمانية أضعاف جيش المسلمين . .
ورغم هذه الحقيقة فقد هزم المسلمون جيش العدو ، وحطموا قوته
العسكرية ، وانفتح الطريق إلى قلب فارس . .

حدث قبل القتال أن بعث رستم قائد الجيش الفارسي إلى سعد بن أبي
وقاص رسولا يقول له « ان رستم يقول لكم أرسلوا إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا »
واختار سعد ريعي بن عامر . . وهو جندي عادى من جنود المسلمين
القراء . ودخل ريعي معسكر الفرس المدجج بالفيلة والفرسان والمشاة
والرماة . .

دخل على فرس عارية وفي يده رمحه وقد شد سيفه في وسطه . .
قال له الحرس : ضع سلاحك .

قال : لم آتكم برغبتى فاضع سلاحى بأمركم . . أنتم دعوتونى فان
أبيتم أن آتكم إلا كما أريد ، وإلا رجعت .

فأخبروا رستم فقال : « ائذنا له . . هل هو إلا رجل واحد » .
وأقبل الجندي المسلم وهو يتوكأ على رمحه ويمزق به البسط الفارسية
عبدا مشيرا بذلك إلى احتقاره لزيتهم . . فلما دنا من رستم جلس على
الأرض ورشق رمحه في البسط . . بعد أن ربط فرسه في مخدات مذهبة
مزقها ليربط فيها مقود الفرس .

سأله : ما حملك على هذا « يقصدون تعزيقه للبسط والوسائل » .

قال : أنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه .

سأله رستم : ما جاء بكم « يقصد الجيش الإسلامي بقيادة سعد » .

قال الجندي المسلم : الله ابتعتنا . . والله جاء بنا لنخرج من شاء من
عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان
إلى عدل الاسلام . . الله أرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا
ذلك فبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يحكمها دوننا . . ومن أبى
قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعد الله . .

قال رستم : وما موعد الله ؟

قال الجندي المسلم : الجنة لمن مات على قتال من أبي ، والظفر لمن

بقى . .

هذا الجندي المسلم كان يعرف عن القضاء والقدر أكثر مما عرف علماء متأخرون تخاصموا بعد ذلك على الألفاظ . .

ان القدر الكافى من الحرية الانسانية كان لا ينقص هذا الجندي المسلم . . وهو قدر دفعه للخروج من بيته فى الجزيرة العربية والانضمام لجيش المسلمين وتحركه أيامها وشهورا حتى وقف أمام الجيش الفارسى . . هذا الجندي حر اذن . . وهو يعلم أنه حر . . غير أنه لحكمته يعلم أنه ليس حرا . . هو عبد مخير ، عبد لأن الله خلقه على الأرض فى هذه البقعة الزمنية والتاريخية . . وهو مسير لأن « الله ابتعثنا ». وليس له دخل فى ابتعاث الله له وخلقه اياه . .

غير أنه مخير فى مجئه إلى هنا . . لقد اختار بارادته أن يقاتل دفاعا عن عقيدة التوحيد . . غير أنه ينسب اختياره هنا إلى الله تأدبا فيقول « والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله » ان الجملة خير تفسير عملى لمعنى القضاء والقدر . . ان الجندي المسلم ينسب الخير إلى الله ، فإذا فعل شرًا نسبه إلى نفسه . .

دار هذا الحوار فى عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . .
كان العهد قريبا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم . . ولم تكن فكرة القضاء والقدر قد خرجت من ميدان الفعل إلى ميدان القول . . وصارت جزءا مما يسمونه علم الكلام . . حين تخرج أحدى عقائد الاسلام من ميدان التطبيق إلى ميدان الجدل النظري ، فهذا يعني خروج الفكرة أو العقيدة من المجال الذى يمكن دراستها فيه ، وهذا يعني عدمية كل مناقشة نظرية لها . . هل الانسان مخير أم مسير . .

هذا السؤال لا يمكن الاجابة عنه نظريا . . ان الانسان ليس مخلوقا بهذه البساطة .

الانسان مخلوق شديد التركيب والتعقيد والاعجاز . . وهو يتعرض لمواقف متعددة فى الحياة ، ويتعرض للتغيير مستمر فى الحياة ، ولهذه المواقف التى يتعرض لها مستويات فى الشعور والفهم . . وللتغيير أيضا مستوياته . . أى هذه المواقف ت يريد أن تحدثك عن حرية الانسان فيها . او كونه مسيرا . .

هناك معيار عام لهذه المسألة كلها . .

الانسان مخير فيما يحاسبه الله عليه ، وهو مسير فيما لا يحاسبه عليه .

هذه الاحالة على الله تعالى ، هي القاعدة التي يطمئن لها قلب المسلم .

ولننظر بعد ذلك فيما يحاسب الله عليه ويأمر به . . هذا هو مجال حرية الانسان . . وما عدا هذا المجال فلا حرية للانسان فيه . . ولا مسئولية عليه وبالتالي . .

تقوم العقيدة الاسلامية على أن الله كتب كل ما يفعله الانسان في حياته قبل أن يولد . . وقد فهم بعض العلماء ان هذه الكتابة تعنى أن الله قضى وقدر وحكم وأراد . . والحقيقة أن الله كتب ما علم ان الانسان سيفعله ، كان الانسان حرا ، وقد سبق العلم الالهي حرية الانسان فعلم ما ستفعله وكتب كل شيء ، كتابة الله تبارك وتعالى هي علمه الأزلى القديم والعلم الأزلى القديم نور يكشف وليس فوة تفهـر . .

كتب كثير من العلماء عن القضاء والقدر .

من أقرب ما كتب لروح العصر النبوى ما قاله الامام الموفق ابن قدامة المقدسى .

« من صفات الله تعالى أنه الفعال لما يريد ، لا يكون شيء إلا بارادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا يحيد عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور ، اراد ما العالم فاعلوه ، ولو عصيمهم لما خالفوه ، ولو شاء أن يطيعوه جميعا لأطاعوه ، خلق الخلق وأفعالهم ، وقدر أرزاقهم وأجالهم ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته . قال الله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يُسائلون . .) الأنبياء ٢٣ . وقال الله تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر ٤٩ . وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) الحديد ٢٢ . روى ابن عمر ان جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما الايمان : قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » . . فقال جبريل صدقت . رواه مسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره » . .

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي علمه للحسن بن علي ليدعوه به في قنوت الوتر « وقني شر ما قضيت ». ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أوامره واجتناب نواهيه ، بل يجب أن نؤمن ونعلم أن الله أزلمنا الحجة بانزال الكتب ، وبعث الرسل . قال الله تعالى (لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل) النساء ١٦٥ . ويعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع لل فعل والترك ، وأنه لم يجبر أحداً على معصيته ، ولا اضطره إلى ترك طاعته . قال الله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة ٢٨٠ . وقال الله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) التغابن ١٦ ، وقال تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم في اليوم) غافر ١٧ .

فدل على أن للعبد فعلاً وكسباً يجزى على حسنـه بالثواب ، وعلى سـيئـه بالعقـاب وهذا كله واقـع بـقضاء الله وقدـره » .

ويعرض المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز للقضية من زاوية جديدة ، هي « تنظيم العلاقة بين الإرادة والغرائز » فيـرد على مـحاولة بعض المذاهب الفلسفـية التي تحـاول أن تـصور لنا الإنسـان في أحـد طـرفـين : فهو مـخلوقـ أـعزـلـ ، قدـ شـدـ وـثـاقـهـ إـلـىـ عـجلـةـ الـكـونـ ، وـسـخـرـ تـسـخـيرـاـ بـطـبـيـعـتـهـ وـطـبـيـعـةـ الأـشـيـاءـ ، أوـ هوـ فـيـ هـذـاـ الـكـونـ سـيدـ مـطـلـقـ الـيـدـيـنـ ، يتـصرفـ بـمـلـءـ حرـيـتـهـ فـيـ طـبـائـعـ الـأـشـيـاءـ وـطـبـيـعـةـ نـفـسـهـ . . .

والحقيقة - كما يقول الدكتور دراز : أن الإنسان مـسـيرـ مـخـيرـ مـعاـ ، ولكنـهـ يـقـومـ بـهـذـيـنـ الدـورـيـنـ فـيـ مـيـدانـيـنـ مـخـتـلـفـيـنـ .

وليس من العـسـيرـ عـلـيـنـاـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الشـئـونـ أـنـ تـبـيـنـ مـاـ هـوـ مـنـ عـملـ الطـبـيـعـةـ الـقـاهـرـةـ ، وـمـاـ هـوـ مـنـ عـمـلـنـاـ الـحرـ الـمـسـتـقلـ ، غـيرـ أـنـ هـنـاكـ حـالـاتـ خـاصـةـ تـلـبـسـ فـيـهاـ الـعـالـمـ ، وـتـشـبـهـ فـيـهاـ الـحـدـودـ ، وـيـدقـ الفـصلـ فـيـهاـ عـلـىـ غـيرـ النـاـقـدـ الـبـصـيرـ ، وـمـنـ هـنـاـ يـعـيلـ أـكـثـرـ النـاسـ فـيـهاـ إـلـىـ التـنـصـلـ مـنـ مـسـؤـلـيـاتـهـ ، وـإـلـقاءـ عـبـئـهـ عـلـىـ كـاـهـلـ الـطـبـيـعـةـ ، زـاعـمـينـ أـنـهـمـ كـانـواـ مـدـفـوعـينـ بـحـرـكـةـ قـسـرـيـةـ لـاـ حـيـلـةـ لـهـمـ فـيـ وـقـفـهـاـ وـلـاـ تـصـرـيفـهـاـ .

إن وجـهةـ نـظرـ الـإـسـلـامـ بـرـيـئـةـ مـنـ عـنـفـ الـبـرـهـمـيـةـ وـجـفـافـ الـبـوـذـيـةـ ، وـغـرـورـ أـدـعـيـاءـ الصـبـرـ وـالـجـلـدـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ الـإـغـرـيـقـيـةـ ، وـانـهـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ مـنـزـهـةـ عـنـ مـيـوـعـةـ الـيـسـوـعـيـةـ . إـحـدىـ الـفـرـقـ الـمـسـيـحـيـةـ . وـخـورـ الـجـبـرـيـةـ ،

ورخاؤ الكسالى فى كل ملة ونحلة ، في بينما يذهب الفريق الأول إلى إنكار الغرائز والمكابرة فى سلطانها ، ودعوى القدرة على محواها واستئصالها ، وبينما يميل الفريق الثانى إلى التسليم لها والإنهزام أمامها ، والنزول الكلى على حكمها ، تقف الدعوة الإسلامية على الجادة الوسطى ، مشرفة على جانبي الطريق ، فتعترف بسلطات النزعات الجبلية إلى حد محدود ، ثم ترك المجال للهم والعزائم فى الوقوف بتلك النزعات عند حدتها ، ومقاومة الاسترسال معها فى غير ضروراتها الملحة ..

إن كل إلزام أدبى يفترض فيمن يوجه إليه الخطاب أن يكون ذا شخصية مستقلة تعمل لحسابها الخاص ، لا لحساب الطبيعة القاهرة . ومن عجيب أمر الإنسان أنه يجمع بين وصفين متناقضين فى علاقته بالكون : إنه سيد ومسود ، وحاكم ومحكوم ، ولكن فى ميدانين مختلفين . فهو فى عالم المادة وعالم الحياة وعالم النفس لا يخرج عن أن يكون جزءا من هذه العمارة الكونية ، خاضعا لنواوميسها وقوانينها : (يا معاشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) لكن للإنسان ميدانا أعلى يملك فيه حريته ، ويرزق فيه سلطانه ، تتقرر فيه مسئوليته ، حيث تسلس له الطبيعة قيادها ، وتملكه زمامها ، وتمهد له سبلها المختلفة ينتقى منها وينتخب ... (١) .

* * * * *

لم يستمر هذا الفهم النقى طويلا فى حياة المسلمين ..
تعاقبت المحن والابتلاءات ، وأصاب القوم بعد انقطاع وحى السماء شر
عظيم ..

لا يكاد المرء يلقى نظرة على مفهوم القضاء والقدر فى تاريخ الأمة الإسلامية حتى يصادف جرحا يصدم العين .. ان المعارك التى ثارت حول حرية الإنسان أو جبره كانت شيئا يثير الأسف .. والفرق المتصارعة على تفسير الفاظ .. أو على الخلاف بين الفاظ .. كانت حالا يدعو إلى الحزن .. لقد نزل الإسلام أصلا لتجميع الناس حول الحق ، الإسلام دين

(١) راجع كتاب « المسئولة فى الإسلام » للدكتور دراز .

تجميع . وليس دين تفريق . . كيف تحول احدى عقائده الجوهرية إلى مجال خصب للجدل والخصام والتشابك وتحكيم السيف . .

كيف يسيل دم المسلمين لأن بعض علمائهم اختلفوا على تفسير كلمة أو عبارة ؟ !

سلمح وراء هذه المأساة شبح السياسة ولعبة الحكم . .
حقيقة الاسلام أنه برىء مما أحدثه الناس . .

لقد شجعت ظروف سياسية على نشوء نظرية معينة للقضاء والقدر . .
ليخلو الجو أمام الحكم في التصرف . . وإذا كان الظلم قدرًا مقدرا فأى بأس في أن يحتمله الناس بالصمت الجميل . . ولنستمر الحكم في ظلمهم مادام هذا قضاء أزلية لا يمكن الفكاك منه . .

يرينا التاريخ الاسلامي كيف ارتد الناس إلى الایمان بأنهم مسيرون كالدمى في مسرح العرائس . .

ويرينا ، كيف قادت هذه الفكرة إلى نشوء فكرة مناقضة . . تدعوا إلى اعتبار الانسان حرا كالإله . . خالفاً مثله . .

وكانت فمة تدهور الموقف هو خروج الاختلافات العلمية من قاعات الدرس إلى الساحات والنوادي فإذا بالناس يتساءلون . هل الانسان حر أم مجبر ؟ .

هل القرآن مخلوق أو أزلية . . ؟ وينتصر لكل رأى من الرأيين من لم يفتح القرآن يوما ليقرأ فيه آية . .

يرينا التاريخ الاسلامي كيف دخلت السياسة في الدين فمزقت رجاله إلى فئات متناحرة ليخلو الجو أمام تصرفات الحكم الفردية . .

والأصل في الاسلام أن يقود الضمير الديني عربة السياسة . . الأصل فيه أن الدين يهيمن على السياسة . .

وحين انقلب الوضع وتقدمت السياسة لتقود . . أخذت جزءا من الدين على أجزاء من الهوى وعلقت عربة المصالح في حصن المطامع وتقدمت الأمة الاسلامية نحو الهاوية . . واحتل الغرب بلاد المسلمين بعد أن كان المسلمون يفتحون العالم فرسانا متجردين لا تجارا طامعين ، وهداة إلى الله لا جباة للجزية .

ونظر المسلمون إلى وضعهم وقرأوا قوله تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس)^(١) وحرکوا شفاههم واعتذروا بقولهم : قضاء الله وقدره ، كتبه علينا منذ الأزل ولا حيلة لنا فيه . .

وهكذا أخطأوا مرتين . . مرة حين نسبوا عجزهم وقعودهم وهو ذنب إلى قضاء الله تعالى وقدره . . ومرة حين تصوروا أن قضاء الله وقدره يغافل الانسان من مسؤوليته أو يشلان حريته . .

يتصور العالم الغربي اليوم - حين ينظر إلى حال المسلمين - أنهم أصحاب ديانة تدعوا إلى الجبر وتخلع عن الانسان حريته . . وحقيقة الاسلام أبعد ما تكون عن هذا كله ، وهي بريئة من هذا كله . .

وهذه الرؤية فزع لها الإمام محمد عبد ولذلك يعرض الإمام محمد عبد لهذه القضية ، وهو بصدق رده على مفتريات مفكري الاقرنة الذين لا يفرقون - في الإسلام - بين اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، ويردون تأثر المسلمين إلى اعتقادهم بمذهب الجبرية هذا . .

ويؤكد الإمام أن المسلمين - على اختلاف مذاهبهم - يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهب الله لهم من هذا الجزء اختياري ، وأن هذا النوع من الاختيار هو سبب التكليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل . . .

ولا ينكر الإمام وجود طائفة - فيما مضى - تسمى بالجبرية ، ذهبت إلى أن الإنسان مضطرب في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، لكنه يقول بعد ذلك : إن مذهب هذه الطائفة ينبعه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر ، هو عين الاعتقاد بالجبر . .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأنه

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ .

لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلاً ظاهراً ، فيما بعد بتقرير العزيز العليم ، وإرادة الإنسان ، إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليس الإرادة إلا أثراً من آثار الإدراك .. والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات^(١) . ٢٢ أهـ .

ان ما جعل المسلمين يصلون إلى ضعفهم ليس هو تمكهم بتعاليم الإسلام ، إنما تركهم للإسلام وهجرهم لتعاليمه ، ولو لا ضعف المسلمين وفهمهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر لكانوا هم أول من وضع أقدامه على تراب القمر ، ولكنوا هم سادة الأرض اليوم .

ان الإسلام هو دين الحرية الإنسانية .. وهو دين التقدم العادى والروحى معاً ، وهو دين العلم والاكتشاف والسياحة فى آفاق الكون والنفس ، وهو فى نهاية الأمر دين يؤمن بالقضاء والقدر ..

والإسلام كل واحد لا يتجزأ .. وليس شيئاً يمكن تقسيمه واختيار ما يوافق الظروف واستبعاد ما عدا ذلك .. وأى فصل لحكم فى الإسلام أو استبعاده يعني الإجهاز على تأثير الإسلام الكلى ونزع أثره من الحياة .. ولقد أخذ المسلمون بفكرة القضاء والقدر فى جانب من جوانبها .. وتركوا فكرة الحرية الإنسانية فى الجانب الآخر ، ولما كانت كلمة الإسلام تطلق على الشريعة الكلية التى نزل بها الوحي على قلب الرسول ، وتطلق على سنة الرسول كلها ، فإن معنى أخذ أشياء وترك أشياء .. هو أننا لم نعد نأخذ بما أسماه الله الإسلام ..

إنما هو دين جديد ابتكرناه ابتكاراً ونسجناه نسجاً واضفتنا إليه وانقصنا منه ، وليس اللوم على الإسلام أن هلكنا وإنما اللوم علينا .. ما هو تعريف القضاء والقدر عند القدماء ؟ ..

يرى الأشاعرة أن القضاء هو الخطة الربانية الأزلية كما علم واراد ، أما القدر فهو ابراز الكائن إلى الوجود بقدرته تعالى ..
وإذن فإن رأى الأشاعرة أن القضاء قديم والقدر حادث ..

(١) العدد السابع من جريدة العروبة الوثقى ، مايو ١٨٨٤ .

وهناك من رأى العكس ، فذهب الماتريدية إلى أن القضاء حادث والقدر
قديم . .

هذا هو تعريف القدماء للقضاء والقدر . . وهو تعريف يمكن أن نقول
عنه بلغة عصرنا : أن القضاء والقدر هما علم الله ورادته سبحانه كما
يظهران في صفحات الحياة اليومية للبشر .

ولقد كانت أول مسألة ظهر فيها الخلاف بين المسلمين هي مسألة
الاختيار واستقلال الإنسان بارادته وأفعاله . .
اختلف فيها واصل بن عطاء واستاذه الحسن البصري فاعتزله وراح يعلم
اصولا لم يكن قد أخذها عنه . .

واذن فان السؤال الذى يقول : هل الانسان مخير أم مسير ؟
هذا السؤال الذى نردد له اليوم سؤال ردده الاجداد قديما واتخذوا
حوله . .

انقسم القدماء أمام السؤال فرقا متعددة تجتمع تحت أصلين جوهريين . .
القائلون بالجبر

والقائلون بالاختيار

قال القائلون بالجبر ان الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى
حركاتها أمام الرياح . .

وقال القائلون بالاختيار ان الانسان حر وخالق لأفعاله . .

ورسم الجبريون للعالم صورة غريبة . . صورة يؤدى فيها البشر أدوارا
فرضت عليهم ولا خيار لهم فيها كأدوار الممثلين ، وعلى مستوى التصوف
شاعت بين الصوفيين نظرة تسوى بين آدم وأبليس ، وبين موسى وفرعون . .
فكل واحد من هؤلاء كان يمثل دورا رسمته الأقدار له من قديم الأزل ،
ولا حيلة له فيه . . وحين ثار من يعتقدون ان الانسان مخير . وقالوا ان الشر
من عمل الانسان لا من قضاء الله ولا من فعله . . رد عليهم الجبريون
يسألونهم : هل يريد الله الشر . . فلما قالوا : لا . . سألوا :

— هل يقع فى ملك الله ما لا يريد ؟

وزاد من عمق الخلافات ذهاب القائلين بالاختيار إلى الطرف الأقصى
فالو بأن الانسان حر تمام الحرية ، وتغالوا فى حريته فهو وحده خالق

أفعاله . . وهو وحده المهيمن عليها والمتصرف فيها ، ولو فعل خيراً فيجب على الله أن يدخله الجنة . . ولو فعل شرًا فيجب عليه أن يدخله النار . وعلى طول التاريخ الإسلامي تصارع الجبريون والاختياريون . . وكانت حرب الجدل بينهم لا تهدأ إلا لانقطاع الأنفاس من أجل جولة جديدة . . وكان الإيمان بالجبرية هو أحد العوامل التي أدت لتدخل الدولة الإسلامية . .

والحقيقة أن القضاء والقدر . . والحرية الإنسانية . . وعلم الله السابق بالأنسان . . وظروف الإنسان العقلية ووجوداته النفسية . . الحقيقة أن هذا كله مرتبط متشابكًا معقد . . ومن الطبيعي أن علم الكلام أو علم التوحيد قد سجل لنا انقسام المسلمين إلى مذاهب متفرقة . . وكان كل مذهب يؤيد دعوه بالآيات القرآنية . . الأمر الذي يؤكد أن القضية كانت قضية اختلاف في وجهة النظر . . لا اختلاف على الأصل الثابت وزاد طول الحرب بسبب كفاءة أسلحة الفريقين ، وكان معظمها آيات من القرآن .

كان الجبريون يستشهدون بقوله تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيم)^(١) .

وكان الاختياريون يستشهدون بقوله تعالى : (وقل اعملوا فسيري الله عملكم)^(٢) . .

والأمر المثير أن هذا الخلاف لم يدرك أن القضاء والقدر جزء من العقيدة الإسلامية . .

والعقيدة الإسلامية - كعقيدة يطبقها البشر - محكومة بقوانين النسبية وقوانين اختلاف مستويات النظر . .

ان قوله تعالى (وقل اعملوا) لا يتعارض مع قوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . .
ان قانون المستويات ينطبق هنا . .

من مستوى العمل المادي والخلافة في الأرض ينبغي النظر إلى الأمر بالعمل . .

(١) سورة الدهر آية ٣٠ .

(٢) سورة التوبه من الآية ١٥ .

ومن مستوى الایمان والتسليم بالقضاء ينبغي النظر إلى ربط المشيئة الإنسانية بطلقة المشيئة الالهية . . فلا ينجح عمل لا يباركه الله بتوفيقه . . وربما فعل المسلم كل ما عليه ثم فاجأته الرياح بما لم يخطر على باله . . كأن وقع زلزال أو طوفان أو قوة قاهرة أو حال دون نجاحه أمر خارج عن ارادته . .

هناك تصير فكرة القضاء والقدر شاهدا على جلال الله وقهره وبسم للجراح . .

هناك يقول المسلم (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)^(١) .

ان التسليم هنا هو الشكل العملي للإيمان بالقضاء والقدر . .

وهو حكمة كبرى لأن الجزء لا يرد الخسائر . . والله وارث كل شيء ، وهو يبتلى الناس لاختبارهم ومعرفة معادنهم . . والله يعرف قبل أن يختبر الناس ، ولكنه يريد من الناس أن يعرفوا أنفسهم . .

أليس من الغريب - في التاريخ الإسلامي - أن يصير الدواء جرحا . .

ويستخدم البضم الشافى سكينا للطعن . .

وقد هذا بسبب الأحزاب السياسية والفرق ، ويسبب الجهل والأمية الثقافية ، ويسبب الترف العقلى الذى صادف الفلسفة اليونانية فاستهونه أدوات بحثها ، رغم أن هذه الأدوات لا تصلح لمناقشة عقائد الإسلام . . وأضيف التعصب المذهبى إلى الموضوع فزاد من ثقله ، حتى وصل الأمر إلى هذا الحد . .

بعد أن كانت قضية القضاء والقدر عند المسلمين في عصر النبي شجاعة قلبية كبرى ، واستشهادا في سبيل الله ونشرًا للإسلام . . صارت مداعاة لتخاذل المسلمين أمام أعدائهم ، وزيادة بأسهم بينهم . . وعدم تحركهم لاحراز أى تقدم في الحياة . .

واتهمت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة قدرية . . لا مجال فيها لارادة الإنسان ولا معنى لحريته .

(١) سورة الحديد آية ٢٢ وجزء من آية ٤٣ .

والتهمة باطلة إذا نظرنا إلى أصل عقيدة القضاء والقدر في الإسلام . .
وهي صحيحة إذا نظرنا لحال المسلمين السيئة .

هل الإنسان مسيء أم مخير ؟

هل الإنسان معدة أم قلب ؟

هل صنعت الطائرة من الحديد أم من النحاس ؟
ان منطق الأسئلة الثلاثة مشابه . . .
منطق التبسيط الجائر . . .

ليس الإنسان معدة فقط ، ولا قلبا فحسب ، ولا عقلا مجردا ، ولا جسدا
دون روح ، ولا روحًا دون جسد ، الإنسان تركيب رائع التعقيد ، والعلاقات
بين القلب والرئتين والعقل والروح وخلايا الجسم ونخاع العظام ، هذه
العلاقات موضوع أكثر من علم . . . كعلوم الطب والكيمياء الحيوية وعلم
النفس وعلوم الاجتماع . من الخطأ اذن أن نسأل . . هل الإنسان روح أم
جسد . هل هو قلب أم عقل . .
هو خطأ لأنه معن في السذاجة . .

وهو يشبه سؤال طفل لوالده . . هل صنعت هذه الطائرة من الحديد أم
النحاس .

لو قال الأب لطفله : ليست الطائرة مصنوعة من الحديد ولا من
النحاس . إنها صنعت من السبائك ، وهي خلطة من معادن كثيرة يدخل فيها
الحديد والنحاس والألمونيوم . . لو قال الأب هذا لطفله ، وغضب الطفل لأن
الجواب لم يأت بسيطا كالسؤال . . فليس هذا ذنب الاجابة . .
الذنب هنا هو ذنب الطفولة . .
ذنب سذاجة الطفولة . .

كان من عيوب بعض عصور الإسلام النظرة إلى الحياة على أنها تضم
لونين اثنين هما الأبيض والأسود . .
والحياة أعقد من هذين اللونين وأغنى . .
تتدخل الأشياء والعلاقات في الحياة تداخلا عميقا يوشك أن يجعل مسألة
القضاء والقدر بحرا تغرق فيه العقول . .
ولهذا المعنى الدقيق أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إذا ذكر القضاء فأمسكوا . . والقدر سر الله فلا تفتشوا عنه ، وهو بحر لا تغروا فيه » . .

يقصد الرسول معنى خطيرا بقوله . .

ان للقضاء والقدر بناء فوقيا يتصل بارادة الله ومشيئته وعلمه . .
وان للقضاء والقدر بناء تحتيا يتصل بفعل الانسان وكتبه وحركته . .
البناء الفوقي بالنسبة إلينا مجهول . . لا نملك الخوض فيه بوسائلنا
البشرية ولا بعقولنا . . ليست لدينا أدوات البحث في هذه المنطقة . . أما
بالنسبة للبناء التحتى أو الناس . . فنحن نملك التصور القائم على
المنطق . . ونملك أن نقوم بسياحتنا في التاريخ لنقرأ سطوره . .

قبل الاسلام . . كان للعرب موقف فكري من قضية الجبر والاختيار . .
كان العرب جبرية يقولون بالجبر . . ثم جاء الاسلام فغير هذا
الموقف ، وقرر الحرية والاختيار للانسان . . روى عن الحسن البصري أنه
قال :

« ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية
مجبرة ، يحملون ذنبهم على الله ، ويقولون ان الله سبحانه قد شاء ما نحن
فيه ، وحملنا عليه ، وأمرنا به ، فقال عز وجل : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا
وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل : ان الله لا يأمر بالفحشاء
أتقولون على الله ما لا تعلمون)^(١) .

هذا النص يقطع بانتصار الاسلام لحرية الانسان و اختياره ، ووقفه ضد
الجبرية ، وذلك قبل تفتح الثقافة الاسلامية والحضارة العربية على الثقافات
والحضارات الأخرى ، وقبل أن ينشأ في الفكر الاسلامي علم الكلام .

يروى عن الرسول أن رجلا سأله : متى يرحم الله عباده .

قال صلى الله عليه وسلم : ما لم يعملا المعاishi ثم يقولوا أنها من
الله . .

وسأله بعض الصحابة يوما : فلأى شيء نعمل ، وقد فرغ الأمر . .

قال صلى الله عليه وسلم : اعملوا بكل ميسر لما خلق له . .^(٢)

(١) سورة الاعراف آية ٢٨ .

(٢) حديث صحيح رواه الطبراني عن ابن عباس .

بمعنى أن ما كتب على الإنسان وعلم من أمره لا يخرجه عن أنه حر
ميسر له سلوك الطريق الذي يريد ويختار ..

روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن بعض الناس قالوا له :
يا أبا عبد الرحمن ، إن قوماً يزنون ويشربون الخمر ويسرقون
ويقتلون النفس ويقولون كان في علم الله ، فلم نجد بدا منه ..

وغضب عبد الله بن عمر وقال : سبحان الله العظيم .. قد كان ذلك في
علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها ، حدثني أبي عمر بن
الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل علم الله فيكم
كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي اقتنتم .. فكما لا تستطيعون
الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنب ، كذلك
لا يحملكم علم الله عليها » .

القضاء والقدر عقيدة من عقائد الإسلام .. هذه العقيدة ليست تجريدا
مطلقاً .. إنما هي عقيدة تتصل بالانسان ، وكل ما اتصل بالانسان لا بد من
النظر إليه في موقف أن أردنا تحليل هذا الموقف .. وأى موقف ظاهرة انسانية
لا بد من خضوعها عند التحليل إلى قوانين النسبية واختلاف المستويات .
بهذا المنهج تنحل مشكلة القضاء والقدر في جانبها المتصل بالانسان .
لا تعود لغزاً تتصارع تحت رايته مذاهب تقنع كلها وتتعارض كلها
وتشتخدم كلها آيات القرآن للإقناع والمعارضة ..

ان هناك معياراً سهلاً لذلك .. هناك أشياء يعرفها الانسان وأشياء
لا يعرفها ..

أشياء يفهمها وأشياء لا يفهمها .. أشياء يقدر عليها وأشياء
لا يستطيعها ..

الانسان حر فيما يعرف ويفهم ويقدر .. مجبر فيما لا يعرف ولا يفهمه
ولا يستطيعه ..

عظمة الانسان أنه مخير ومسير .. حر ومجبر .. عظمة الانسان أنه
يجمع كوناً بأكمله في ذاته ، ويتعارض لآلاف المواقف أثناء حياته على
الأرض .. أحياناً يكون مسيراً .. وأحياناً يكون مخيراً ، وكثيراً ما تتدخل

حريتها مع جبره . . وتتعدد الألوان ويهيمن عليها كلها قانون واحد . . قوله سبحانه وتعالى : (ان الله لا يظلم مثقال ذرة)^(١) .

هذا معناه أن الناس لن تحاسب إلا على هذا الخيط الرفيع من حريتها ،
لو افترضنا حريتها خيطا رفيعا . .

ومن أجمل ما قيل حول القضاء والقدر . . هذا السؤال :

— هل يعرف الإنسان ما كتبه الله عليه . . ؟

الجواب أنه لا يعرف . .

وإذن فهو حر . . ليس مقيدا بشيء . . يستطيع أن يتغير . .
تغييره هذا مكتوب هو الآخر . . فلا شيء يخرج من علم الله سبحانه
ولا شيء في نفس الوقت يحد من حرية الإنسان . .
ان موقف القرآن الكريم من مشكلة حرية الارادة واضح تماما
الوضوح . .

• هناك نص يؤكد غيبة أفعالنا المستقبلة . (وما تدرى نفس ماذا
تكتب غدا)^(٢) .

• وهناك نص يؤكد قدرة الإنسان على أن يحسن أو يفسد نفسه الداخلية
(قد أفلح من زakah ، وقد خاب من دساه)^(٣) .

• وهناك نص يؤكد أن أقوى دعوات الشر اغراء ليس لها سلطان على
الارادة الإنسانية ، ما لم تنبئ هذه الارادة لتفقيها . .
يحدثنا الله تعالى أن الشيطان يقول يوم القيمة لأتباعه (وما كان لى
عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجيبتم لى ، فلا تلومونى ولو مروا
أنفسكم)^(٤) .

هذه الآيات كلها . . إلى جوار آيات القرآن التي تقطع بادانة الشر
وازدرائه والتخويف من تبعته الثقيلة .

هذه كلها يقطع بحرية الإنسان وارادته . . لأن الله لا يمكن أن يجر

(١) سورة النساء من الآية ٤٠ .

(٢) سورة لقمان من الآية ٣٤ .

(٣) سورة الشمس آية ٩ و ١٠ .

(٤) سورة Ibrahim الآية ٢٢ .

أحدا على فعل ثم يعاقبه على نفس الفعل بعد ذلك . . والله تبارك وتعالى
أعدل العادلين . .

هذا هو المستوى الأول في النظر إلى موضوع حرية الإنسان ورادته
غير أن هناك مستويات أخرى في النظر إلى الموضوع . .
ما زا يحدث لو وقع اكراه على ارادتنا . .

سواء كان هذا الاكراه ماديا أم معنويا ، فاما من الخارج أم نابعا من
كياننا العضوي ذاته . .

ان صور الاكراه متعددة ومختلفة . . نعرف أن العقل هو مناط
التكليف . . والعقل يتكون نتيجة ظروف البيئة والثقافة والمؤثرات الحضارية
والعقل الجماعي والقيم السائدة ، كما يتكون نتيجة عوامل الوراثة التي قد
تحمل في طياتها قوة خاصة أو ضعفا معينا . . ثم ان ما يقع للعقل من
مؤثرات قد يكون قمة في التعقيد ، بحيث تصبح دواعي الأخذ مساوية
لدواعي الترک . .

هذا كله يجعلنا تتضاعل . .

ما هو مدى حرية الإنسان هنا . . ؟

من هذا المستوى الثاني نواجه موضوع القضاء والقدر .
ان الله قد خلق كل طاقات الكون وقواه ، طبقاً لتدبير سابق ، بما في ذلك
ارادتنا . . الله هو الذي خلق الطاقة التي تحرك الارادة . . وهو سبحانه يعلم
مسبيقاً كيف ستعمل كل هذه القوى ، وما الأحداث التي ستنتج عن عملها . .
وكل ما يوجد في الكون مخلوق لله . .

ان حرية الإنسان تتضاعل في هذا المستوى . .

نحن لم نعد في مستوى التكاليف الشرعية ، لم نعد في مستوى الواجبات
المفروضة . . نحن نرتفع إلى مستوى ننظر منه إلى البشر . .
تركنا موقع البشر ولم نعد ننظر منها . من هذا المستوى الجديد سنرى
أن ارادة الإنسان تشبه قلبه . . وذكاءه . . وبنيته . . وهذه كلها ليست سوى
أدوات بين يدي الله . . نوع من اللجام الذي يقودنا به كما يشاء . . اقرأ قوله
تعالى : (كذلك زينا لكل أمة عملهم)^(١) .

(١) سورة الانعام الآية ١٠٨ .

وقوله عز وجل : (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه)^(١) .
هذه الآيات كلها لا تنفي حرية الإنسان النسبية . . .
يقدم القرآن الكريم مبدأ عاما يقول : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى
يغيرة ما بأنفسهم)^(٢) .

صحيح أن الله يحكم ارادتنا . . صحيح أن الله خلق طاقتنا على
ال فعل . . وصحيح أنه أحاط أفعالنا بسياج من المؤثرات التي لم نخلقها
ولا نستطيع التحكم فيها . .

هذا كله صحيح . . وببقى صحيحا أيضا أن الله خلق في الإنسان قدرة
على توجيه الطاقة . .

ان الطاقة من خلق الله . . لكن توجيه الطاقة من فعل الإنسان ، هي
كسب إنساني يستطيعه الإنسان ، ولو لاه ما كانت الجنة ولا النار ولا الرسل
ولا الآخرة ولا الحساب .

وسواء أشعر قلبنا بالفرح أم بالانقباض لمعرفة الحقيقة ، أم لمعارضة
الفضيلة ، وسواء ضل عقلنا أم اهتدى ، وسواء توجهت أحكامنا نحو الخير أم
نحو الشر ، فانتا حين تقرر أن جميع هذه الآثار تحدث فينا بواسطة قوة عليا ،
فانتا نجد في نفس الوقت أن سوابقها تصدر عن ارادتنا . . نحن الذين نبدأ
بالاتجاه إلى النور أو التحول عنه . . نحن الذين نبدأ باضاعة عقلنا
أو طمسه . .

ان الله قد سمح لعباده بالحرية . . غير أنه لم يطلق هذه الحرية فوضى
بغير ضابط . . أحاط الله قدرتنا على الاختيار بجهاز قوى ومعقد تتفرع عنه
كل قراراتنا . . وهذا الجهاز يتتألف من الحواس والذوق والقيم الروحية ، كما
يضم تلك الرؤية الداخلية التي هي الضمير ، وذلك النور الخارجي القادر من
وحى السماء أو حديث الرسول . وكل قرار حسنا كان أم سيئا ، هو أشبه
بعملية انفاق من ذلك الكنز العظيم الذي أودعه الخالق رهن تصرفنا في
الفطرة . .

(١) سورة الانفال الآية ٢٤ .

(٢) سورة الرعد الآية ١١ .

نعرف الآن من تقدم الحياة أن الإنسان يولد وهو يحمل خبرات أسلافه جمِيعاً في نفسه . . ثمة كنز خفي خلقه الله داخل كل إنسان هنا . . كنز ربما لا يدرى الإنسان أنه موجود داخل نفسه . .

المشكلة كلها تكمن في العثور على هذا الكنز واستخدامه . . عندما نعثر عليه لا يعود القضاء والقدر مشكلة محيرة . . إنما يصير نعمة كبرى ورحمة شاملة ودواء لجراح النفس والقلب والجسد . .

يتساءل د . محمد عبد الله دراز في رسالته للدكتوراه عن أخلاق القرآن :

« المسألة التي يجب علينا أن نعرفها ، والتي تفرقت المدارس الإسلامية بتصديها بطريقة واضحة هي : عندما يطلب الله منا أن نستخدم قدرتنا على الاختيار . . بعد أن يكون قد وضع رهن تصرفنا هذه الموارد العامة والخاصة . . هل يتخلى الله عنا تماماً . . ألا يتدخل لمصلحة جانب على جانب . . فيوجه مؤشر نشاطنا ويحدد حركته في اتجاه أو آخر . . دون أن نحس به مطلقاً . .

يعتقد د . دراز أن هذه هي المسألة التي لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية ، بل يبدو أنه قد التزم من هذا الجانب نوعاً من الحذر المقصود . . ذكر له الإجابة فيما بعد (قل فللهم الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)^(١) .

ويخالف الدكتور حسن صالح العناني - رحمة الله تعالى - الدكتور دراز في هذه الفقرة الأخيرة ، ويرى أن من الخطأ البالغ اتهام القرآن بالغموض ، وهو يندهش كيف جرى قلم الدكتور دراز رغم فضله وعلمه بهذه العبارات ، اللهم إلا إذا كان يقصد بحث الكيفية التي تعمل بها المشيئة الالهية في المخلوقات ، وتلك قضية لا يخطر ببال أحد أن تكون موضوع بحث أو تفصيل . . لأنها من الحقائق العليا التي تتعلق مباشرة بصفات الله . .

أما آثار المشيئة ، وهي ما نرجح أن يكون المؤلف يعنيه ، فقد وضح القرآن موقفه منها توضيحاً كافياً . . ويستذكر د . حسن صالح العناني هذه العبارة التي بدأ بها د . دراز استئنته . .

(١) سورة الانعام آية ١٤٩ .

— هل يتخلى الله عنا تماماً . . ؟

ويسأل د . صالح العناني :

— هل يبقى شيء من الوجود لأى موجود إذا تخلى الله عنه . . ؟
ان الله تبارك وتعالى لا يتخلى عنا لحظة واحدة . . وهو سبحانه يتدخل
دائماً لمصلحة الإنسان ونفعه ونجاته . .

يقول تعالى : (ولو لا فضل الله ورحمته عليكم ما زكي منكم من
أحد) .

· · · · ·

· · · · ·

أنوار العقل وحدها لا تستطيع اكتناه سر القضاء والقدر . .
نحتاج هنا إلى أنوار من لون آخر . . أنوار ليست مادية . .
ان القضاء والقدر يصدران من الله . . كما يتصلان بالانسان . .
ما صدر من الله تعالى لا تصلح أنوار العقل وحدها لاكتشافه .
أما الجزء المتصل بالانسان فللعقل أن يعمل فيه ويكتشف ويحاول
الفهم . .

وغاية جهد العقل أن يفهم ويعرف . .

وليس الفهم وحده هو المطلوب من المسلم . . كما أن المعرفة العقلية
ليست بمفردها هي الغرض النهائي لوجود المسلم . .
ثمة آفاق وراء آفاق الفهم والمعرفة . .
ثمة مستويات أخرى تعلو على الفهم المجرد أو المعرفة العقلية . .
نتحدث عن الحب . .

بغير الحب يصعب علينا تفسير القضاء والقدر . .

وبغير الحب يصير القضاء والقدر لغزاً لا أمل في حلها .

ان العقل يمكن أن يتسائل أسئلة محيرة . . وهذه مهمة العقل
ووظيفته . .

غير أن العقل وحده . . بأنواره المحدودة . . لا يصلح لغير الحياة على

الأرض ، ونقدمه في مجال يتصل بحكمة الله تعالى - كالقضاء والقدر -
لا يؤدي إلى نتيجة نهائية . . إنما يصلح العقل لاستكشاف الطريق ،
أو يصلح لتصويب الاتجاه في البداية . . يقول جلال الدين الرومي .
« ان العقل في بداية الأمر يكون استاذًا للمرء . . ولكنه بعد ذلك يصبح
تلميذا له » .

ومتى أصبح العقل تلميذا تقدم الحب وجلس على عرشه . .
وإذا كان شأن العقل أن يبحث ويسأل ويتطلع ولا يتوقف عن الاستئلة . .
فإن شأن الحب هو الطاعة العذبة والاستسلام المحمض . .
أو فلنقول إن شأن الحب هو اختيار ارادة المحبوب . .
ويبدلا من أن نسأل « هل الإنسان مصير أم مخير . . » .
تحول القضية إلى سؤال آخر « كيف يصير الإنسان بلا ارادة أمام
ارادة الله » . .

كيف يختار الإنسان أن يكون مجبورا مثل ريشة تلعب بها مياه
البحر ؟ . .
كيف يتحول الإنسان فيصير هو البحر والريشة والرياح والتيار والموج
والشاطئ . .

ان هناك مستويات للنظر إلى عقيدة القضاء والقدر في الإسلام . .
أولها أن يعلم الإنسان أنه حر ومسئول أمام الله . . وأن يعلم أن حريته
تخضع لمشيئة الله المطلقة النافذة . .

أن شاء سمح بالتفوى . . وإن شاء يسر الطريق للغواية . .
لا يسأل لماذا شاء لموسى أن يكون موسى ، ولا يسأل لماذا شاء لفرعون
أن يصير فرعون . . لا يسأل لماذا اختار محمدا رحمة للعالمين ، وترك أبا
لهب نفقة على عصره . . لا يسأل لماذا هدى إنسانا وأضل آخر . لا يسأل
عن شيء مما يفعل ، لأنه خالق الأشياء وصاحبها ومالكها والمتصف
فيها . . وهو قد أصدر أوامره الواحدة لموسى وفرعون ومحمد عليه الصلاة
والسلام وأبي لهب . . أطاع موسى وعصى فرعون ، وارتفع رسول الله وهبط
أبو لهب . . وقبل هذا كله أخطأ آدم واخطأ أبليس . . وتاب آدم واحتج أبليس
بالقضاء والقدر . .

(قال أنا خير منه . .) سورة ص من الآية ٧٦ .
كانت كلمته كبرباء بحثا ، وعصيانا لأمر الله . . أيضا كان في كلماته
ما يؤكد أنه يحتاج على القضاء والقدر .

(قال فيما أغويتني) سورة الأعراف من الآية ١٦ . . أنه يسند الغواية
إلى الله عز وجل ، ويحمل تبعة اخطائه على الخالق ، وهذا سوء أدب مع
الله . . واصرار على تحدى الخالق . .

يختلف هذا الموقف عن موقف آدم . . فقد اعترف بظلمه وسائل المغفرة
وتوسل إلى الرحمة . . (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا
لنكونن من الخاسرين) سورة الأعراف آية ٢٣ . .

ولهذا قال العارفون بالله « اثنان أذنبا ذنبنا ، أبليس وأدم ، أما آدم فتاب
كتاب الله عليه واختاره وهداه ، وأما أبليس فأصر واحتاج بالقدر ، فمن تاب من
ذنبه كان يشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتاج بالقدر صار يشبه أبليس » . .

حرية الإنسان موجودة وقائمة ولكنها تتحرك داخل إطار المشيئة
الالهية .

قال تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء
الله رب العالمين) سورة التكوير آية ٢٨ و ٢٩ .
مشيئة الإنسان متوفرة وموجودة ، ومشيئة الله مهيمنة وحاكمة
ومحيطة . .

هذا هو أول مستوى في النظر إلى القضاء والقدر . .
وثمة مستوى آخر هو مستوى الحب . .
مستوى اختيار الجبر . .

إن الإيمان بالله يشبه جبلًا يصعده المرء . . وقمة الإيمان هو الإسلام
كما كانه سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع الله بلا إرادة . . بتحديد
أكثر . . كانت إرادته هي إرادة الله . . وكان إذا رمى كشف له الله عن
حقيقة ما حدث (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) سورة الانفال من
الآية ١٧ .

اختار سيد الخلق ان تذوب ارادته فى مشيئة الله . . وصار يتحرك
بالله ، ويسكن فى الله ، ويحب فى الله ، ويكره فى الله . . « بمعنى يكره
ما أراد الله كراهيته » . . صار الله هو السبب وراء كل ما يفعل أو يدع .
صار عباد ربانيا يكمن شرفه العظيم فى قول الله عنه .

(سبحان الذى أسرى بعده) سورة الاسراء من الآية ١ .

لم يقل ربنا سبحان الذى اسرى برسوله ، أو اسرى بنبيه . . لم يستخدم
الحق عز وجل صفة النبوة ولا صفة الرسالة ، إنما ذكر أعلى الصفات
وأشرقها . .

صفة العبودية . .

فى هذه الصفة يقف الحب على عرشه ويتحكم فى نبضات القلوب
وأحلام العقل وحركة الجوارح . .

ولو نظرنا فى قصص الأنبياء فسوف نرى أنهم كانوا جميا
مسيرين . . اختاروا أن يكونوا مجبرين . . وهذا الجبر هو عين الحرية لأن
الحرية الحقيقية تعنى الخروج من كل سلطان غير سلطان الله .
وهذه هي العبودية الحقيقية لله . .

ان ابراهيم عليه السلام كان يحب ولده اسماعيل فقد رزقه على كبر ،
وكان ابنه كريما ومن انصالحين ، ورغم ذلك فقد ارقده يوما على الأرض
ورفع يده بالسکين وهو أن يهبط بها على عنقه .
لقد رأى في المنام أنه يذبحه . . ورؤيا الأنبياء أمر من الله . . وأمر الله
حق . .

ولقد كانت رؤيا ابراهيم امتحانا شديدا وبلاه عظيما . تأمل تعبير النص
القرآنى : (ان هذا لهو البلاء المبين) سورة الصافات آية ١٥٦ .
كان الله تبارك وتعالى يخرج كل حب غير حبه من قلب ابراهيم .
كان يمتحن عبده ويعمله الدرس النهائي والقيمة العليا فى حياة
الإنسان . . كان يعلمه حب الله عز وجل . . وحين أخرج ابراهيم كل
ما سوى الله من قلبه . .

حين أخرج ابراهيم ابنه من قلبه . .

حين استسلم للقضاء والقدر وأطاع المشيئة الالهية . .

عندما وقعت المعجزة وتغير القضاء والقدر بأمر الله وعلمه السابق
ورحمته العليا . .

(وفديناه بذبح عظيم) سورة الصافات آية ١٠٧ .

يفهم من هذا ان ابراهيم كان مع الله بلا ارادة . . كان مجبرا
باختياره . .

كانت ارادة الله هي ارادته . .

ولهذا استحق ان يقول الحق عنه في كتابه الكريم .

(واتخذ الله ابراهيم خليلًا) سورة النساء الآية ١٢٥ .

قال العلماء ان الخلة هي شدة المحبة . .

وادن . . فقد اتخد الله ابراهيم حبيبا . . وكان ذلك حين اخرج ابراهيم
من قلبه السوى . . والغير . .

كل ما سوى الله أو غيره . .

كان هذا موقف ابراهيم . . اختار الجبر . . فكرمه اختياره . .

وعلى النقيض كان موقف يونس . . اختار يوماً بغير رجوع إلى الله ،
خرج يوماً من الجبر باختياره . .

(وذا النون إذ ذهب مغاضبا) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

لم يستسلم للبقاء مع قومه وخرج غاضبا عليهم وقرر هجرهم . .

كان يونس يستخدم حرية إرادته ساعيًّا . . نسي أنهنبي وليس له أن
يختار . .

ومثلاً كان ثواب ابراهيم جليلاً كان عقاب يونس رهيباً . .

عقوب على خروجه من الجبر بسجنه في جوف حوت . . وجرى
الحوت في جوف البحر ، وأطبقت ظلمات ثلاثة . . ظلمة الليل والندر ،
وظلمة قاع البحر ، وظلمة جوف الحوت . .

ولولا تسبيحه ما افتحت أبواب سجنه . . (فنادي في الظلمات أن
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) سورة الأنبياء من الآية
. ٨٧ .

وخرج يونس من سجن الاختيار وعاد إلى طلاقة الإرادة الإلهية ومثل
بقية الأنبياء يختار الشهداء والأولياء الجبر . .

يقول محمد اقبال « أن جبر خالد بن الوليد أحدث انقلابا في العالم . .
أما الجبر بالنسبة لنا فقد اقتلعنا من جذورنا » .
هذا البيت الشعري يمثل المستوى الرفيع في فهم قضية القضاء
والقدر . .

لقد فهم خالد بن الوليد القضاء والقدر فهما عميقا تأسى فيه بالأنبياء .
ولهذا أحدث انقلابا في العالم . . لقد صار خالد سيفا من سيفون الله في
الأرض . . اختار أن يصير أداة في يد القدرة ، ومجاهدا في الله ، اختار أن
يقاتل أعظم القتال في سبيل العقيدة ، وأذى مشاعره وهو يموت أنه يموت على
فراشه كما يموت البعير . .

وكانت اشارته للجروح في جسده اشارة جليلة إلى جرح روحه لأنه وهو
سيف الله . . لم يلق تحبه في معركة . .

كان خالد بن الوليد حرا تمام الحرية . .
كان خالد حرا إلى الحد الذي فتيت فيه حريته في إرادة الخالق
ومشيته ، ولهذا كان جبر خالد بن الوليد هو جبر الأقوباء . .
جبر رجل يعرف أن الله هو (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيام
أحسن عملا) سورة الملك من الآية ٢ .
جبر رجل أحب الله قبل أن يحب الحياة . .
رجل أحب الموت فوهبت له الحياة . .

• • • • •
• • • • •

أما جبرنا نحن . .
أما نظرتنا المعاصرة للقضاء والقدر فقد اقتلعتنا من جذورنا .
جبر المسلمين اليوم استسلام للحياة لا استسلام الله . .
استسلام لحب الحياة لا لحب الله .

وعلى عكس أيام خالد بن الوليد . . تركنا القتال خوفا من الموت . .
فعرفنا الموت ونحن أحيا . . وبدلنا من أن تصير الأمة الإسلامية سيفا من
سيوف الله في الأرض . . صارت تضع أخطاءها على القدر وتحمله تبعة
ما هي فيه من مأساة . .

وعاد السؤال القديم يبرز من جديد ..

هل نحن أحرار أو مجبرون؟

ان إجابة السؤال تدخل بنا مياه البحار الغريرة للسياسة ..

نحن مجبرون للهوى وللأنظمة الداخلية والتقاليد الجاهلية والفلسفات

الخارجية ، نحن مجبرون لقوى بشرية لا تؤمن بالله ولسنا مجبرين الله ..

ولهذا لم نعرف بعد الحرية ..

إن المفهوم الحقيقي لعقيدة القضاء والقدر في الإسلام ، يجعل هدف
المسلم أن يوظف حريته لتصير عبودية الله .. عندئذ فقط يستطيع أن
يحصل على حريته الحقيقية .. وعندئذ يستطيع أن يصير صفحات مضيئة
في كتاب القضاء والقدر .. بدلاً من هذه الصفحات السوداء التي نكتبها
ونقول :

« كتبت علينا منذ الأزل ..

بينما القلم في أيدينا .. والمداد لم يجف بعد .

أحادية الله

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . نظر المشركون إلى أمر الإلهية بقولهم البشرية الفاسدة ، وفاسدوا وجودها المطلق على وجود الإنسان المحدود . . وتوهموا أن الله نسبا كما للإنسان نسبا . . عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :

أنسب لنا ربك . .

فنزلت سورة الأخلاص .

السورة من أقصر سور القرآن . .

عدد آياتها أربع . . وعدد كلماتها ١٥ . . ورغم أن القرآن كله لا يضم سورة أقصر منها غير سورة الكوثر . . رغم هذا كله قال صلى الله عليه وسلم أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن . .

وسر ذلك يسير . .

ان سورة الأخلاص تضع قواعد التوحيد الأساسية بآياتها الأربع ، وتبيّن أصول التصور الإسلامي في حق الله عز وجل . . وتنزعه عن مشابهة خلقه ، وتبيّن تعاليه على القوانين الحاكمة لهؤلاء الخلق . .

تبدأ السورة بكلمة من حرفين :

(قل)

هذا أمر موجه من رب العالمين إلى رسوله صلى الله عليه وسلم . .
ومن بعد الرسول يستمر الأمر موجها إلى كل إنسان . . فل من سألك
أن تنسب ربك . .

(قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا
أحد) ^(١) .

(١) سورة الأخلاص .

(قل هو الله أحد .)

ينفرد الله سبحانه وتعالى بأحديته في الوجود والحكم انفرادا لا مثيل له
في انفراد أحد بالوجود والحكم ..

هو الموجود الأحد .. وهو الخالق الأحد ، وهو المالك الأحد ، وهو
المدير الأحد .. الأحد بمعنى الواحد والأول . لا ثانى معه سبحانه ،
ولا معقب على حكمه سبحانه ، ولا شريك له في ملكه ، ولا مثيل له في تدبيره
وانفراده ، ولا كفؤ له في جلاله وبهائه ، ولا نظير لكبريائه وتعاليه ..
قل هو الله أحد ..

هذه هي الكلية الأولى في توحيد الله ..
لم تقل الآية الكريمة أن الله واحد .. أشارت إلى أنه واحد وتجاوزت
ذلك إلى تخصيصه بأنه الأحد ..

والأحد هو الذي لم يزل قبل الخلق متوحدا بالأزل ، لا ثانى معه
ولا خلق .. ثم أبدع الخلق فكان الخلق ثانيا ، وخلق الخلق كله ، محتاجا
بعضه إلى بعض ، ممسكا ببعضه ببعض .. واستغنى عز وجل عن الخلق
فلم يحتاج إلى شيء ، ولا نواه شيء .. إنما هو السابق الأول الذي كان قبل
كل شيء . والواحد من العدد في الحساب ليس قبله شيء ، والأحد اسم أكمل
من الواحد ، لو قلت : فلان لا يقوم له واحد ، لجاز في المعنى أن يقوم له
اثنان أو ثلاثة أو أكثر .. وإذا قلت : فلان لا يقوم له أحد ، فقد قطعت أنه
لا يقوم له أي عدد مهما زاد . فصار الأحد أكمل من الواحد .. والأحد تمنع
من الدخول في الحساب .. كالضرب والطرح والقسمة والجمع وغير ذلك ،
أما الواحد فداخل في الحساب منقاد للعدد ..

تأمل سر التعبير المعجز في الآية (قل هو الله أحد) ..

.....

(الله الصمد) ..

الصمد صفة من صفاته عز وجل .. وهي تعنى السيد الذي لا سيد
معه ، وهي تعنى السيد المتناهى في السيادة ، وهي تعنى صاحب المسؤولية ،
وهي تعنى السيد المقصود في حوائج الخلق .. وهي تعنى السيد المطلق الذي
ببيده ملکوت العطاء كله ..

والفرق بين سيادة الخالق وسؤدד الله عز وجل ان الخالق تعطى
مما اعطتها الله ، وينفذ عطاها عند حد معين ، أما الصمد سبحانه وتعالى
فيعطي من خزائن العطاء التي لا تنضب ، ورد في الحديث القدسى قوله
تعالى : « يا عبادى : لو أن أولكم وأخركم ، وإنكم وجنكم قاموا فى صعيد
واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً ». .

هذه هي القاعدة الثانية من قواعد التوحيد . . أن « الله الصمد » . .
القاعدة الثالثة أنه سبحانه « لم يلد ولم يولد » . .
تعالى على أن يلد . . وتعالى على أن يولد . . لأنه ما من شيء يولد
إلا وسيموت . .

وما من شيء يموت إلا سيورث . . والله يتعالى سبحانه على هذا
كله . .

يصح النص القرانى هنا عقائد الذين قاسوا جلال الألوهية على القوانين
البشرية . . يقول الحق تعالى للإنسان أنك تولد وتتولد . . وتموت
وتورث . . وكل شيء في الكون يخضع لدورة الميلاد والنمو والانحلال
والموت . . وهذا كله جائز في حق البشر والخلائق . . أما خالق البشر
والخلائق فلم يلد ولم يولد . .

وجود الله قديم قديم . .

يمتد في الأزل من قبل أن يخلق الأزل . .

يمتد في الزمان من قبل أن يخلق الزمان . .

يهيمن على المكان من قبل أن يخلق المكان . .

لا وجود قبله سبحانه غيره سبحانه . .

كان الله قبل أن يوجد القبل والبعد والزمان والمكان . .

هو الأول . . وهو الآخر . .

خرج الوجود بكلمة منه سبحانه . .

وسيندوب الوجود بكلمة منه سبحانه . .

ثم يعيد بعث الوجود بكلمة منه سبحانه . .

أحياناً يفكر العقل الانساني في هذا الأزل الغامض الذي كان قبل أن
يوجد الكون .

أحياناً يفكر العقل بالدهشة في الله قبل خلقه للكون . . كيف كان
 سبحانه . . ماذا كان يدير سبحانه . . ؟

لن يعود العقل من سياحته بغير مزيد من التحير والدهشة . .
لا جواب عن هذه الأسئلة ولا أمثلها . .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أنساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدهما أن يتكلم به . .
قال : أوجدتموه ؟

قالوا : نعم .

قال : ذلك صريح الإيمان . .

لم يسألهم عما وجدوه في أنفسهم . .

كان صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم في الحكمة ولا فخر ، وأستاذًا لا مثيل له بين أساتذة النوع الإنساني . . وقد علم صلى الله عليه وسلم أن الشيطان لا بد أن يسهم ببعض الوسوسة في هذا المجال . . فقال عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة . . تمضي سورة الأخلاص بعد ذلك في بيان القاعدة الرابعة من قواعد التوحيد (ولم يكن له كفوا أحد) . .

بعد أن تحدثت السورة عن أحاديثه وصمداته وتعاليه على قوانين البشر الذين يلدون ويولدون . . توجت السورة هذا كله بالقاعدة الأم من قواعد التوحيد . . (ولم يكن له كفوا أحد) . .

تنفي الآية عن الله وجود كفء له . .

لا أحد كفؤ له . .

لا أحد . .

مثلما بدأت الجملة الأولى تقول : (هو الله أحد)
انتهت الجملة الأخيرة بقوله (ولم يكن له كفوا أحد) . .
سبحانه وتعالى على الشبيه أو النظير أو المعادل . .
سبحانه وتعالى على كل شيء . .
الوجود كله بملائكته ونجومه وأكوناته وأراضيه وسمواته عبد . .
كل شيء في الوجود عبد سر شرفه كامن في ذل عبوديته . .
(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)^(١) . .

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

رحمة الله

بحار الرحمة الالهية بلا ساحل ..
ليس لها ابتداء وليس لها انتهاء ..
هي بحار بلا قاع ولا قرار ولا شاطئ ..
لا يأخذ منها الخلق إلا بمقدار ما يأخذ الطفل من مياه المحيط في حفرة
حفرها إلى جوار الشاطئ ..

تأمل صور الرحمة الإنسانية على الأرض . رحمة الآباء بالأبناء ،
ورحمة العاشقين بمن يحبون ورحمة الأخلاء بالآصدقاء ، ورحمة الإنسان
بالحيوان . ورحمة الحيوان بالحيوان ..

تأمل هذا كله خلال تعاقب الأيام والعصور وتتالي القرون والدهور ..
تصوره منذ خلق الله الأرض إلى أن يرث الأرض ..

هذه الرحمة الهائلة كلها جزء من مائة جزء خلقه الله ، واحتفظ لنفسه
بتسعه وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعل الله الرحمة مائة جزء ،
فأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن هذا الجزء تراحم الخلق ، حتى لترفع
الدابة حافرها عن ولادها خشية أن تصيبه » ..

لا حدود لرحمة الله عز وجل ..

ومن الخطأ أن تقاس عليها الرحمة البشرية أو تقارن بها ..
رحمة الإنسان سجينة في حدود طاقته المحدودة وهي مقيدة على قدر
عطائه الذي ينفد ، وهي لا تسع إلا قدر ما يسعه احتمال عقله وعطاء قلبه ،
وهي مثل الإناء إن امتلاً فاض ولم يعد يقبل المزيد ..

وما أسرع ملل الرحمة الإنسانية ..

أما الرحمة عند الله فأفق أعلى من أن يستشرف وعمق بلا قاع ، هو
 سبحانه الذي وسع كل شيء رحمة وعلما .
 يصلى له الملائكة بقولهم (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ،
 فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)^(١) .
 ويقول عز وجل في صفة رحمته (ورحمتى وسعت كل شيء)^(٢) .
 يقول العارف بالله « المحاسبى » . . .
 عرفت رحمة الله طريقها إليك قبل أن تولد . . .
 كنت ذرة في صلب أبيك آدم حين تعرف الله إليك ، وأشهدك على الوهبيته
 فشهدت ، وأخذ عليك عهده فأقررت .
 قال تعالى : (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم
 على أنفسهم ألسنت بربكم . . قالوا بلى شهدنا)^(٣) .
 يقول المحاسبى في كتابه « الرعاية لحقوق الله » . . .

تعرف الله إليك قبل أن تولد فعرفته ، وتجلى بنعمه عليك لك فشهدته ،
 وألهمك الأقرار بربوبيته فوحّدته ، ثم أنه جعلك نطفة مستودعة في
 الأصلاب فتولاك بتدييره هناك حافظا لك ومحافظا عليك ، موصلا لك المدد
 بلطفه وكرمه من الآباء إلى أبيك آدم ، ثم قدّفك في رحم الأم فتولاك برحمة
 التدبير ، وجعل الرحم لك أرضا يكون فيها نباتك ، ومستودعا تنشأ فيها
 حياتك ، ثم جمع بين النطقتين وألف بينهما فكنت ترجمة لسر الإزدواج الذي
 أنبني عليه الوجود كله ، ثم جعلك بعد النطفة علقة مهياً لما يريد سبحانه أن
 ينقلها إليك ، ثم بعد العلقة مضغة ، ثم فتق سبحانه في المضغة صورتك ،
 وأقام فيها بنينك ، ثم نفح فيك الروح بعد ذلك ، ثم غذاك بدم الأم في رحم الأم
 فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ، ثم أبقاك في رحم الأم
 شهورا حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ، ليهياك إلى البروز إلى
 ما قسم لك أو عليك ، وليرزك إلى دار يترعرف فيها بفضله وعدله ورحمته
 إليك ، ثم أنزلك إلى الأرض فعلم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول الطعام

(١) سورة غافر الآية ٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

الخشن ، وليس لك أنسان تستعين بها على ما تأكله ، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف . ووكل بهما منبع الرحمة التي جعلها في قلب الأم ، فكلما وقف اللبن عن البروز استحثته الرحمة التي جعلها لك في الأم منبعا لا يفتر ، ثم إنه شغل الأم والأب بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة لك والمودة . . . وما هذا كله إلا رحمته . هو - ساقها للعباد في مظاهر الآباء والأمهات تعريفا باللوداد ، وفي حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته ، ولا حضنتك إلا الوهيتها ، ثم أنه ألزم الأب القيام بك إلى أن تبلغ وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ، ثم رفع التكليف عنك إلى أن يكتمل فهمك ثم أنه مضى يتعرف إليك برحمته إلى أن صرت كهلا ، لم يقطع عنك نوالا ولا فضلا ، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ، ثم إذا أقمتك بين يديه ثم إذا سلمك من عقابه ، ثم إذا دخلت دار ثوابه ، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه ، وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه » . أه .

قل لى : لأى إحسانه تشكر . . ولأى أياديه تذكر ، وأنت لم تخرج عن إحسانه ولم تدعك رحمته وفضله وامتنانه . .

أتسأل عن إحسانه وجحودك ؟

أتسأل عن إكرامه وذنوبك ؟

أتسأل عن لطفه وخطيئتك ؟

لا تيأس من رحمة الله . . ورد في الحديث عن رسول الله قوله :

« رب ذنب أدخل صاحبه الجنة

قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

قال : لا يزال صاحبه تائبا فارا منه خائفا من ربه حتى يموت فيدخله الجنة » . .

يقول العارفون بالله : إن معصية تورث ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا . .

وقال الشيخ أبو العباس المرسي : كل اساءة أدب تثمر أدبا فليست بآسأة أدب ، وكان رضي الله عنه يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله ، حتى أنه ربما يدخل عليه مطیع فلا يبالي به ، وربما دخل عليه عاص فأخذه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله مستحسن لنفسه ، وذلك العاصي جاء منكسرا بمعصيته وذلتة ومخالفته . .

ولقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« والذى نفسي بيده ، لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم ول جاء بقوم يذنبون ف يستغفرون فيغفر لهم » .

لهذا الحد تصل رحمة الحق ..

يقول تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جمیعا إنها هو الغفور الرحيم)^(١) .

وقد ورد في الحديث القدس قوله تعالى :

« يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ..

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك » .

« من لقينى بقرب الأرض خطيبة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة » .

ورد في الصحيحين « البخاري ومسلم » عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله .. ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

سأله أبو ذر : وإن زنى وإن سرق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإن زنى وإن سرق ..

عاد أبو ذر يقول متعجباً : وإن زنى وإن سرق . قال الرسول : وإن زنى وإن سرق (قالها ثلاثاً ثم قال في الرابعة) على رغم أنف أبي ذر .. فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبي ذر .

ليس معنى الحديث الشريف أن الله تعالى يتهاون في الكبائر ، وإنما يعني الحديث فتح باب التوبة على نهايته للخاطئين كي يدخلوه ، عارفين أن الإسلام يمحو ما قبله .. مدركون أن رحمة الله تبارك وتعالى لا يعجزها شيء .. وإلى ذلك يشير الأثر « من تصور أن ذنبه أعظم من رحمة الله فهذا هو الذنب حقاً » ..

ليس هناك ذنب لا يغفره الله تعالى .

(١) سورة الزمر آية ٥٣ .

كل الذنوب يغفرها الله . . إلا الشرك . .
هو الذنب الوحيد الذي اقتضى عدله ألا يغفره . .
افتح أي سورة من سور القرآن . .
تجدها مبدوعة بـ . . (بسم الله الرحمن الرحيم) . .
الاسماء مشتقان من الرحمة . . وهما من اسماء الله الحسنى . .
والرحمة التامة هي اضفاء الخير على المحتاجين ، والرحمة العامة هي التي
تنناول المستحق وغير المستحق ، ورحمة الله تبارك وتعالى تامة وعامة . .
والرحمة في الإنسان كمال في طبيعته يجعله يتأثر لرؤية الألم ، ويرق قلبه
له . .

يقول الإمام الغزالى أن الرحمة لا تخلو من رقة مؤلمة تعترى الرحيم
فتحركه إلى قضاء حاجة المحتاج والرب تعالى منزه عن ذلك فلعلك تظن أن
ذلك نقصان في معنى الرحمة . . فاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان . .
ليست نقصانا في معنى الرحمة . .

لأن كمال الرحمة بكمال ثمرتها . . ومادامت حاجة المحتاج قد قضيت
بكمالها فلا معنى لتالم الراحم وتفعجه . . وإنما تالم الراحم لضعف نفسه
ونقصانها ولا يزيد ضعفها في غرض المحتاج شيئاً بعد أن قضيت
حاجته . .

وإنما هي كمال في معنى الرحمة . .
لأن الرحيم من رقة وتالم يكاد يقصد بفعله دفع الرقة والألم عن نفسه ،
فيكون قد نظر لنفسه وسعى في غرض نفسه وذلك ينقص من كمال معنى
الرحمة . .

كمال الرحمة أن يكون النظر إلى المحتاج لأجله . . لا لأجل
الاستراحة من ألم الرقة . .
لا يرحم هذه الرحمة السابقة غير الله . .

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء
الحسنى)^(١) . .

(١) سورة الاسراء آية ١١٠ .

هو الرحيم ..

وهو الرحمن ..

الرحمن معنى أبعد من الرحيم .. معنى يتجاوز حياة العباد ..
معنى يتعلق بسعادة الدار الآخرة ..

الرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أولاً .. والهداية إلى الإيمان
ثانياً .. والاسعاد في الآخرة ثالثاً .. والانعام بالنظر إلى وجهه الكريم
رابعاً ..

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : أن الله لما خلق الخلق كتب فوق عرشه « أن رحمتي
تسبق غضبى » ..

ولذن .. لا يكاد الإنسان يبدأ احترافه في ندم التوبة ..
لا يكاد الإنسان يبدأ سيره في طريق الأخلاص لله .. حتى ينطبق عليه
قوله تعالى : (إلا من تاب وأمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله
سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيمًا)^(١) .

يقول العلماء أن هذه هي « أرجى » آية من آيات الرحمة في القرآن ،
فإن الله جل شأنه قد وعد التائب المصلح أن يبدل سيئاته القديمة حسنات ..
وليس بعد هذه الرحمة مقام ..

سئل أحد العارفين عن الطريق إلى رحمة الله فقال :
— توحيد الله ..
وقرأ قوله تعالى :
(إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)^(٢) .

(١) سورة الفرقان آية ٧٠ .

(٢) سورة النساء آية ٤٨ .

قواعد التوحيد

قال تعالى :

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما في السموات وما في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السموات والأرض . ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)^(١) .

لو تصورنا القرآن كوننا نجومه الآيات والسور فإن شمس هذه النجوم هي آية الكرسي . وإذا كانت الشمس ليست أكبر النجوم في الكون ، وإنما هي أقربها فحسب للأرض ، فإن آية الكرسي ليست أكبر شموس القرآن ، وإنما هي أقربها من الحياة الإسلامية .. وإذا كانت صور الحياة على الأرض تستمد وجودها من طاقة الشمس كما يحدثنا العلم ، فإن طاقة التوحيد هي المصدر الرئيسي لكل أنواع الحياة الإسلامية . على التوحيد تبني قواعد التصور الإسلامي ، ومن قواعد التصور الإسلامي ينبع بناء الفرد المسلم والدولة الإسلامية ..

وإذن ينطوى احتفال المسلمين بهذه الآية على إدراك لجلال شأنها .. روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » .. فآية الكرسي من آيات التوحيد الأساسية ..

وهي آية تشير إلى وحدانية الله . وانفراده بالحياة المطلقة ، وهي تبين قيامه على كل شيء ، وتوضح قيام كل شيء به ، وتوكّد ملكيته المطلقة لكل

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

شيء ، وعلمه المحيط بكل شيء ، وهيمنته على كل شيء ، وقدرته وحفظه لكل شيء .

أيضاً تصرح الآية أن الشفاعة عنده مقيدة بإذنه ، وإنذه مرهون بمشيئته ورضاه .

وبذلك ترسم الآية بكلماتها صورة لتوحيد الله . .

هذه الصورة هي الضوء الوحيد الذي يليق أن يستقر في ضمير المسلم . . وجود هذا الضوء يعني إنفاذ الحياة الإنسانية . .

سنعثر في القرآن الكريم على نماذج لقوم أنكروا وجود الله أو ينسوا من رحمته وعذابه ، أو زعموا أن قدرة الخالق لن تبعث الأجساد حين تصير إلى التراب . . أو عبدوا آلهة بشرية أو حجرية ، سنعثر على نماذج لمن يدعى الألوهية . . ويحاول وهو المخلوق الفاني أن يتوهם الجلوس في كرسى الله .

سنجد هذه النماذج كلها في القرآن . .

إن فرعون موسى أدعى الألوهية . . (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)^(١) . وهناك ملك جادل إبراهيم في ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت كرب إبراهيم . . ثم بهت حين تحداه إبراهيم (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب)^(٢) .

وإلى جوار هذه النماذج الصريحة في ادعاء الألوهية ، فإن هناك نماذج ملتوية تسلك سلوكاً آخر ، كمن ينسب عبداً من عباد الله بالبنوة « مثل أتباع عزير وعيسى عليهما السلام » وهذا كله لا يتفق مع قواعد التوحيد التي تنبع عن الله عز وجل . .

وإذن تجيء آية الكرسي لتقرر حقيقة الألوهية وتضع القواعد الأساسية في توحيد الله . . وهي تبدأ بتقرير الوحدانية الحاسمة الناصعة . .

(الله لا إله إلا هو) . .

ليس هناك إله غيره . . ليس هناك متصرف في حياة الكون والبشر غيره . . أي شجاعة يمنحها للبشر هذا التصور . . إن نصف مأسى الأرض

(١) سورة النازعات آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

تبعد من خوف الناس من الناس ، أو تأليه البشر للبشر ، ومسايرتهم للطغاة . إن الحرية الإنسانية لا تولد بشكل حقيقى إلا فى مجتمع يؤمن بانفراد الله تعالى بالوحدانية . . والله المتفرد بالوحدة . . هو ذاته الحى القىوم .

تتحدث الآية عن حياة الله تبارك وتعالى ، وقيامه بأمر الخلق جميعا . . الحى اسم لصفة هى الحياة . . وحياة الموجودات جميعا تختلف عن صفة الحياة الإلهية ، يعترض الموت والنوم حياة الموجودات جميعا ، لا ينجو مخلوق من كأس الموت . . والموت صورة من صور القدرة الإلهى ، وهو اشارة إلهية إلى أن (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)^(١) .

ومثلا لا ينجو مخلوق من الموت . . كذلك لا ينجو مخلوق من النوم ، والنوم صورة من صور الضعف البشري ، والنوم سر يشبه أسرار الموت ، ولا تحكم لأحد فيه أو هيمنة عليه . . ينام الإنسان وبينما الحيوان وتنام الطيور ، وتهجع الأسماك ، ولا ينجو كائن من نعاس أو سنة من النوم . .

(لا تأخذ سنة ولا نوم) . .

تعنى هذه الآية أمران رئيسيان . . تعنى أولا أنه سبحانه لا يخضع لما تخضع له الكائنات . . وتعنى ثانيا أنه يقوم على الكائنات قياما حاكما لا يغفل لحظة أو يتوقف ثانية ، تستمد الكائنات وجودها بكلمة منه ، وتنبهى بكلمة إليه . . ويقوم الأحياء باذنه وإرادته ويطاف بكأس الموت بمشيئة وقضائه . .

هو المتعالى على القوانين التى خلقها لعباده . . وهو المتعالى على النوم والفناء . .

بعد تأكيد الوحدانية . .

وتأكيد الحياة والقوامة . .

يجىء تأكيد الملكية الكاملة . . (له ما فى السماوات وما فى الأرض) هكذا باطلاق . . هو خالقه ومالكه الحقيقي . . وما بأيدي الناس

(١) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧ .

من صور الملكية ليست هي حقيقة الملكية .. الحقيقة أن هذا كله ملك الله ، قد استخلف عليه البشر وابتلاهم به ليرى ماذا يعلمون .. ويريهما ماذا كانوا يعملون (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ..
هذا تأكيد لمقام الألوهية ومقام العباد والعبد ..

كل شيء سوى الله عز وجل لا يتجاوز مقام العبد ..
النجوم عبد مسخرات بأمره .. الملوك عبد يتحكم سبحانه في دقات قلوبهم ويستطيع بكلمة منه أن يوقفها .. الفراغ الكوني عبد من عباده يسبح بظلمته وخلائه لله الخالق الأحد ..
كل ما في الكون المرئي والخفي عبد ..

عبد لا يتجاوز درجة العبد .. عبد قد يكون أفضل من عبد ..
وعبد قد يكون أقرب من عبد .. ولكن هذا لا ينفي أنه يقف في مقام العبد ..

وهو مقام الخشوع والخضوع أمام جلال الله سبحانه ..
توحى الآية بالجلال ، كما توحى بخشوع العبيد جميعا .. فلا يجرؤ على الشفاعة عنه أحد إلا بإذنه .. (من ذا الذي يشفع عنده) توحى صفة الاستفهام الاستنكاري هنا أن هذا أمر لا يكون ..

لا يكون (إلا بإذنه) ..
بهذه الحقيقة يستقر في عقل المسلم أن يعتمد على الله ويعمل .. يرجو شفاعة الملائكة أو الأنبياء لو كان يتبع الملائكة والأنبياء ، فإن كان يمشي نائم العقل في الحياة ولا يتبع غير هواه فليس انتظاره للشفاعة إلا سخرية ..
وإذن ينطبق عليه هذا الاستفهام الاستنكاري (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ..

.....
(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .

هذا مقام آخر لجلال الألوهية ، وعجز المخلوقات .. يعلم الله كل شيء عن مخلوقاته ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .. والتعبير يرسم صورة لعلم شامل يستوعب كل شيء ، علم يوقف الإنسان عاريا أمام الله كل لحظة ..

علم يمتد إلى ما يعرفه الإنسان وما لا يعرفه ، ما يعلنه وما يخفيه . .
ما يدريه وما هو مخباً عنه .

أما الخلائق فلا تعلم عن علمه شيئاً . . إلا أن يأذن سبحانه وتعالى
ويكشف قطرة من بحر علمه لهم ، فيمضون آلاف السنين يدرسون ويبحثون
ويتقدمون ويتحيرون ولا يبلغون قاع القطرة . .

(وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما) .

يجيء التعبير هنا بصورة حسية في موضع من مواضع التجريد
المطلق ، وفي القدماء من اعتقاد أن الله كرسيا يسع السماوات والأرض ، وإن
نفي أن يشبه الكرسي ما نعرفه ، وفي القدماء من فهم الآية فهما آخر ، وأعتقد
أن الكرسي ينبغي تأويله وصرفه لمعنى القدرة والحكم والاستيلاء وموقف
المحدثين مشابه ل موقف القدماء .

ولسيد قطب رأى جديد في ذلك . . يقول في تفسيره في الظلال ان
للقرآن طريقته في التعبير التصويري ، لأن الصورة في مواضع التجريد تمنح
الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا ، فالكرسي يستخدم عادة في
معنى الملك ، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه ،
وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية ، ولكن الصورة التي ترسم في الحس
من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن . . وكذلك التعبير بقوله (ولا يؤوده
حفظهما) بمعنى لا يتعب سبحانه في حفظهما . . يرسم التعبير صورة
لانعدام الجهد والكلال ، لأن التعبير القرآني يتوجه إلى رسم صور للمعاني
تجسمها للحس . . فتكون منه أوقع وأعمق وأحسن . .

ولقد كان هذا رأى المعتزلة الذين أولوا الكرسي بالقدرة والملك . . غير
أن صاحب الظلال يزيد عليهم اكتشافه أسلوب التصوير الفنى في القرآن . .
 فهو أسلوب يرسم صورا للمعاني . .

(ولما سكت عن موسى الغضب)⁽¹⁾ .

إن الصورة المرسومة ترسم الغضب جائما على موسى ممسكا به موجها
تصرفاته ، فلما سكت عنه وتركه وانصرف . .

ونحن نعلم أن موسى ساعتها كان وحده . . كان غاضبا من داخله

(١) سورة الأعراف آية ١٥٤ .

غضبا جعله يلقى ألواح التوراة على الأرض . . هذا الغضب الداخلى يعبر عنه القرآن برسمه من الخارج . . تعبيرا منافضا لحقيقة وإن كان عين حقيقته . .

يقول سيد قطب :

« لا حاجة بنا إذن إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات في القرآن .

إذا نحن فقها طريقة القرآن التعبيرية ، ولم نستعر تلك الفلسفات الأجنبية الغربية التي أفسدت علينا كثيرا من بساطة القرآن ووضوحته ». . والقول على اطلاقه صحيح إذا نظرنا إليه بقانون المستويات . . لو جردننا أنفسنا من سياسة الزمان القديم لأدركنا أن الدين وقفوا عند ظاهر النص ، والذين أولوه كانوا معا على حق . .

لقد اختلفوا إلى حد جعل كل فرقة تقوم بتکفير الفرقة الأخرى ، أو تتهمها بالعجز عن الإيمان أو الفهم ، ولقد وقفت السياسة وراء هذا كله ، والحقيقة إن الوقوف عند ظاهر النص تنزيه .

وتأويل النص تنزيه . .

إن غرض الفريقين كان واحدا . . إثبات أن الله ليس كمثله شيء . .

وقد سلك كل فريق طريقا يختلف عن طريق الثاني .

إعتقد أهل السنة أن الوقوف عند ظاهر النص هو الأدب اللائق في حق

الله . .

اعتبروا ان اقتحام المجال بعقولهم جرأة على الله فاستسلموا وأمنوا بالغيب ، واعتقد المعتزلة أن تأويل النص هو الأدب اللائق في حق الله ، لقد نزل القرآن يخاطب العقل ، فإذا كان فيه ما يستعصى على العقل وجب تأويله . . التأويل هنا أدب . . والله تعالى يقول : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)^(١) والعلم ينصرف إلى العقل فهو مناط التكليف . . أحد الفريقين وقف في مستوى العقل . .

والفريق الآخر وقف في مستوى التسليم . .

وكلا الموقفين إنساني . . وجائز . . ودينى . . ولا غبار عليه . .

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

والعبرة بالنوايا ، والنوايا أمر لا يعرفه إلا الله ، وعظمة الله تعالى لا يمكن أن تراها العين الإنسانية من زاوية واحدة . .
إن هذا يتوقف على المكان الذي تقف فيه هذه العين . . أو المقام الذي يوقتها فيه الله لو أردنا مزيداً من الدقة . .

(وهو العلي العظيم) . .
هكذا تختم آية الكرسي بإفراد الله بالعلو . .
 وإفراده بالعظمة . . هو المتفرد سبحانه بالعلو . . وهو المتفرد بالعظمة . .
وعلوه وعظمته لا يشبهان أية عظمة أو علو في الأرض أو الكون . .
يستمد العلو قامته في الأرض والكون من عبوديته لله . .
وتقف عظمة الخائق متناهية في تراب الذل وال الحاجة أمام عظمة الله . .
تقيم آية الكرسي قواعد التوحيد إذن . .
فما هو المقصود بتوحيد الله . .
التوحيد في اللغة جعل الشيء واحدا . .
وفي عبارة العلماء يعني التوحيد اعتقاد وحدانية الله تعالى . . وعند العارفين يعني التوحيد معرفة وحدانيته وشهادتها . .
والتوحيد هو إفراد الحق تعالى بالقصد والعبادة . . فإن كان ذلك اعتقاداً
يقال للعبد مؤمن بالتوحيد ، وإن كان علماً من أدلة يقال له عالم بالتوحيد ،
وإن كان لغبة الحق على القلب واستيلائه عليه يقال أنه عارف بربه .
والتوحيد هو الإيمان بالله تعالى . .
والتوحيد بالله تعالى درجات ومقامات . . ليس إيمان موسى كائيمان بنى إسرائيل ولا إيمان عيسى كائيمان تلميذه ولا إيمان آخر الأنبياء كائيمان أبناء آخر الزمان . .
هذه الفروق في المقامات هي التي دفعت بعض العارفين بالله إلى اعتبار التوحيد درجات . .
توحيد العوام . . وتوحيد الخواص . . وتوحيد الصفة . .
ولقد كان الإمام الجنيد رأيه الجديد في ميدان الفكر الإسلامي . .

وكانت له نظرية متكاملة في التوحيد . . نظرية تقوم على قانون المستويات . . وتقوم على النسبية الإنسانية وإن كانت تستمد وجودها من آية صريحة من آيات القرآن . . هي آية الميثاق . .

فِي النَّاسِ مَنْ يَقُولُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، وَيُنْكِرُ الْأَرْبَابَ وَالْأَنْدَادَ ، وَلَكِنْهُ يَخَافُ
غَيْرَ اللَّهِ أَكْثَرَ مَا يَخَافُ اللَّهُ ، وَيَرْغُبُ فِي غَيْرِ اللَّهِ أَكْثَرَ مَا يَرْغُبُ فِي
اللَّهِ ..

هذا هو توحيد العوام في نظر الجنيد . .

وفي الناس من يقر بوحدانية الله ، وينكر الأرباب والأنداد ، ولكنه يخاف غير الله خوفا يمنعه من اقامة كل أوامر الله ، ويرغب في غير الله رغبة تمنعه من الامتناع عن كل نواهى الله ..

وهذه صورة أعلى من صور توحيد العوام . . وهناك توحيد الخواص . .
وهو نوعان عند الجنيد . .

افرار بالوحدانية ونفي للأرباب والأنداد ، واقامة أوامر الشريعة في
الظاهر والباطن ، وازالة الرغبة والرهبة المتعلقين بكل ما سوى الله ..

هذا نوع شديد الرقى لا يطيقه إلا الأقلون .
وهنالك قمة بعد هذه القمة . .

الرجوع إلى الحالة السابقة التي كان فيها العبد عندأخذ العهد عليه . .
وذلك بأن يصل العبد إلى حال يكون فيها شبحا فائما بين يدي الله . .
شبحا فانيا عن نفسه . . شبحا لا يرى نفسه . .

يقول الجنيد « وهذا غاية توحيد الموحد للواحد .. يذهب هو » . .
هذا الذهاب للعبد الموحد ، ليس انخلاعاً من العقل ، ولا انفلاتاً من
الوعي ولا خروجاً من المدن إلى الجبال والصحاري ، إنما هو ذهاب لكل رغبة
في شيء سوى الله ، وكل رهبة من شيء سوى الله ، وهو ذهاب لأنانية الإنسان
الجسدية وحاجاته الدنيوية ، وهو ارتفاع عليها . وهو حال لا يعود فيها
المحب بدءاً ، غير ذات المحبوب .. يذهب هو ..

يذوب العاشق فى بحار التوحيد . .
أو يصير بحرا من بحار التوحيد . .

حق الله

قال معاذ بن جبل :

« كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ..

فقال لى : أتدرى ما حق الله على العباد . وما حق العباد على الله .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .. وحق

العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا ..

قلت : يا رسول الله أفلأبشر الناس .

قال : لا تبشرهم فيتكلوا ..

.....

.....

ينسى الإنسان أنه يعيش فوق أرض خلقها الله .. ويتنفس هواء صنعه

الله ، ويشرب مياها أنزلها الله ، ويأكل مما صنعته يد الله ، وتتكلأه عناء

الله ، ويعيش على نعم ساقها الله إليه ..

لا يزعم أعتى المنكرين أنه مسئول عن الهواء أو المياه أو نبات الأرض

أو حيوانه ..

لا يزعم أحد أنه خلق من هذا شيئا أو ساهم في صنعه أو إيجاده

ابتداء ..

لا يملك أحد مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ..

يستوى في انعدام الملكية أن يكون المخلوق ملكا مقربا أو نبيا كريما

أو جنا من الصالحين أو بشرا صالحا أو كافرا عتيا ..

تعيش جميع الخلائق وسط جو لا تملك منه شيئا ولم تخلق فيه شيئا ..

وحياة الإنسان شاهد على ما نقول ..

ان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير هواء أو ماء أو طعام ..

هذه العناصر الرئيسية الثلاثة من خلق الله عز وجل .. والتحكم فيها يتم بأمر الله عز وجل .. وجهد البشر فيها معدوم .. إن هواء الكرة الأرضية هو أول نعمة يستنشقها الناس طيلة الوقت وهي نعمة يبلغ من كثرتها أن صارت لا ترى ولا تحس .. إن الإنسان لا يرى الهواء لشفافيته .. ولا يحس أنه يتنفس من فرط ما يتنفس ..

وربما استطاع الإنسان أن يتحكم في هواء غرفته عن طريق تبريده أو تسخينه .. ولكن التحكم في الغلاف الهوائي حول الكرة الأرضية أمر وراء طاقة الإنسان ..

أيضا يهلك الإنسان لو انعدم الماء الصالح للشرب أو الزراعة . وتوزيع المياه على سطح كوكب الأرض يتم نتيجة لدوران الأرض وتبخر مياه المحيطات والبحار وسقوط الأمطار وتكون الأنهار .. وهذا كله أمر لا يتحكم فيه الإنسان ولا يستطيع إزاءه شيئا ، صحيح أن الإنسان يستطيع تنقية المياه من الشوائب ، ويستطيع تحويل مياه البحر إلى مياه حلوة . ولكن هذا كله يخضع في نهاية الأمر لقوة فوق قوة الإنسان ، ومشيئة تعلو إرادته ..

أيضا يموت الإنسان لو لم يأكل .. والطعام يخرج من الأرض .. أو يدب فوق سطح الأرض .. ولو صارت الأرض الزراعية صحراء بسبب من الأسباب أو أغرت مياه البحار أرضا صالحة للزراعة ، فغاية جهد الإنسان أن يفر من هذه الأرض إلى أرض الله الصالحة للزراعة .. وإن يعيش الإنسان معتمدا في أساس حياته على نعمة الله ..

صحيح أن الله تبارك وتعالى خلق عقل الإنسان مستعدا لأن يستغل ما في الحياة من خيرات ، وعلمه أن يحصل على ما فيها من نعم ، وهذا إلى الأفاده من معرفة حقائق الأشياء وكنه الأسماء ، ولكن هذا كله يستند على أساس خارج عن نطاق التحكم البشري ، خارج عن نطاق قدرة البشر .. هذا كله يستند على أساس هو نعمة الله المهدأة للبشر .. قال تعالى :
(وما بكم من نعمة فمن الله)^(١).

(١) سورة النحل آية ٥٣

سبحانه وتعالى ..

هو مصدر جميع النعم .. وهو أصل كل خير .. وهو سبحانه
المتفضل ابتداء .. وانتهاء ..

كان المفروض - ما دام الله هو خالق العباد ومالكهم ووارثهم - أن يكون
الله تعالى على عباده حقوق عديدة .. وكان المفروض ألا يكون للعباد على
الله أى حق .. والأصل أن تنشأ الحقوق من المساواة أو التنمية .. فإذا انفت
فلا مجال للحديث عنها ..

رغم ذلك .. اقتضت رحمة الله تبارك وتعالى ، وهو أرحم
الراحمين .. أن يقدم لعباده من النعم ما لا يمكن احتسابها (وإن تعدوا
نعمه الله لا تحصوها)^(١) .. واقتضت مشيئته ترتيب حق واحد على
عباده .. هو حق التوحيد ..

واقتضى كمال رحمته وعدله عدم ترتيب نعم الدنيا على حق التوحيد ..
فهذه النعم تساق إلى الكافرين والمؤمنين .. وتساق إلى العاصين
والطاغيين .. ولو أن الله قصر نعمه في الدنيا على الموحدين والمؤمنين ،
ومنع الهواء والماء والطعام عن الكافرين لوجد الناس أنفسهم مجبرين على
الإيمان ، مقهورين على التوحيد ..

والله أكبر من أن يجبر أحدا على توحيده أو عبادته ..

لا يقبل الله إلا توحيدا ينبع من ارادة حرة ، ونفس لا اكره عليها
أو ضغط .. لا يقبل الله إلا توحيدا ينبع من الحب الخالص ..

وإذا كان مقتضى العدل أن يحجز الله نعمه الدنيوية عن الكافرين ، فان
الله عز وجل لا يتعامل مع عباده بالعدل وحده .. إنما تسبق رحمته
عدله .. ويسبق عفوه غضبه ، ويمد يد الرحمة للمسيء حتى يرجع ، ويمهل
المنكر حتى يعدل ، ويفرح بتوبة التائبين - لو صدقوا - ويدخلهم في
رحمته ..

ويسوق الله قبل هذا كله للعباد نعما لا متناهية ، ولا يريد من عباده رزقا
في مقابل رزقه لهم .. ولا يريد نعما في مقابل نعمه لهم .. ولا يريد أن
يطعموه سبحانه كما يطعمهم (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

(١) سورة النحل آية ١٨ .

ما أريده منهم من رزق وما أريده أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة
المتين (١) ..

أى لطف واحسان أن يكون حق الله على عباده هو التوحيد فقط ..
لو أضفنا لمعرفتنا أن الله لا ينال من توحيد الموحدين شيء . ولا تزيد
عبادة العباد شيئا ، ولا ينقص كفر الكافرين من ملكه شيئا .. لو عرفنا
ذلك لأدركنا أن الله لا يريد من حقه على العباد « وهو التوحيد » إلا رحمة
العباد وزيادة الاحسان إليهم ..

إن الله بعد نعمه ومنتها في الدنيا .. يريد أن ينعم ويمن في الآخرة ..
ولإذن ..

أى حسرة على العباد أن يشركوا بالله ؟
أى بؤس أن يعبد الناس إلهين .. أو ثلاثة آلهة .. أو آلهة متعددة .
أى سقوط أن يقول الناس أن الله تعالى ولدا .. أو يتصورون وجود إله
مع الله ..

إن الشرك هو اعتداء الإنسان على حق الله الأساسي على العبيد ..
وهو اعتداء يتصدى له القرآن الكريم بالمناقشة والتنفيذ في أكثر من
موضع ، سنرى الله تعالى يحدث عباده عن وحدانيته في الخلق والهيمنة ،
ويلفتهم إلى نعمه العديدة التي يسوقها إليهم ولو شاء حجزها عنهم فهلكوا ،
سنرى القرآن الكريم يصعب العقول في رحلة سريعة ومتأنية في آفاق
السماءات والأرض وخبايا الحياة والنفوس ، رحلة يطلعهم فيها على احسانه
الظاهر والخفى ، ويقيم فيها الحجة على انعدام برهانهم وكذبهم فيما يدعونه
من وجود إله مع الله ..

يقول تعالى في سورة النمل :

(قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ،) آللله خير
أما يشرون ، فمن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء
فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله ؟ .
بل هم قوم يغدرون .

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ،

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ - ٥٨ .

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا . إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمْنٌ يُجِيبُ الْمُضطَرَ إِذَا دَعَا وَيُكَشِّفُ السُّوءَ وَيُجَعِّلُكُمْ خَلِفاءَ الْأَرْضِ ، إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ ! قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمْنٌ يُهَدِّيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدِي رَحْمَتِهِ . إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ ! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ . أَمْنٌ يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلْ : هَاتُوا بِرَهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) النَّمَلَ ٥٩ - ٦٤ . لَوْ تَأْمَلُنَا الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لِرَأَيْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ يَسْأَلُ خَمْسَ مَرَاتٍ .. سُؤَالٌ بِصِيغَةِ الإِسْتَهْمَامِ الْإِسْتَنْكَارِيِّ .

* إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ .. ?

وَفِي الْمَرَّةِ الْأُولَى يَتَّهِمُ قَائِلُ الْكَلْمَةِ بِأَنَّهُ لَا يَعْدُلُ .. وَهَذَا يَعْنِي الظُّلْمُ .. وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ يَتَّهِمُ الْقَائِلُ بِعَدَمِ الْعِلْمِ .. وَهَذَا يَعْنِي الْجَهْلُ .. وَفِي الْمَرَّةِ الْثَالِثَةِ يَتَّهِمُ الْقَائِلُ بِنَسْيَانِ نِجَادَةِ اللَّهِ لِلْمُضطَرِّ وَكَشْفِهِ لِلْسُوءِ .. وَهَذَا يَعْنِي الْجَحْودُ .

وَفِي الْمَرَّةِ الْأَرْبَعَةِ يَقْدِسُ ذَاتُ اللَّهِ عَنْ هَذَا الْلَّغُوِ الْعَابِثِ الَّذِي يُقَالُ . وَفِي الْمَرَّةِ الْخَامِسَةِ يَطَالِبُ الْقَائِلُ بِالْبَرْهَانِ إِنْ كَانَ حَقًا صَادِقًا ، وَهَذَا يَعْنِي انْهِيَارِ الْقَضِيَّةِ مِنْ أَسَاسِهَا لِانْعِدَامِ الْبَرْهَانِ وَكَذْبِ الْقَائِلِ .. وَفِي سُورَةِ « الْمُؤْمِنُونَ » يَعْرِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ قَضِيَّةَ الشُّرُكِ بِأَسْلُوبٍ آخَرٍ .. يَقُولُ تَعَالَى :

(قَلْ : لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنِ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ? سِيَقُولُونَ : اللَّهُ ، قَلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ? ! قَلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سِيَقُولُونَ اللَّهُ قَلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ ? قَلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يَجْعَلُ وَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سِيَقُولُونَ اللَّهُ . قَلْ فَإِنِّي تَسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا أَتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبَّحُوا اللَّهُ عَمَّا يَصْفُونَ . عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ) . آيَةٌ ٨٤ - ٩٢ .

سَنُلَاحِظُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا .. اللَّهُ ..

سُنْرَاهُمْ يَقْرُونَ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ هُوَ

اللَّهُ ..

سُنْرَاهُمْ يَعْرُفُونَ أَنَّ مَلْكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِ اللَّهِ .. وَيَعْرُفُونَ أَنَّهُ يَجْعَلُ
وَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِ وَرَغْمَ هَذِهِ الْاعْتِرَافَاتِ كُلُّهَا ، فَإِنَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا ..
وَفِيهِمْ مَنْ يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ ..

نَحْنُ أَمَامُ نَوْعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الشَّرِكِ ..
وَالشَّرِكُ كَالْتَوْحِيدِ درَجَاتٍ وَأَنْوَاعٍ ..

وَإِذَا كَانَ الْمُوْهَدُونَ جَمِيعاً فِي الْجَنَّةِ .. فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ جَمِيعاً فِي
الْجَنَّةِ ..

تَتَفَاقَوْتُ درَجَاتُ الْمُوْهَدِينَ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَخْرُجُ الْمُشْرِكُونَ جَمِيعاً مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ ..

وَيَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ الذُّنُوبِ .. وَلَا يَغْفِرُ ذَنْبَ الشَّرِكِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ .
(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ .. وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يُشَاءُ) (١) .

وَهُنَاكَ شَرِكٌ صَرِيقٌ لَا مَوَارِبَةَ فِيهِ .. كَانَكَارُ الْإِنْسَانِ اللَّهُ وَعِبَادَتِهِ
لِنَفْسِهِ ، أَوْ مَالِهِ ، أَوْ صَحْتِهِ ، أَوْ عَقْلِهِ ، أَوْ نَظَامِ حُكْمِهِ ..

وَهُنَاكَ شَرِكٌ سَاذِجٌ كَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْتَّمَاثِيلِ وَصُورِ الْأَجْدَادِ وَالْأَبَاءِ ..

وَهُنَاكَ شَرِكٌ يُعْرَفُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، وَالسَّمَاءُ لِلَّهِ ، وَالْمَلَكُ
لِلَّهِ ، وَلَكِنَّهُ يُضَيِّفُ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخَرَ أَوْ وَلَدًا ..

وَهُنَاكَ شَرِكٌ يُعْرَفُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، وَيُنْكِرُ وَجْدَ صَاحِبَةِ
أَوْ وَلَدٍ أَوْ إِلَهٍ مَعِ اللَّهِ .. وَرَغْمَ ذَلِكَ تَمْضِي تَصْرِفَاتُ الْإِنْسَانِ فَإِذَا هُوَ فِي
الْحَقِيقَةِ مُشْرِكٌ ، وَإِذَا هُوَ يَرْجُو وَيَخَافُ النَّاسُ أَكْثَرُ مَا يَرْجُو أَوْ يَخَافُ
اللَّهُ .. وَيُحِبُّ وَيُطِيعُ الْبَشَرَ أَكْثَرُ مَا يُحِبُّ أَوْ يُطِيعُ اللَّهُ ..

لَا نَرِيدُ أَنْ نَفِيَضَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الشَّرِكِ الصَّرِيقِ .. فَهَذَا مَعْرُوفٌ
وَظَاهِرٌ .. وَإِنَّمَا نَرِيدُ أَنْ نَبْسِطَ عَقِيْدَةَ الْإِسْلَامِ فِي الشَّرِكِ الَّذِي يَرْتَدِي ثِيَابَ
الْإِيمَانِ ..

قَالَ تَعَالَى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (٢) .

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) سورة يوسف آية ١٥٦ .

ما هو المقصود بهذه الآية الكريمة . . ؟

هل نزلت في أصحاب الأديان السابقة على الإسلام فقط ، إما أنها تنطبق على الفترة الزمنية بعد نزول الإسلام . . وتمتد فترة انطباقها حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

الأصل في آيات القرآن أن تنطبق على كل زمان ومكان . لا تحابي أحداً لأنه مسلم أو غير مسلم ، ولا يقتصر عملها على زمان دون زمان . لكنى نجيب عن السؤال إجابة كاملة نريد أن نسأل أولاً ؟

ما هو تعريف التوحيد في العقيدة الإسلامية . . ؟

نريد تعریفاً نهائياً صادقاً لا يختلف عليه اثنان . .

لن نجد ما نطلب إلا عن آخر الأنبياء وأول المسلمين . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس :

* شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

* واقام الصلاة

* وابتلاء الزكاة

* وصوم رمضان

* وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

إن أول أساس من أسس الإسلام هو التوحيد ، وتعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوحيد . بأنه شهادة أن لا إله إلا الله . . ليس مصادفة ولا اتفاقاً ، ومن معانى الشهادة في القرآن الكريم . . العلم . .

قال تعالى على لسان أخيه يوسف :

(وما شهدنا إلا بما علمنا)^(١) .

ومن معانى الشهادة . الرؤية والاطلاع والاعتراف .

ومن معانى الشهادة . الصدق في الشهود ، ومرتبة اليقين في الاقتناع . وشهادـة أن لا إله إلا الله تعـنى أن يعلم الإنسان ويـعمل بما علم . ولا عـبرة بـعمل لا يـسـنـدـهـ العلم ، ولا قـيمـةـ لـعـلمـ لا يـؤـدـىـ إـلـىـ الـعـمـلـ . إنـ هـذـاـ يـشـبـهـ الفـصـلـ بـيـنـ رـوـحـ الإـنـسـانـ وـجـسـدـهـ .

ويتصور كثـيرـ منـ الـمـسـلـمـينـ الـيـوـمـ أـنـ مجـرـدـ التـلفـظـ بـالـشـهـادـةـ هوـ الـمعـنىـ

(١) سورة يوسف آية ٨١ .

المقصود بالشهادة . . وهذا وهم بالغ ، ولو أنه اقتصر على مجرد الوهم لهان الأمر ، ولكنه خطأ قاتل هدم وجود المسلمين أو كاد .
ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد بالشهادة مجرد القول . .
لاستخدم لفظ القول صراحة . .

لقد كان صلى الله عليه وسلم محدداً واضحاً في حديثه . .
والشهادة ليست تلفظاً باللسان . . إنما هي شهود لشيء . . واعتراف به بعد ذلك ، والاعتراف بالقول لا يمكن أن يكون بديلاً عن الاعتراف بالفعل . . ذلك أن الإسلام دين لا يغنى فيه القول عن الفعل . .
الإسلام دين لا تحل فيها الكلمات مكان الأفعال . .

لقد نزل الإسلام يصحح تصور الإنسان عن الله عز وجل ، ولم يمض على وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سنوات حتى كانت جيوش المسلمين تنطلق في أرجاء الأرض لفتح الأقطار والأمصار ، وكسر جيوش الوثنيين والطغاة . . والاستيلاء على الممالك والدول . .

لم تكن تفعل هذا كلها إلا لترفع القضايا التي تحجز عن الناس شهادة أن لا إله إلا الله . . أو شهود أن لا إله إلا الله . .

ورغم أن الإسلام حمل السيف في بداية دعوته ، إلا أنه حمل سيفه كما يحمل الجراح مشرطه ، دفاعاً عن الحياة كي تتحرر ، ورفعاً للقهر الذي يرسخ على عقول البشر ، وتحطيمها لقيود التي يضعها الجبارون على حرية المستضعفين . . واستئصالاً لمرض يهدد الجسد الإنساني كلها بالهلاك .

ورغم هذا الموقف . . فإن الإسلام لم يقهراً أحداً على الإيمان به ، ولم يقتل أحداً لأنّه يؤمن بعقيدته ، ويحترم في ذات الوقت حرية الآخرين في الاعتقاد . . إنما حطم الإسلام القيود على حرية الإنسان ، وترك للإنسان الحرية في أن يؤمن بالله أو يظل على عقيدته ما دام لا يحارب عقائد الآخرين . .

هذا هو موقف الموحدين في عصور الإسلام الأولى . .
كان الإسلام يوجه الحياة بالفكر والدعوة ، ويهتم ب بصورة التوحيد بالقوة العسكرية ، ولعل هذا الإحساس هو الذي دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول في أول معركة ل الإسلام - وهي غزوة بدر .

« اللهم نصرك .. اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في
الارض » ..

لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلاقة الوثيقة بين عنايـة الجهاد
في سبيل الله .. وتوحـيد الناس لله فيما بعد .. وهذه عـلاقة مستمرة وليسـت
وـفقـا على عـصره صلى الله عليه وسلم ، وبـغيرـ هذه السـيوف المؤمنـة التي
أرـتفـعت في مـعرـكة بـدر .. ما كان مـمـكـناً أن تـنـتـشـر دـعـوة التـوـحـيد في
الـأـرـض ..

ولولا الدـماء المـسلـمة التي أـرـيـقت في المـعرـكة الأولى للإـسـلام .. لـظـلت
الـأـرـض على جـاهـليـتها الطـامـية ، ولـتعـذرـ أن تـجـد فـكـرة التـوـحـيد مـجاـلاً تـعـمل
فـيه ..

نـريـدـ أن نـصلـ إلى قـانـونـ أـسـاسـيـ من قـوانـينـ التـوـحـيد ..
ذـاكـ هو قـانـونـ العـلـاقـةـ بيـنـ فـكـرةـ التـوـحـيد .. وـالـعـمـلـ لـتـغـيـيرـ الـحـيـاة ..
إنـ الـصـلـةـ بيـنـ التـوـحـيدـ وـالـحـرـكـةـ .. كـالـصـلـةـ بيـنـ الـيـقـظـةـ وـالـعـقـلـ ..
إـذـاـ وـجـدـتـ الـيـقـظـةـ .. تـحـركـ تـيـارـ الـأـفـكـارـ فـيـ الـعـقـلـ ..
إـذـاـ وـجـدـ التـوـحـيدـ .. تـغـيـرـ شـكـلـ الـمـجـتمـعـ مـنـ سـيـءـ إـلـىـ أـفـضـلـ ..

وـالـدـلـيلـ عـلـىـ صـدـقـ هـذـاـ القـانـونـ شـكـلـ الـحـيـاةـ فـيـ مـكـةـ قـبـلـ بـعـثـةـ رـسـوـلـ اللهـ
صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، وـشـكـلـ الـحـيـاةـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ بـعـدـ قـيـامـ دـوـلـةـ الـمـوـحـدـينـ ..
إـنـ الـفـرـقـ بيـنـ الـظـلـامـ وـالـنـورـ هوـ الـفـرـقـ بيـنـ الشـرـكـ وـالـتـوـحـيدـ ..
وـالـفـرـقـ بيـنـ الـظـلـمـ وـالـعـدـلـ هوـ الـفـرـقـ بيـنـ مجـتمـعـ مـكـةـ الـوـثـنـيـ وـمـجـتمـعـ
الـمـدـيـنـةـ الـمـوـحـدـ الـمـسـلـمـ ..

وـلـقـدـ مـرـتـ الـآنـ أـرـبـعـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ عـلـىـ بـعـثـةـ الرـسـوـلـ وـنـزـولـ عـقـيدةـ
الـتـوـحـيدـ ..

وـأـصـابـ التـوـحـيدـ خـلـالـ هـذـهـ حـقـبـ الطـوـيـلـةـ غـبـارـ كـثـيفـ ..
وـمـوـقـفـ الـمـسـلـمـينـ الـيـوـمـ خـيـرـ دـلـيـلـ عـلـىـ مـاـ نـقـوـلـ ..
إـنـ الـشـعـوبـ التـيـ تـدـيـنـ بـالـإـسـلـامـ .. هـيـ لـلـأـسـفـ .. شـعـوبـ تـأـتـيـ فـيـ
نـهاـيـةـ الـقـائـمـةـ الـبـشـرـيـةـ ، وـمـعـظـمـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ الـأـرـضـ يـعـيـشـونـ وـسـطـ أـمـيـةـ
تـتـراـوـحـ نـسـبـتـهاـ بـيـنـ ٦٥ـ %ـ ، ٩٥ـ %ـ .. بـيـنـماـ كـانـتـ أـوـلـ كـلـمـةـ فـيـ دـيـنـهـ هـيـ
« اـقـرـأـ » ..

والخرافات لا تجد أرضاً تتنفس فيها غير ديار الإسلام أولاً . والرقى
ووالتمائم والتعاويذ منتشرة بين المسلمين ، وزيارة القبور وسؤال الموتى أن
يتدخلوا في حياة الأحياء مأساة يعيشها المسلمون . والسحر والعرافة
والإيمان بالحظ والحسد والبخت أشياء نشكو منها في حياة المسلمين ، وحب
الناس أكثر من حب الله شيء نعثر عليه في حياة المسلمين .
ولا يختلف أثنان من المصلحين أو المفكرين الإسلاميين على أن حال
المسلمين اليوم يدعوا إلى الاشغال .

ما هو السر ؟

هل ترك المسلمون التوحيد .. ؟

هل اختلط توحيدهم بالشوائب .. ؟

هل غطى على جوهر التوحيد الإسلامي ركام من الخرافات التي
صارت جزءاً من السلوك الإسلامي ، بينما الأصل أن الإسلام نزل لمحاربة
هذا السلوك ..

سنترك الاجابة لثلاثة من علماء الإسلام الكبار . . فهم أقدر منا على
النفاذ لأصل الداء ومعرفة الدواء . .

العالم الأول هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والثاني هو المفكر
الإسلامي مالك بن نبي والثالث هو الداعية والمفكر الإسلامي محمد
الغزالى . . والأول من الجزيرة العربية ، والثاني من الجزائر ، والثالث من
مصر . . وهم على اختلاف ديارهم يجمعهم حب عميق لله ورسوله ،
ويشفقون شفقة واعية على المسلمين ويعنيهم أمر تقدمهم وقد بحث الثلاثة
مشكلة توحيد المسلمين اليوم . . وكان الشيخ محمد ابن عبد الوهاب حاسماً
في كتابه « التوحيد . . الذي هو حق الله على العبيد » ، فقد أبان في كتابه
أن حق الله على العبيد هو التوحيد وتحدى عن فضل التوحيد وما يکفره من
الذنوب ، ثم استطرد إلى أن من حق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ،
ويکاد الرجل يركز في كتابه كله بعد ذلك على معنى تحقيق التوحيد ، فهو
يحدثنا أن من الشرك ليس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ،
ويحدثنا أن من علق التمائم فقد أشرك . . والتمائم شيء يعلق على الأولاد
لإنقاء العين والحسد ، ويحدثنا أن من تبرك بشجرة أو شيء فقد أشرك ،

ويرى أن من الشرك النذر لغير الله ، أو الاستعاذه بغير الله ، أو الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله . . وهو يستعين فيما يكتب بأحاديث النبي صلى الله علي وسلم الثابتة . . ويدرك قصة المؤمنين الذين قالوا - قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الرسول : أنا لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله . .

ويروى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما أورده أنس في الصحيح حين شج رأس النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت أسنانه . . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم . . فنزل قوله تعالى (ليس لك من الأمر شيء)^(١) .

إشارة إلى رد الأمر كله إلى الله . .

أيضاً يتناول الكتاب مسألة الشفاعة ، وينفيها الشيخ عن أهل العصيان والكفر ويرى أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والأخلاق . .

ويرى الشيخ أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ، ويهاجم زيارة المقابر والأضرحة ويرى أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله . .

أيضاً يهاجم الكتاب السحر والتطير والتشاؤم ، ويحمل حملته القوية على التنجيم والخرافة ، ويكشف الأقنعة عن شرك الذين يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، ويتحدث عن الشرك الخفي كالرياء ، ويؤيد الكتاب آراءه بآيات القرآن والأحاديث النبوية الثابتة ، ولقد أثمرت دعوة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، ومن حكمة الله تعالى أن الرجل عاش في الجزيرة العربية ودعا فيها دعوته ، فليست هناك أرض تضم ما تضمه الجزيرة العربية من رفات كان يمكن أن تصير فتنـة باللغة لمسلمي الزمان المتأخرـين ، إن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية ، وقبورـ الخلفاء والشهداء والصحابة والأولياء هناك ، ولوـلا صرامة الدعـوة الـوهـابـية فيـ الحـقـ وـ حـسـمـهاـ القـاطـعـ فيـ التـوـحـيدـ لـمـالـ المـيزـانـ وأـصـابـ أـرضـ النـبـوةـ شـرـ كـبـيرـ . .

إن بعض حجاج بيت الله الحرام مثلاً يتقاـلـونـ ويـتـضـارـبـونـ لـتـقـبـيلـ

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨ .

الحجر الأسود ، وكان المفروض - لو حسن إسلامهم - أن يفسح بعضهم البعض الطريق إليه . . وكثير من زوار الجزيرة العربية يسأل زيارة قبر حمزة رضي الله عنه ، أو زيارة غار حراء الذي كان يتبعده فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجيئهم أحد لما يطلبونه . . فقد سويت القبور وأخفي غار حراء ، ونجحت الدعوة الوهابية أن تنقذ أرض الجزيرة العربية من الفتنة ، وتعيد إليها نقاء التوحيد .

وقد تناول محمد بن عبد الوهاب قضية التوحيد كسلوك فردي وسني ويفتتح بـ: كيف يتناولها مالك بن نبي كقضية اجتماعية . . فمن المعروف أنه لا يكفي أن يكون الله في قلوب الناس . . بينما الشيطان هو الذي يحكم المجتمع . .

أيّام الله

حين تتحدث إلى فقير أو بائس أو فاشل ، عن الثروة الطائلة التي كانت لأجداده ، فهذا الحديث لن يشفى جوعه ولن يحل مشكلاته . .
ربما كان الحديث يسليه عن متابعيه ، وربما كان يخدر آلامه مؤقتا ،
وربما كان يعزل ضميره وفكرة عن الشعور بمساته ، وربما كان يزيد مرارته ، ولكن مثل هذا الحديث بالقطع لا يشفى أوجاعه ولا يعينه على حل مساته . .

اليس هذا هو حال المسلمين اليوم حين يستمعون إلى مجد الأيام القديمة والعصور الخوالي . .
منذ أربعة عشر قرنا وقف رجل عربي وقال أنه ليس سوى بشر . .

. . ولكن الله الذي خلق الكون والإنسان قد أمره أن يحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ، ولكي يعيش الإنسان بصورة تتلاءم والنظام الذي أبدع الله به العالم ، أمر الله رسوله أن يذكراهم بوجوده الدائم وقدرته اللا نهائية وعلمه بكل أمر ، كما أمره بأن يضع أمامهم منهاجا للسلوك ، فإذا قبلوا هذا التذكير فليتبعوه .

تلك كانت زبدة الرسالة الأخيرة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد كان النظام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر من البساطة التي تتمشى مع العظمة الحقيقة . .

لقد أدرك الإسلام أن سمو الفرد روحيا ، هو الهدف الأساسي لأى نظام ، وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا إذا كان الفرد يحصل على الروح المعنوية والتعاون والتشجيع والحماية من المجتمع حوله ، وينتظر المجتمع في الجانب المقابل أن يحصل من الفرد على التعاون والتشجيع والحماية . .

هذا التداخل بين الفرد والمجتمع كان سبباً في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، لقد أدرك أن الدعوة الإسلامية قد حوصلت في مكة . . ومنع من أن تنمو أو تتحقق أهدافها في الحياة . .

ويجب أن نضعحقيقة جوهرية في أذهاننا ونحن ندرس هذا الزمان البعيد . . هذه الحقيقة أن الإسلام لم يكن فاقراً على عمل عقيدة التوحيد في النفوس وحدها . . ولو كان الأمر كذلك لبقي النبي صلى الله عليه وسلم في مكة لا يغادرها ، فقد آمنت معه في مكة نماذج كثيرة ورفيعة وتربى في مدرسة النبوة العظيمة أبو بكر وعمر وعلى وعثمان ، وكان الإيمان في نفوس الناس قد بلغ ذروة الذرى . . رغم ذلك هاجر الرسول . .

خرج من مكة وهدفه المدينة . .

لماذا ؟

لأن الإسلام ليس عقيدة توحيد تعمل عملها في نفس الإنسان فقط ،
ولا تتعدي النفس للمجتمع .

لأن الإسلام يحتاج إلى مجتمع مسلم . . ودولة تحكم بالقرآن ، وعلاقات
إنسانية بكل ما تحمله الكلمة العلاقات الإنسانية من تعقيد ورقى . .

لقد غابت أهم حقيقة من حقائق التوحيد عنوعي المسلمين اليوم . .
إن التوحيد لم ينزل على الرسول ليملأ به القلوب والعقوال فقط . . إنما
نزل التوحيد ليعمل أثره في الحياة ، وينظم المجتمع ، ويعيد خلقه من جديد
على الصورة التي يرضاها الله رب العالمين لعباده .

ليس الإسلام دينا يمكن لأتباعه ممارسة طقوسه بعيداً عن المجتمع . .

ليس الإسلام دينا يمكن الخروج به إلى الجبال والمغارات
والصحراء . .

الإسلام دين ودنيا . . عبادة وعمل . . روح وسياسة . . إيمان
واقتصاد . . يتدخل الإسلام في علاقات الرجل بزوجه ، وخدمته وأمه
وأبيه . . يتدخل الإسلام في الزواج والحب والطلاق والميراث والسياسة والحكم
والاقتصاد والبنوك . . يضع الدستور لهذا كله ويترك للعقل فرصته في
الاجتهاد . .

إن التعاون الإنساني المتبادل بين الفرد والمجتمع في عقيدة الإسلام ،
هو السر في أن الإسلام لا يمكن فصله عن الاقتصاد أو السياسة . .

إن الإسلام - بوصفه عقيدة توحيد - هو المسؤول عن تنظيم العلاقات الإنسانية بطريقة تمكن كل فرد من أن يلقى أقل قدر ممكناً من العقبات ، وأكبر قدر ممكناً من التشجيع ..

إن نمو شخصية المسلم وتقدمه ورقمه هو هدف الإسلام .

إن سعادة الإنسان هي هدف الإسلام ..

والسعادة لا تعيش إلا وسط مجتمع .. لأن الإنسان - بدهة - يعيش وسط مجتمع ..

ولقد كان طبيعياً أن النظام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختص بالشئون الروحية فحسب ، ولم يبسط مفهوم الصلاح الفردي فحسب ، بل عرض أيضاً مفهوم المجتمع العادل الذي يجب أن يوجد في الإنسان الصالح .. واحتلت مشاكل الجسد والعقل والجنس والاقتصاد والحروب مكانها جنباً إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة والذكر والسوق والحب لله ..

وكان إذا عرض أمر خطير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو على خليفة رسول الله نادى المنادي أن الصلاة جامعة ، وفي المسجد يعرض الحاكم الأمر الخطير ويسأل حكماء قومه الشورى .. وهكذا انطلق الإسلام وانتشر ..

واستطاعت دعوة التوحيد أن تؤثر في نفس الإنسان وتغير من شكل الحياة ..

ونشأت أول حضارة للموحدين ..

كانت الدفعـة الأولى قوية حقاً ..

وـجد الإنسان طريقـه للخلاص ، وـوـجد المجتمع طريقـه للخلاص أيضاً ..

وـتم التوازن بين حاجـات الإنسان وأـحلـامـه ، كـما أـفسـحـ المـجـتمـعـ الطـرـيقـ لـتـقـدـمـ الإـنـسـانـ الرـوـحـيـ ..

وـانـعـكـسـتـ أـشـعـةـ الشـمـسـ عـلـىـ سـيـوـفـ الـمـوـحـدـينـ وـهـىـ تـخـرـجـ مـنـ غـمـدـهـاـ فـىـ سـبـيلـ اللهـ .. وـالـمـسـتـضـعـفـينـ مـنـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ وـالـوـلـدـانـ .. وـأـذـنـ لـلـيـلـ الضـمـيرـ بـاـنـتـهـاءـ ..

وـسـطـعـتـ شـمـسـ اللهـ عـلـىـ الإـنـسـانـ .. وـبـدـأـ عـصـرـ النـهـضةـ الـحـقـيقـىـ .

ومرت أيام الله ..

مرت بما تحمله من صفو وكدر ، ونعمة ومحن ، وابتلاء وامتحان ..
واستدارت الأيام ، فإذا قادة البشرية هم نهاية القافلة .. وإذا رجال النور
القديم يخطون خطوهم الثقيل في ظلام دامس ، ويتحسنون طريقهم على
استحياء ومهل ..
وهزم المسلمون مرتين ..

هزموا عسكرياً وهزموا فكريياً .. وكانت الهزيمة الثانية أقسى وأمر ..
فقد استعمر الغرب الشرق المسلم عسكرياً ، ثم تطور أسلوب الاستعمار
وتنثر الاستيلاء على مراكز القيادة الفكرية في ديار الإسلام .. وهكذا تسلل
الغرب إلى عقول المسلمين وأقنعهم أن التقدم الحقيقي أن نحمل أسماء مسلمة
وعقولاً غربية ..

ولتكن صادقين ونعرف بالحقيقة ..

صحيح أن الإسلام حي لا يزال .. موجود وقائم .. يتلى القرآن
وتتساق أحكام الله ، ويجرى شهر رمضان فيصوم المسلمون .. وفي موسم
الحج يتدافع مئات الآلوف تلبية لنداء أبيهم وسيدهم إبراهيم عليه الصلاة
والسلام ..

صحيح أن الإسلام موجود في كتبه .. لم يتغير ولم يتبدل ولم يحرف
ولم يزل بحفظ الله محفوظاً ..

لكن المسلمين أنفسهم ليسوا موجودين .. أو أنهم موجودون مثل أناس
مشلولين ، فإذا صعبت على نفوسنا كلمة الشلل فلننقل أن لهم وجود
النائمين .. وأنهم غير قادرین على تحويل معتقداتهم إلى عمل مثمر ،
أو مجتمع مسلم ، أو حقيقة واقعة ..

لقد بعد العهد بينهم وبين تعاليم التوحيد الأولى ، وانغمسوا في التراخي
والجهل ، ولم يحافظوا على المثل الأعلى الذي وضعه أمامهم نبيهم
الكريم ..

ووسط هذا الفراغ ، وحين نام حرس الثغور تسلل العدو ..
استولى الغرب والشرق على وجдан المسلمين ، وشجع مفكرو الغرب
المسلمين على تمجيد آثار الماضي العظيم .. على شريطة أن يكون الرجوع
إلى الماضي ، سداً لطريق مناقشة الحاضر ومشكلاته ، أو مناقشه على

أساس أن يقف المسلمون في مقاعد التلاميذ ، ويجلس الغرب في مقعد الأستاذ ..

ولقد أدى غياب الروح الإسلامية إلى وقوع المسلمين تحت سيطرة الروح الغربي أو الشرقي ، وعرضت على المسلمين في مجال السياسة والاقتصاد والأدب والفنون حلول أبسط ما قال فيها ، أنها تشتت انتباه المسلمين عن أم مشكلاتهم ، وهي مشكلة حضارتهم .. وحتى يربطوا اهتمامهم بمشكلات وهمية ، ويلهوهم بحلول وهمية ..

وامتلأت الشخصية الإسلامية بالقدرة على تلقى الخرافات تحت ستار أحياء الماضي ، وتحولت ليالي المسلمين التعسة الخاوية التي تفتقر إلى هدف .. تحولت بقدرة قادر إلى ليالي ألف ليلة وليلة .. وتصور الجالسون على الحصير الممزق ، وسط بخور التكايا أنهم يجلسون في عصر هارون الرشيد ، على حرير بطائنه من استبرق ، وقد خرجت جيوش الخليفة تفتح الأمصار والأقطار ..

وأضيف المجد القديم إلى الفقر المعاصر ، وتشابكت الانتصارات القديمة مع البؤس الحاضر ، وتدخلت أمجاد علماء المسلمين القدماء مع التخلف العام الواقع اليوم .. وبدأت أحلام اليقظة والتمزق النفسي والضياع .. وساعد على ذلك اغلاق باب الاجتهاد وجمود رجال الدين .. ولقد تحدث الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر إلى المفكر الإسلامي محمد أسد عن وضع علماء المسلمين في العالم الإسلامي بوجه عام .

قال شيخ الأزهر : هل ترى إلى أولئك العلماء هناك ، إنهم مثل تلك البقرات المقدسة في الهند ، التي تلتهم - كما قيل لي - كل ما تستطيع العثور عليه في الشوارع من أوراق مطبوعة ، أجل ، إنهم يزدردون كل الصفحات المطبوعة من الكتب التي كتبت منذ قرون عديدة ، ولكنهم لا يهضمونها ، إنهم لم يعودوا يفكرون لأنفسهم . إنهم يقرأون ويرددون .. والتلاميذ الذين يصغون إليهم لا يتعلمون إلا أن يقرأوا ويرددوا .. جيلاً بعد جيل ..

وقاطع المفكر الإسلامي محمد أسد محدثه قائلاً : ولكن الأزهر ياشيخ مصطفى على كل حال هو مركز العلوم الإسلامية وأقدم جامعة في العالم ، إن المرء لنقع عينه على اسمه في كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي

الثقافي ، وما قوله فى المفكرين ورجال الدين والمؤرخين وال فلاسفة والرياضيين العظام الذين أخرجهم الأزهر خلال القرون العشرة الأخيرة .. وأجاب الشيخ مصطفى المراغى بمرارة : « لقد انقطع عن إخراجهم منذ عدة قرون ، ربما كان فى هذا بعض المبالغة ، لأن الأزهر لم يعد ظهور مفكرين أفاداً بين الحين والحين حتى في الأزمنة الحديثة ، ولكن الأزهر بصورة عامة ، جزء من العالم الإسلامي ، وقد أصيب العالم الإسلامي بالعمق فأصيب الأزهر تبعاً لذلك ، ومثلاً انطفأت جذوة العالم الإسلامي انطفأت جذوة الأزهر .. وإن أولئك المفكرين المسلمين القدماء لم يحلموا فقط بأن أفكارهم بعد هذه القرون العديدة ، بدلاً من أن تستمر عن طريق النمو والتطور ، يقدر لها أن تعاد وتُعاد .. كأنما هي حقائق نهائية غير قابلة للخطأ .. ولو أردنا أن نبدل حالنا بأحسن منها ، فإن علينا أن نشجع التفكير الحر ، بدلاً من تقليد ما سبق من الأفكار » ..

ان الجمود لا يؤدى إلى شيء .. اللهم إلا المزيد من السكون المشلول الجامد .. وليس الحياة غير حركة مستمرة .. ونمو دائم .. فإذا وقف المسلمون في أماكنهم سباقهم أمم لا تحمل ما يحملونه من نصاعة التوحيد .. ويولد ملايين الأطفال في الأرض كل عام .. يكبرون ويصيرون شباباً ، وينظر هذا الشباب إلى الموقف العام في الأرض فيرون المسلمين الموحدين يعيشون في مأساة من التخلف والجهل ، ويرون دولاً لا يؤمن أفرادها بالله ، وشعوبًا تبعد أنظمتها أو تبعد التقدم المادي ، يرون هذه الدول والشعوب تتتصدر دول العالم ، ويرون فيها مشاعل المدنية وأنوار الحضارة ، ويسمعون من علماء هذه الدول المتقدمة أن سر سقوط المسلمين عائد قبل كل شيء إلى الإسلام .. وأنه دين كان صالحًا لزمانه ثم ولّ زمانه ودخل متحف التاريخ ..

يسمعون هذه القولة الظالمة ، ولا يعرفون أن سر إنحطاط المسلمين وتخلفهم يعود بالدرجة الأولى إلى ابتعادهم عن روح الإسلام ومنابعه ، أي عار ينال الموحدين والمسلمين حين يصيرون رموزاً للجهل وعنواناً على التخلف .. إن الله تبارك وتعالى يغضبه كثيراً أن نسى هذه الإساءة لعقيدة التوحيد ..

هذه هي مأساة المسلمين الأولى اليوم ..

وهي مأساة استولت على اهتمام كثير من علماء المسلمين ومن بينهم علماء من الأزهر . ولقد رأينا كيف تناول العالم المجدد محمد بن عبد الوهاب قضية التوحيد ومشكلة الشرك كرجل من رجال الدين ، وقام منهجه في تناولها على سرد التفاصيل والجزئيات وكان نزوعه واضحًا في تجزئة المشكلة إلى ذرات يتناولها ذرة بعد ذرة .

وسنرى كيف يتناول مالك بن نبي القضية كفيلسوف اجتماعي ومتذكر إسلامي ، لقد نظر مالك بن نبي إلى قضية التوحيد وارتباطها بالحياة كمأساة حضارية .

تقوم فكرة مالك بن نبي على تقسيم تاريخ المجتمع الإسلامي إلى ثلاثة مراحل :

الأولى : مرحلة التوحيد الأولى في حيويتها وقوتها الدافعة ونفائها المؤثر . . وهي مرحلة يعتقد أنها انتهت في معركة صفين . .

الثانية : مرحلة التوحيد الثانية ، أو مرحلة المدنية الإسلامية ، وهي مرحلة التفكير والازدهار الحضاري ، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين . .

الثالثة : مرحلة تجمع ما بعد الموحدين . . وتلك مرحلة الجمود والإلتحاط التي لم نزل نأكل من ثمارها المريرة ، ونعيش في رواسبها .

ولقد كانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي بداية مرحلة التوحيد الأولى . . لقد أيقظ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم روح الإنسان ، ولئن كانت معجزة عيسى هي بعث الموتى من قبورهم ، فقد كانت معجزة محمد هي بعث الموتى الأحياء الذين لا يدركون أنهم متوفون . . وهبـت الرياح على المدينة المنورة والمسلمون يقيمون فيها أول دولة يحكمها القرآن ، وكان روح القرآن حيًا في نفوس الرجال ، وصنع المسلمون أول عالم إنساني يتوازن فيه عنصر الروح وعنصر البدن .

وببدأ أول شرخ في هذا العالم في العام الثامن والثلاثين بعد الهجرة في معركة صفين ، وكانت حمية الجاهلية تصرط مع الروح القرآنية . وجاء معاوية فحطـم هذا البناء الذي قام لكي يعيش . . « ومنذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه » ، لم تعد هناك دولة يحكمها القرآن ، صارت الدولة هي التي تحكم القرآن وتستخدمه في أغراضها وتتهم خصومها بالمرور وتهدـر دمـهم ، ورغم ذلك بقى الفرد المسلم متمسكا في قرارـة نفسه

بعقidelته التي نبض بها قلبه المؤمن ، ولقد كان إنكسار على بكل ما يمثله من
نقاء وحق ، أمام معاوية بكل ما يمثله من دهاء ودنية ، كان هذا في عمقه
البعيد سرا من أسرار الحياة . . فنحن ندين لهذه الحضارة المنحرفة التي
أزدهرت في دمشق في ظل الأمويين باكتشاف النظام المثوى ، وتطبيق
المنهج التجاري في الطب ، واستخدام فكرة الزمن الرياضية ، وهذه هي
المعالم الأولى لل الفكر الصناعي . . كما أنها ندين لهذه الحضارة المنحرفة
بانشار الإسلام ، ولقد كانت هذه الحضارة صورة مشوهة من البناء الأصلي
الذى شاده القرآن ، على أساس من التوازن بين العقل والروح . . والحق أن
العالم الإسلامي لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمنة الأولى من تاريخه
وبعدها ، إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعـة قرآنية قوية . . والمعروف أن
البناء الاجتماعي لا يقوم على الفن والعلم والعقل فحسب ، وإنما يحتاج قبل
هذا كله إلى الروح ، لأن الروح ، والروح وحدها ، هي التي تتيح للإنسانية
أن تنهض وتتقدم ، فإذا ضاعت الروح سقطت الحضارة وإنحطت ، مثلاً
يهوى من فقد القدرة على الصعود ويستسلم لجاذبية الأرض .

وعندما تكف الرياح التي منحت مجتمعاً ما . . عن الهبوب . . عندما
تكتف الرياح التي منحته الدفعـة الأولى عن تحريكـه ، تكون نهاية دورة ،
وهجرة حضارة . . تصير هذه الأرض الإسلامية بقعة مهجورة . . وفي البقعة
المهجورة يفقد العلم كل معناه ، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع
العقل . . وحين يفقد الإنسان قوة إيمانه وهمته وتوحيده . . يفقد تعطشه إلى
الفهم وإرادته للعمل . . إن العقل المسلم يتراجع لأن آثاره تتبدد وسط جو
متخلف لا يستطيع أن يفهمها أو يستخدمها ، ومن هذا الوجه جاءت أفكار
ابن خلدون إما مبكرة عن أوانها أو متأخرة عن زمانها ، فلم تستطع أن تنطبع
في العبرية الإسلامية التي فقدت مرونتها الخاصة ومقدرتها على التقدم
والتجدد . حتى إذا وهنت الدفعـة القرآنية الأولى توقف العالم الإسلامي كما
يتوقف المحرك عندما ينفد وقوده . .

ومن المستحيل لأى معرض زمنى . . أن يقوم خلال التاريخ مقام
المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية . . ألا وهو الإيمان بالتوحيد . .
يعتقد مالك بن نبى أن العالم الإسلامي لا يعيش اليوم فى النصف الثانى
من القرن العشرين . . إنما يعيش فى عام ١٣٦٩ ميلادية .

وهو يؤكد هذا التاريخ كلحظة إنقلاب للقيم داخل حضارة معينة .
إن التاريخ الذي يشير إليه المفكر الإسلامي هو ما يؤرخ له في التاريخ
الإسلامي بسقوط دولة الموحدين . . و هو يسمى الإنسان المسلم بعد هذا
العصر بإنسان ما بعد الموحدين .

هذا الإنسان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي أدت لميلاد معظم
المشكلات التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين . .
ومن المدهش أن مسلم ما بعد الموحدين لم يتخل مطلقاً عن عقيدته ،
فقد ظل مؤمناً ، أو بعبارة أدق ظل مؤمناً متديناً ، ولكن عقيدته تجردت من
فاعليتها ، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فصارت جذبة فردية ، وصار
الإيمان إيمان فرد متخل من صلاته بوسطه الاجتماعي ، وليس المشكلة
أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكتها ، إنما المهم أن نرد لهذه العقيدة فاعليتها
وقوتها الإيجابية ، وتأثيرها الاجتماعي . .

في كلمة واحدة ، ليست مشكلتنا أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر
ما هي أن نشعره بوجوده ، ونملأ به نفسه كمصدر للطاقة ، وتغيير النفس
معناه تمكينها من تجاوز وضعها ، وليس هذا من شأن علم الكلام ، بل هو
شأن منهاج التصوف . . أو بعبارة أدق . . هو من شأن علم لم يوضع له اسم
بعد ، ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله . لأن التصوف الذي قاد إلى
دروشة المرابطين وشعوبهم لا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضروري
للإصلاح ، عندما نحث جهودنا نحو النهضة . .

إن نظرة على العالم الإسلامي اليوم بملايئته العديدة تكشف لنا عن
العجز عن التفكير وعن العمل ، أو إنفصال الفكرة عن العمل ، فاما فكرة
لا تتحقق ، وأما عمل لا يتصل بجهد فكري . وليس العلم الذي اقتبسه
المسلمون من جامعات الغرب وسيلة للإسعاد ، إنما صار طريقاً إلى
المظهرية ، وأقرب دليل على إنعدام فاعلية العالم الإسلامي أننا لم نر فيها
حتى الآن . . في قرتنا الحالى . . وجهاً من تلك الوجوه الخالدة يبرز في
مجال المعرفة الإنسانية . .

إن الذكاء يتبع حال النفس دائماً . . فإذا فقدت النفس صفاءها فقد الذكاء
عمقه ، وحركات الإصلاح لم تؤت النفس المسلمة هزة القلب ، ولم ترتفع بها

فوق ركود ما بعد عصر الموحدين . . وصحيح أن هناك حركة أو نهضة ترعش أطراف العالم الإسلامي كله . .

ولكن مأساة هذه الحركة أنها شاعت أن تتحرر من السكون وهي ساكنة . . وهذه هي مأساة الفكر في نضاله ضد البلادة والقلق . .

لم تزل مأساتنا تشبه مأساة الرجل الذي استيقظ ولم يعرف بعد واجبه . . إن الفرق هائل بين الحقيقة من حيث كونها مفهوماً نظرياً يتسم به الإدراك المجرد . . وبينها كحقيقة فاعلة مؤثرة تلهم الإنسان مختلف نشاطاته . .

يلاحظ مالك بن نبي أن العالم الإسلامي حين استعمر ، لم يحدث له ذلك إلا لقابليته للاستعمار . . لأن الاستعمار يمارس عمله وتأثيره كحقيقة حين يكف نشاط المجتمع كفاً فعلياً .

وإذا كان نجد اليوم شيئاً يدوى في جوانب النفس الإسلامية ، فيردها قادرة على تغيير ذاتها ، والتخلي عن جمودها ، فلن يكون هذا الشيء سوى الإسلام . .

(إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)^(١) .

إن المجتمع الإسلامي الأول لم يؤسس على عاطفة مجردة ، أو شعور حلو بالرغبة في التغيير ، بل قام على أساس جوهري هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . . وهي مؤاخاة أُسست على القرآن . . وكانت الآية القرآنية تستخدم هنا كوسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي . .

كانت الآية القرآنية هي المعلم المباشر للإنسان . . وكانت تمس ضميراً وحياته وجوانب فكره ومناحي سلوكه مباشرة . .

يتحدث مالك بن نبي في نهاية كتابه « وجهة العالم الإسلامي » عن مدرسة إصلاحية عملية في تصوري . . ويقول أن تعاليم هذه المدرسة كانت تندى بالتضامن الإسلامي القائم على فكرة الأخوة . . وكان زعيم هذه المدرسة لا يستخدم سوى الآية القرآنية ، ولكنه كان يستخدمها في نفس الظروف النفسية التي كان يستخدمها فيه النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الرعد آية ١١ .

وصاحبته من بعده ، ويرى مالك بن نبى أن السر كله يكمن فى هذا التصرف ..

أن تستخدم الآية القرآنية كأنها فكرة موجة .. لا فكرة محررة مكتوبة .. وقد أتيح لهذا الزعيم أن يؤثر فى سامعيه تأثيرا عميقا .. ولم يكن يفسر القرآن ، بل كان يوحى إلى الضمائر ليزلزل كيانها .. ولم يكن القرآن على شفتيه وثيقة محاباة ، أو قانونا مكتوبا ، بل كان يتفجر كلما حيا ، وضوءا أخذوا ينزل من السماء ، فيضىء ويهدى ، ومنبعا للطاقة يكهرب إرادة الجموع ..

ولم يكن الرجل يتحدث عن ذات الله ، كما صورها علم الكلام .. لم يكن يتحدث عن الله العقلى .. بل كان يتحدث عن الله المتجلى على عباده بالرحمة والقهر ، الفعال لما يريد ، تماما كما كان المسلمون الأولون يستشعرون حضوره فيما بينهم ، ونفتحه المادية فى بدر وحنين ..

يرى مالك بن نبى أن مأساة المسلمين اليوم يمكن أن تحل أو تحولت الحقيقة القرآنية إلى أثر مباشر على الضمير .. وهنا تفسح الفكرة المجردة مكانها لتشغله قيمة مادية محققة .. يعني تركيبا ناشطا لل الفكر والعمل .. وهذا الأمران اللذان يقوم عليهما كل تطور فى مجتمع يفكر فى عمله ، ويعمل بفكرة ..

هذه فكرة مالك بن نبى فى إنقاذ المسلمين من مأساتهم ، ان الأمل الوحيد أن تعود الآيات القرآنية إلى دورها كمعلم للإنسان . إن هذه الفكرة التى يضعها المفكر الإسلامى فى قالب حديث من التحليل ..

هذه الفكرة قديمة تدين بوجودها لأحد خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإصلاح فقال :
* ان تقرأ القرآن كأنه انزل عليك أنت ..

الشرك بالله

حق الله على عباده هو التوحيد ..

ونقيض التوحيد هو الشرك بالله ، وهذا هو الاعتداء على حق الله ، وهو اعتداء يقف العلماء جمِيعاً ضده ، ويحذر الله منه .

ولقد رأينا كيف دعا محمد بن عبد الوهاب إلى توحيد الله بالابانة عن جزئيات الشرك وتفاصيله ، ورأينا كيف وضح مالك بن نبي أن التوحيد حين يصبح فكرة ذهنية تحتل عقل إنسان ما ، ولا تجد لها أثراً خارجياً في الحياة أو المجتمع ، عندئذ يجوز أن نسمى هذا الإنسان بـإنسان ما بعد الموحدين ، إشارة إلى ابتعاده عن حقيقة التوحيد .. وسنرى كيف يتناول محمد الغزالى المشكلة على أرض الواقع ، فهو مفكر إسلامي وداعية إلى الله ، وهو يلمس عملياً مدى انغماس المسلمين في الخرافات التي تحمل معنى الشرك ..

يقول الأستاذ محمد الغزالى في كتابه عقيدة المسلم ..

«إذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله ، ويحاف العبد أكثر مما يحاف رب ، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس ، ويصدر عمله ابتعاداً رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة .. فإذا نزلت به نكبة كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله ، وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله» ..

فإعلم أن هذا الشخص قد أشرك .

ولئن كان بعض العلماء يقول : إن الشرك في العمل غير الشرك في الاعتقاد .. وإن هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر .

والحقيقة ان المسألة أصعب مما يتصورون وما يصورون للعامة »

١٥

.....

نريد أن نتوقف هنا لنسأل :

هل هناك شرك أكبر وشرك أصغر ؟

هذه مقوله بعض العلماء ، وهى مقوله مرفوضه من وجهه النظر
الإسلامية . لأن الفصل بين الاعتقاد والعمل شيء لا يعرفه الإسلام ..
الأصل فى العقيدة الإسلامية أن يؤدى الاعتقاد إلى عمل ، أو يسفر
الاعتقاد عن عمل ، فإذا كان الاعتقاد شيئاً ، وكان العمل شيئاً آخر ، فنحن
أمام إنسان ما بعد الموحدين . نحن أمام توحيد ناقص .. ساكن .. لا قيمة
له ولا معنى ولا أثر ..

ان القول بأن الشرك في العمل هو الشرك الأصغر .. أما الشرك في
الاعتقاد فهو الشرك الأكبر ، إن القول بهذا يؤدى إلى نتائج خطيرة .. لأنه
يعنى الفصل بين الاعتقاد والعمل ، و يجعل الاعتقاد أهم من العمل ، ويتصور
أن العمل أقل درجة من الاعتقاد . وهذا كله لا أصل له في الإسلام ..
إن الله تبارك وتعالى يحاسب على النوايا حين ينظر إلى الأعمال ،
فلا يقبل عملاً لم يكن هدفه هو الله حتى لو وقع العمل .. فكيف يتصور
الناس أن يثبت الله على أعمال لم تقع ، لأن النوايا المصاحبة لها كانت
طيبة ..

إن الأمر هنا يكاد يبلغ حد الهزل ..

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل
إمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهو هجرة إلى الله
ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيغها أو إمرأة ينكحها فهو هجرة إلى
ما هاجر إليه » ..

إن الحديث الشريف يريد أن يقول أن إدعاء الهجرة إلى الله ، وإخفاء
أغراض النفس تحتها لا تحسب هجرة إلى الله رغم وقوعها .. كيف يتصور
أن يرتكب العامة كل ما يرتكبون من آثام عملية ، ويحتاجون بأن نيتهم لم
تكن تنصرف إلى الشرك .

يقول الاستاذ محمد الغزالى في فصل عن توحيد العامة في كتابه :

« ينبغي لهذه الأمة أن تكون مثلاً عالياً في إسلام الوجه لله وإنفراده بالنسبة والعمل ، ونحن نلحظ - آسفين - أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين ، لها دلالتها الخطيرة على فساد التفكير وضلال الاتجاه واضطراـب المقصـد . ولا نحب أن نوارب في الكشف عن هذه العلة ، فإنـ أي خلل في دعائم التوحيد معناهـ الخـيل الذي يدركـ موطنـ الـقيـادةـ الفـكريـةـ فيـ هـذـاـ الـديـنـ الحـنـيفـ . . إـذـ التـوـحـيدـ فـيـ الإـسـلـامـ حـقـيقـةـ وـعـنـوانـ ، وـسـاحـةـ وـأـرـكـانـ ، وـبـاعـثـ وـهـدـفـ ، وـمـبـدـأـ وـنـهاـيـةـ . ولـسـنـاـ . كـذـلـكـ - مـنـ يـحـبـ تـصـيدـ التـهمـ لـلـنـاسـ ، وـرـمـيـهـ بـالـشـرـكـ جـزـافـاـ ، وـاستـبـاحـةـ حـقـوقـهـ ظـلـمـاـ وـعـدـواـناـ . ولـكـنـاـ أـمـامـ تـصـرـفـاتـ تـوجـبـ عـلـيـنـاـ النـظـرـ الطـوـيـلـ وـالـنـصـحـ الـخـالـصـ وـالـمـصـارـحـ بـتـعـالـيمـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ .

لقد اهتمت حـكـومـةـ انـجـلـتراـ - فـىـ سـبـيلـ مـكافـحةـ الشـيـوعـيـةـ - بـالـحـالـةـ الـدـينـيـةـ فـىـ مـصـرـ ! فـكـانـ مـاـ طـمـانـهـ عـلـىـ اـيـمـانـ الـمـصـرـيـيـنـ (! !) أـنـ ثـلـاثـةـ مـلـاـيـنـ مـسـلـمـ زـارـواـ ضـرـيـعـ أـحـمـدـ الـبـدـوـيـ بـطـنـطـاـ هـذـاـ الـعـامـ ، وـالـذـيـنـ زـارـواـ الضـرـيـعـ لـيـسـواـ مـجـهـولـيـنـ لـدـىـ ، فـطـالـمـاـ أـوـفـدـتـ رـسـمـيـاـ لـوـعـظـهـمـ ، فـكـنـتـ أـشـهـدـ مـنـ أـعـمالـهـ مـاـ يـسـتـدـعـيـ الـجـلـدـ بـالـسـيـاطـ ، لـاـ مـاـ يـسـتـدـعـيـ الزـجـرـ بـالـكـلـامـ . . وـكـثـرـتـهـمـ السـاحـقـةـ لـاـ تـعـرـفـ عـنـ فـضـائلـ الـإـسـلـامـ وـأـنـظـمـتـهـ وـأـدـابـهـ شـيـئـاـ .

وـحـسـبـكـ مـنـ مـعـرـفـةـ حـالـهـ : اـنـهـ جـاءـواـ الضـرـيـعـ المـذـكـورـ لـلـوـفـاءـ بـالـنـذـورـ وـالـابـتـهـالـ بـالـدـعـاءـ . . وـلـمـنـ النـذـورـ ؟ . وـلـمـنـ الدـعـاءـ ؟ . إـنـهـ أـوـلـ الـأـمـرـ لـلـسـيـدـ الـبـدـوـيـ . . فـإـذـاـ جـادـلـتـ الـقـوـمـ قـالـوـاـ : أـنـهـ اللـهـ عـنـ طـرـيـقـ السـيـدـ الـبـدـوـيـ . . وـأـكـثـرـ هـؤـلـاءـ الـمـغـفـلـيـنـ لـغـطاـ يـقـولـ لـكـ : نـحـنـ نـعـرـفـ اللـهـ جـيـداـ . وـنـعـرـفـ أـنـ أـلـيـاءـهـ عـبـيـدـهـ ، وـإـنـمـاـ نـتـقـرـبـ بـهـمـ إـلـيـهـ ، فـهـمـ أـطـهـرـ مـاـ نـفـسـاـ وـأـعـلـىـ درـجـةـ . .

وـهـذـاـ الـكـلـامـ غـلـطـ فـيـ الـإـسـلـامـ . .

انـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ لـمـ يـطـلـبـ مـنـاـ أـنـ نـجـيـءـ مـعـنـاـ بـالـآخـرـيـنـ لـيـحـمـلـوـاـ عـنـاـ حـسـنـاتـنـاـ ، أـوـ لـيـسـتـغـفـرـوـاـ لـنـاـ زـلـاتـنـاـ . . فـالـمـعـرـفـةـ مـنـ بـدـيـهـيـاتـ الـإـسـلـامـ الـأـوـلـىـ ، أـنـ الـطـلـبـ وـوـسـيـلـتـهـ جـمـيـعـاـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـاـ مـنـ اللـهـ ، وـلـيـسـ يـغـنـىـ فـيـ الدـفـاعـ عـنـ أـوـلـئـكـ الـجـهـلـةـ مـنـ الـعـوـمـ أـنـهـمـ يـعـرـفـونـ اللـهـ ، وـيـعـرـفـونـ أـنـهـ وـحـدهـ مـجـيـبـ كـلـ سـؤـالـ ، وـبـاعـثـ كـلـ فـضـلـ ، وـأـنـ مـنـ دـونـهـ لـاـ يـمـلـكـونـ مـنـ ذـلـكـ شـيـئـاـ ، فـإـنـ هـذـهـ الـمـعـرـفـةـ لـاـ تـصـلـحـ وـلـاـ تـقـبـلـ إـلـاـ إـذـاـ صـحـبـهـ إـفـرـادـ اللـهـ بـالـدـعـاءـ وـالـتـوـجـهـ وـالـاخـلـاصـ ، فـإـنـ الـمـشـرـكـيـنـ الـقـدـماءـ كـانـوـاـ يـعـرـفـونـ اللـهـ ذـلـكـ .

(قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر
فسيقولون الله)^(١) .

ومع أنهم يقولون الله بصراحة وجلاء ، فلم يحسبوا بهذا القول
مؤمنين ، لأن الإيمان - إذا عرفت الله حقا - ألا تعرف غيره فيما هو من
شئونه .

ولذلك يستطرد القرآن في مخاطبة هؤلاء .

(فقل أفلأنتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال
فأنى تصرفون)^(٢) .

أن العامة عندما يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس ،
وعندما يهربون بالذور وال حاجات والأدعية إلى من يظلونهم أبواباً لله ، إنما
يرتكبون في حق الإسلام ماثم شنيعة ، ومهما قلبنا عليهم هذا من جميع
وجوهه فلن نجد فيه ما يطمئن إليه ضمير المؤمن أبداً ، ومحبة الصالحين
وبغض الفاسدين من شعائر الإسلام حقاً ، ومظاهر الحب والبغض معروفة ،
هي مصادقة للأحياء أو منافرة ، واستغفار للموتى أو لعنة ، وأين من عواطف
الحب والبغض هذا الذي يصطنعه المسلمون اليوم ؟ أن الواحد منهم قد
يصادق أفسق الناس ، وقد يقطع والديه وهما أحياء ، ثم تراه مشمراً مجدًا في
الذهب إلى قبر من قبور الصالحين ، لا ليدعوه له ، ويطلب من الله أن يرحم
ساكن هذا القبر ، بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا والآخرة ما هو
مضطر إليه ، وذلك ضلال مبين .

وببناء المعابد على قبور الصالحين تقليد قديم ، وقد ذكر القرآن ما يدل
على شيوخه في الأمم السابقة ، ويظهر أن اتخاذ المساجد على القبور لم يكن
محظوراً أول أمره كتحت التماشيل إذ لم تكن له دلالة مثيرة ، غير أن البشر
سفهوا أنفسهم ، فالأحجار التي تحتوا للعظماء عبدوها ، أو على حد تعبيرهم
أتخذوها إلى الله زلفى ، والمعابد التي أقاموها على قبور الصالحين قدسواها
وسلكوها مسلك الأصنام في الشرك ، فلما جاء الإسلام أعلن على هذين

(١) سورة يونس الآية ٣١ .

(٢) سورة يونس من الآية ٣١ والآية ٣٢ .

المظہرین من مظاہر الوثنیة حریا شعواء ، وشدد تشدیدا ظاهرا فی محق
هذا المساخر .

وقد أمر النبی صلی اللہ علیہ وسلم علی بن ابی طالب أن یسوی
بالأرض کل قبر وأن یهدم کل صنم ، فجعل الأضرحة العالية والأصنام
المنصوبة سواء فی الضلالة ، وقال النبی صلی اللہ علیہ وسلم فی البيان عن
سفاهة القدماء وفي التحذیر من متابعتهم « لعن اللہ الیہود والنصاری ، إتخدوا
قبور أنبیائهم مساجد . ألا لا تتخذوا القبور مساجد . انی أنهاکم عن هذا » .
وكان یرفع الغطاء عن وجهه فی مرض الموت ويکرر هذا المعنی . وكأنه
توجس شرا مما یقع بعده فدعا اللہ « اللہم لا تجعل قبیری من بعدی وثنا
یعبد » ومع کثرة الدلائل التي إنتصبت فی الإسلام دون الوقوع فی هذا
المحظور ، فقد أقبل المسلمون علی بناء المساجد فوق قبور الصالحين ،
وتنافسوا فی تشیید الأضرحة حتى أصبحت تبني علی أسماء لا مسميات
لها ، بل قد بنيت علی ألواح الخشب وجثث الحیوانات . ومع ذلك فھی
مزارات مشهورة معمرة ، تقصد لتفریج الكرب ، وشفاء المرضى ، وتهوین
الصعب .

وأحب ألا أثير فتنۃ عمياء بهدم هذه الأضرحة .

فإن النبی صلی اللہ علیہ وسلم امتنع عن هدم الكعبۃ واعادة بنائیها علی
قواعد ابراهیم ، لأن العرب كانوا حديثی عهد بشرك .

وجامهیر العامة الآن ينبغي أن تساق سوقا رفیقا إلى حقائق الإسلام حتى
تنصرف - في هدوء - عن التوجه إلى هذه الأضرحة ، وشد الرحال إلى
ما بها من جثث » أ . ه .

.....

هذا رأى عالم فی الدين وداعیة إلى اللہ . .

وهو رأى یثیر علیه غضب العامة ، ولكنه رجل لا یعبأ إلا برضاء اللہ
عز وجل . . والحق أن الغزالی یصیب الهدف بدعوته ، ویشير لحقيقة الداء
بتشخيصه ، فإن المجتمعات الشرقية تعيش أسلوبا مدهشا في حياتها ،
ويرجع سر تأخرها لهذا الأسلوب ، لا تعرف هذه المجتمعات قانون البقاء
للأصلاح ، ولا تتقدم في هذه المجتمعات أفضل الأنواع فيها ، إنما يمضى فيها
كل شيء بالوساطة والمعرفة الشخصية ، وهي وساطة تجد لها نصيرا في

العرف العام ، وهو عرف مدنى يستمد وجوده من العرف الدينى القائل بوساطة الموتى والأولياء . . ومن الغريب أن العقيدة الإسلامية لم تعط النبي صلى الله عليه وسلم حق التوسط بين الناس والله ، وإنما جعلته رسولا من الله ، وداعيا إليه ، ومبشرا ومنذرا ، فهو خلافا لعقائد النصارى لا يحمل عن أحد خططيائاه ، وهو خلافا لعقائد اليهود لا يجعل أمته شعب الله المختار ، وهو لا يغنى عن أحد حتى أبناءه فى قوانين الله ، سواء كانت هذه القوانين تتصل بسلوك الناس على الأرض ، أو تتصل بالعالم الآخر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » . إذا كان هذا موقفه فى حد من حدود الله على الأرض .

فكيف يكون موقفه - صلى الله عليه وسلم - من المتسللين بالموتى ، أو المعتصدين فى كراماتهم ؟
إن الإسلام يأمر أتباعه أن يسألوا الله مباشرة . .
بلا وساطة من نبي أو ولى . .
والعقيدة الإسلامية واضحة أشد الوضوح فى التوحيد . .
إنها تأمر أن تكون العبادة لله وحده ، وأن تكون الاستعانة بالله وحده . .
قال تعالى : (أياك نعبد وإياك نستعين)^(١) .

ورغم وضوح العقيدة الإسلامية التام فى مجال التوحيد ، فقد تعلق العامة بكثير من الشبهات ، وهى شبكات مصدرها الجهل بدين الله ، أو التعلق بالخرافة . . وقد سبقت إلى الشيخ محمد الغزالى حجج القائلين بالوسيلة ، ورد عليها جمیعا . .

قيل له أن جمهور الناس عصاة والله إنما يتقبل من المتقين . وأن الإنسان لو ذهب إلى ربه وهو يحمل السيئات لم يجبه الله ، فلماذا لا يبحث الإنسان عن وساطة مقبولة كولى صالح ، قيل له أنه لا يجوز القول بأن هذا شرك ، لأن النية هي أساس الحكم على الأفعال ، والمتسللون لم ينعوا شركا أو يرضوا به . . قيل له أن الصحابة والفقهاء والأئمة كانوا يتولون إلى الله بالأنبياء والأولياء ، وقد توصل عمر بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) سورة الفاتحة آية ٥ .

ثم ان هناك آية قرآنية تفيد أن بركة الأموات تصل إلى الأحياء . . (وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشددهما ويستخرجا كنزهما)^(١) .

هذه هي جملة الشبه التي تعلق بها طائفة من الناس وقد إنبعثت عليها مسالك طائشة عكرت رونق التوحيد الخالص . . وقد غالب الغزالى السامة التي تعترى به كلما خاض في هذا الحديث أو سطر فيه حرفًا ، فإن الجدل فيه طال مع وضوح الحق ، ولم يبق إلا أن يحمل الناس عليه حملًا . .

بعد ذلك أوضح الغزالى حقيقة هذه الشبهات . .

قال : أن لجوء العاصي إلى الله مع واسطة . . كلام لا أصل له في الإسلام فقط . .

إن إبليس دعا ربها مباشرة وأجيب . .

(قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون)^(٢) .

والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا .

(دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجينا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق)^(٣) .

فهل يحرم عصاة المسلمين من حق أخذ إبليس وجنته ؟

إن أي مسلم يقع في خطأ فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل ، من غير توسط نبي ولا ولی ولا إنسان ولا شيطان .

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله)^(٤) .

ثم أن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره ، ولو كان الداعي سيد الأنبياء .

ألا ترى كيف رفض إستغفار الرسول لعبد الله ابن أبي .

أما القول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له ، فغير صحيح ، إذ العمل المقبول ديننا يجب أن تتواافق فيه النية الصالحة والصورة المشروعة . . وقد ان العمل لأحد هذين الركنين يبطله .

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سورة العجر آية ٣٦ .

(٣) سورة يونس من الآية ٢٢ : ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران من الآية ١٣٥ .

فالعلم الذى يتفق ظاهره مع الشرع ، لا يقبل إذا كان صاحبه مراءيا
أو منافقا . .

والنية الصالحة إذا إنحرفت عن الطريق الذى يرسمه الدين ، فلا قيمة
لها ولا يلتفت إليها ، ولماذا نستحب من وصف المتوضلين بالقبور . .
بالشرك . . مع أن الرسول وصف المراثين به فقال : « الرياء شرك » . .
أما القول بأن الصحابة كانوا يتولون إلى الله بأشخاص الأحياء
أو الأموات فليس صحيحا ، وما يروى من شعر منسوب إلى الإمام الشافعى
فمنحول ولا أصل له . . ودعاء الإنسان ل نفسه ول غيره مطلوب ، وقد أمرنا
النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بعضنا بعضاً بظاهر الغيب ، وفي حدود
تلك الدائرة من استعطاف العبيد لله ، وتوصيهم باستر哈مه ، طلب عمر من
العباس أن يدعوا الله للمسلمين ، فدعا العباس قائلا : « اللهم لم ينزل بلاء
إلا بذنب ، ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك لمكانى من نبيك ،
وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة . . فإسقنا الغيث » . .
بقيت الآية الكريمة التى تقول : (وأما الجدار فكان لغلامين يتنميان
في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فآزاد ربك أن يبلغوا
أشدهما ويستخرجا كنزهما)^(١) .

إن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد أثره إلى الذرية ، كما أن فسادهم ينتقل
خطره إليها . .

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا
الله)^(٢) .

إن معنى الآيتين أن الله يثيب على التقوى ، ويجزى على العصيان ، وقد
أكرم الله الغلامين اليتيمين لأن الأب كان صالحا ، وتم هذا الإكرام دون أن
يتوصل به أحد ، إنما اقتضته حكمة الله دون تدخل بشرى . .
وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر ، وكان لنوح ابن عنيد الضلال . .
وليس صلاح الأبوة بمثابة قانون يعني صلاح الأبناء . . والله تعالى يقول في
ذرية نوح وإبراهيم (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)^(٣) .

(١) سورة الكهف آية ٨٢ .

(٢) سورة النساء آية ٩ .

(٣) سورة الصافات آية ١١٣ .

يحتاج القائلون بالتوسل بقوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاعوك)^(١) .

وليس في الآية تصريح ولا تلميح بجواز التوسل . . ينصرف معنى الآية لحياة الرسول ، أما شطحات الصوفية وأحلامهم فليست حجة على أحد . . ومصادر التشريع معروفة ، وليس فيها أن فلانا الصالح رأى في منامه كذا وكذا ، فنحن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لهذه الحكايات . . سيقول بعض الناس : أن القدماء كانوا يعبدون ، أما العامة اليوم فهم يدعون ويسألون فقط ، وشتان بين عبادة الجاهلية وتوسل المحدثين بأولياء الله . .

ويرى الاستاذ الغزالى أن هذه مغالطة ، لأن السؤال والدعاء ينص القرآن والسنة عبادة محضة (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم أن الذين يستكرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)^(٢) .

وفي الحديث « الدعاء من العبادة » . .

فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية . .

وقد حرم الله الشرك على العرب فهو على غيرهم حرام ، والقول بأن آيات الشرك نزلت في أهل الجاهلية وحدهم خطأ . .
إن الآيات تنزل فتنطبق حين تتكامل شروط انطباقها . .

• • • • •

• • • • •

ما هي حقيقة الإيمان بالله تعالى ؟ . .

هل هو معرفة فقط ؟ . أو تركيب يتضمن المعرفة والعمل ؟

هل يزيد الإيمان وينقص ، أو يظل ثابتا فلا يتأثر ؟

ما هو حكم مرتكب الكبيرة ؟ هل يكفر بارتكابها أم يظل على إيمانه ؟ أم

بعد فاسقا ؟

ما هو الشرك الخفي ؟

هذه أسئلة تواجه العقيدة الإسلامية . .

(١) سورة النساء آية ٦٤ .

(٢) سورة غافر آية ٦٠ .

ذلك أن أي دين لا بد أن يواجه منذ لحظته الأولى مهمة التعريف باتباعه المؤمنين . . والتعريف بالخصائص التي تميزهم من غيرهم . . موقف العقيدة الإسلامية واضح كل الوضوح في هذه المسألة . . في القرآن الكريم آيات وردت في ٧٥ موضعًا تؤكد أن الإيمان ليس معرفة فقط ، إنما هو تركيب يتضمن المعرفة والعمل . . مثال ذلك قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا ثلثت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما زفناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً)^(١) .

ولو تأملنا الآيات الكريمة ، فسوف نلاحظ أنها تحدد المؤمن بثلاث علامات :

- ١ - مجرد ذكر الله يملأ قلبه بالمهابة والوجل . . والوجل هو الإحساس الناتج من التحير والإكبار والدهشة التي يحسها العقل أمام الله .
 - ٢ - العلامة الثانية هي إقامة الصلاة .
 - ٣ - العلامة الثالثة هي الإنفاق مما رزقه الله . .
- أي أن الإيمان أمر يتصل بالتفكير . . والمشاعر . . والعبادة . . والاقتصاد . .

إن الوجل القلبي شعور مصدره العقل . .
والصلاحة رمز للعبادة ، وهي عمل مادي وحركات يركع فيها المرء ويسبح . .

والإنفاق كنایة عن الاقتصاد ، وهو سلوك . .
هذا هو الإيمان كما يحدثنا عنه القرآن الكريم . .
هو اعتقاد عقلي يؤثر في أحاسيس القلب ، وهو عمل تقوم به الجوارح في العبادات ، وهو سلوك اقتصادي يطبع تصرفات المؤمن . .
أنت ترى أن الإيمان وصف يتركب من عوامل كثيرة ، ولذلك يزيد الإيمان وينقص إذا تعرضت هذه العوامل للزيادة أو النقص . .
أشارت النصوص القرآنية إلى أن الإيمان يزيد وينقص . . وفي ذلك إشارة إلى أنه تركيب يتضمن المعرفة والعمل . . إذا زادت المعرفة زاد

(١) سورة الانفال آية ٢ ، ٣ وجزء من الآية ٤ .

الإيمان ، وإذا زاد العمل زاد الإيمان ، وإذا نقص شيء من هذا أو تلك نقص الإيمان .

أحياناً ترد في القرآن الكريم آيات يوحى ظاهرها بأن الإيمان قول فقط . مثال ذلك قوله تعالى : (فَاثِبُوهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)^(١) وتفسيرنا لهذه الآيات أن الله تبارك وتعالى يحدثنا بما قالوه ، ولا يتعرض لذكر ما فعلوه ولكن الأمر المؤكد أن ما فعلوه كان مطابقاً لما قالوه ، ولذلك استحقوا الجنة . وقد طوى السياق القرآني الفعل وأبرز القول لأن أحدهما يكفي عن الآخر . . وأحياناً يكتفى السياق القرآني بذكر « القول » ويختصر « الفعل » .

قال تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعِي ، قَالَ يَا قَوْمَ اتَّبِعُو الْمَرْسُلِينَ . إِنَّمَا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لَيْسَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرْنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ . أَتَخْذُ مِنْ دُونِهِ أَلَّهُ إِنْ يَرِدْ الرَّحْمَنُ بِضَرٍّ لَا تَغُنِّي عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئاً وَلَا يَنْقُذُونَ . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مَبِينٍ . إِنِّي أَمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ . قُيلَ أَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ)^(٢) .

يحدثنا القرآن الكريم عن كلمة الرجل « إنى آمنت بربكم فاسمعون » . وبعدها مباشرة يحدثنا عن النتيجة « قيل أدخل الجنة » . . غير أن السياق يختصر قصة الرجل كلها . .

لقد قتل هذا الرجل بعد أن وقف بكلمته الشجاعة أمام مجتمعه ومن المؤكد أنهم قتلوه بعد أن عذبوه . . ولعلهم إنهم بمحاولات قلب النظام واحداث فتنة باتباعه المرسلين . .

وهكذا طوى السياق قصته واكتفى بسرد ما قاله وجزاء ما ناله . تجاوز السياق عن القتل والتعذيب « وهما أمران مؤقتان » ونفذ إلى الأمر النهائي الخالد الذي ناله الرجل « وهو رضا الله في الجنة » . هذا هو الإيمان . .

فكرة وعمل . . شعور وتصرف . . إحساس وجهاد . .

(١) سورة المائدة آية ٨٥ .

(٢) سورة ياسين من الآية ٢٠ : ٢٧ .

لا ننكر دور الفكر في الإيمان ، ولا ننكر دور اعلان هذا الفكر ، وهو القول ، ولكن القول في العقيدة الإسلامية لا يغنى عن الفعل . . إلا إذا كان الطريق إلى الفعل مسدودا بأمور تخرج عن قدرة الإنسان . .
إذا كان الإيمان يزيد وينقص ، فما هو حكم من يرتكب كبيرة من الكبائر كالقتل أو الزنا أو السرقة . . هل يخرج من وصف الإيمان بارتكاب جريمة ؟

وردت في السنة أحاديث يوحى ظاهرها بأنه يخرج من الإيمان . .
كتقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن ،
ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وهذا يوحى بأن الإيمان ينخلع
عن الإنسان حين يرتكب كبيرة من الكبائر . . وهناك أحاديث يوحى ظاهرها
بالعكس كقوله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله حرم الله عليه النار » وتفسير هذه الأحاديث يسير . . ليس هناك
تناقض ولا خلاف . .

إن الإيمان وصف مركب ، أحياناً يزيد وأحياناً ينقص ، وارتكاب المسلم لجريمة من الجرائم يسلب عنه وصف الإيمان ويدخله في وصف الفسق ، فإذا تاب وأصلح وعاد إلى الإيمان عاد إليه الإيمان ، وإذا استمر على جرائمه نقص إيمانه حتى يجيء عليه وقت يصير فيه رصيدة منه صفرًا ، عندئذ يدخل النار ..

(بلی من کسب سینه و أحاطت به خطیئته فأولئک أصحاب النار هم
فيها خالدون)^(۱).

إن كسب سيئة نوع من أنواع الظلم الذى يصيب الإنسان نفسه به ، فإذا زادت نسبة الظلم فى عمل الإنسان على نسبة العدل ، زحمة هذا عن مرتبة الإيمان إلى مرتبة أخرى .. لا يكون مؤمنا ولا يكون كافرا ..

(١) سورة البقرة آية ٨١.

يصير مؤمنا ظالما كما يقول أبو حنيفة . فإذا زاد ظلمه دخل في مرتبة الفسق . فإذا زاد فسقه وصار طبعه هو المعصية لله والرسول وتعدى حدوده . . استحق النار هو والكافر سواء .

قال تعالى : (ومن يعص الله ورسوله ويتجاوز حدوده يدخله نارا خالدا فيها)^(١) .

إذا كان الإيمان يزيد وينقص . . فما هو الشرك الخفي ؟

ان بداية الإيمان هي اعتقاد العقل . .

وببداية الشرك هي مشاعر القلب . .

وفي الإيمان جزء خفي كاعتقاد العقل ومشاعر القلب ، وفيه أجزاء ظاهرة كأداء العبادات والعمل . .

وفي الشرك أجزاء خفية وأجزاء ظاهرة هو الآخر . . بذاته أن الشرك نقىض الإيمان . .

والشرك الظاهر معروف ، أما الشرك الخفي فقد وضع له الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة . .

قال صلى الله عليه وسلم :

« الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدنى أن تحب على شيء من الجور . . وأن تبغض على شيء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض » . .

ثم تلا قوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله . . ويفتر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)^(٢) .

يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول أن أخلاق التوحيد يعني مجنة العدل وكراهة الظلم . .

يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل التوحيد في أخص خصائص الحياة الإنسانية . .

يريد أن يدخل التوحيد في منطقة المشاعر الإنسانية . . فيحب الإنسان ويكره بناء عليه ، وبهذا الدخول ينزل التوحيد إلى مجال عمله الطبيعي ، ويكتسب معناه وفعاليته . .

(١) سورة النساء من الآية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

وبهذا الحديث الشريف ، تضع العقيدة الإسلامية في أيدينا ما يمكن أن

نسميه بقانون التوحيد ..

إن التوحيد حقيقة ..

غير أن هناك فرقاً بين الحقيقة كفكرة مجردة يخبيها الإنسان في عقله أو يكتنزها في تلافيف مخه .. وكونها قانوناً مؤثراً يتحكم في حركة الإنسان ويسطير على تصرفاته ..

وكل حقائق الإسلام لم تنزل ليحتفظ بها الناس في عقولهم ، أو يتمتمون بها بين شفاههم ..

ان الإدخار العقلي لحقائق الإسلام .. يفقد هذه الحقائق كل معناها ، ويتحولها إلى نوع من أنواع الزخارف والحلوي ، ويهدى الحكمة الأصلية في استخلاف الله للبشر ..

ولهذا جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم واضحاً في الدلالة على أن التوحيد ليس فكرة عقلية مجردة ، إنما هو قانون يجب أن ينتجه أثره في الحياة ، ولقد كان اهدار هذا القانون هو المسئول عن كثير من مأسى العالم الإسلامي ..

حين اقتصر التوحيد على قول لا إله إلا الله ، ولم يعد شهادة وحركة مؤثرة .. حين اكتفى المسلمون بالقول بدلاً من الفعل .. حين صاروا يفسرون التوحيد هذا التفسير النظري ، ويررون أن الإعتقداد ينفصل عن الفعل ، وإن هناك شركاً أصغر وشركًا أكبر .. حين وقع هذا صار سهلاً أن يكره الناس العدل ويحبون الظلم ، صار مألفاً أن يسند الناس الظالمين - ولو بالسكتوت - إزاء أهل الحق ، وأصبح من المنطقى أن ينسحب القرآن من حكم النفوس والمجتمعات .. وإنكسر بذلك قانون من قوانين الحياة والخلافة في الأرض ..

قانون اختيار الأفضل .. سواء في شخص الحكم أو شكل الحياة أو أسلوب العمل والانتاج أو علاقات الزواج والتربية ..

وبإنكسار هذا القانون بدأ عطش المسلمين وانحدارهم ، وهو انحدار لا نجاية منه إلا بالعودة إلى منابع التوحيد الأولى ، حين كان التوحيد يحكم أسلوب الحياة ويوجه مشاعر القلب . وينشئ الرغبة في العمل .. ويهيم من عليه ..

ذكر الله

ليس هناك مجد يرتفع إليه المخلوق أعظم من ذكر الله .
إن تسبّح المخلوق للخالق . . نوع من أنواع الاتصال التي ترفع
المخلوق لآفاق عاليه . . وفي الأنبياء من كان يذكّر الله ويسبحه ، فإذا
الطيور والجبال تستجيب معه ، وتشترك في التسبّح . . قال تعالى :
(وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير وكنا فاعلين)^(١) .
كان داود إذا جلس يسبّح الله ويمده ، تعرّت الكائنات من إطار الوجود
الجاد ، وإنكشف باطنها المترنّم بمجد الله ، واستجاب هذا الباطن للنغم
ال الصادر من داود .

تقوم العقيدة الإسلامية على أن الكائنات جميعاً تعرف الله ، وتتجه إليه
بالسجود والتسبّح والذكر .
حتى ما يصعب علينا إدراك كيفية سجوده . . كالشجر والنجوم . حتى
هذا يسجد .

(والنجم والشجر يسجدان)^(٢) .
حتى ما لا نستطيع فهم أسلوب تسبّيحه . . كالرعد والملائكة . .
(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)^(٣) .
كل ما في الكون من خلائق . . تعرف الله وتذكرة وتسبّحه وتسجد له .
الجبال والطير والرعد . .

(١) سورة الأنبياء من الآية ٧٩ .

(٢) سورة الرحمن آية ٦ .

(٣) سورة الرعد من الآية ١٣ .

ثلاثة أنواع من الخلائق . .
 إن الجبال أصلاً صخور أو جماد . .
 والطير جنس من الأحياء . .
 والرعد تفريغ شحنة كهربائية بين السحاب . .
 أنت ترى أن كل شيء يختلف عن الآخر . .
 برغم ابتعاد أنواعها وتنائي مصائرها واختلاف حقائقها ، نراها تجتمع في
 شيء واحد هو التسبيح . .
 كيف تسبح الجبال والطير والرعد . .
 هذا سرها الذي يعلمه خالقها وحده . .
 نحن نرى النجوم تومنض في أماكنها ، كما نرى الشجر ثابتًا في
 الأرض . .
 لم نر نجماً يسجد ولا رأينا شجرة تحني ساقها وتلمس بفروعها
 الأرض . .
 ورغم هذا فإن النجوم تسجد والشجر يسجد . .
 نجهل كيفية سجودها ولكننا نؤمن أنها تسجد . .
 لا شيء في الكون يستعلى على ذكر الله أو تسببيحه أو السجود له . .
 تحدثنا العقيدة الإسلامية أن كل شيء في الكون يسبح بحمد الله وإن كنا
 لا نعرف تسببيحهم . .
 (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء
 إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهوم تسببيحهم)^(١) .
 ترسم الآية ظلاماً لملائكة الخلائق التي تشتراك كلها بأسلوبها
 الخاص وطريقتها الغامضة في تسببيح الله . .
 إذا كانت الجمادات والأشياء تسبح بحمد الله وتذكرة . .
 أليس أولى بالإنسان - وهو أرقى الخلائق - أن يذكر الله . .
 يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يذكروه . .
 (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة
 وأصيلاً)^(٢) . ونقدم الآية الكريمة الذكر على التسبيح . . الأمر الذي يوحى

(١) سورة الاسراء الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٤١ ، ٤٢ .

أن التسبيح نوع من أنواع الذكر . . كما يحدثنا القرآن الكريم أن الذكر أشمل وأعم من التفكير . . لأنه يقود إلى التفكير . .

قال تعالى : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ،
ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلأ سبحانك
فقط عذاب النار) ^(١) .

ما معنى ذكر الله ؟

ولماذا يأمر الله المؤمنين أن يذكروه كثيرا ؟

• • • • •

قبل أن نجيب نريد أن نستبعد ما يقع في هذه الأيام في موالد الأولياء من رقص يطلق عليه اسم الذكر . .

إن الذين يقفون صفوفاً ويداؤن في الذكر ويتمايلون على دق الطبول لا يذكرون الله . . إنهم يتصورون أنهم يذكرون الله . . والحقيقة أنهم يبعثون الحياة في تقليد وثنى من تقاليد اليهود . .

في قصة موسى ، يحدثنا القرآن الكريم أن السامری أضل قوم موسى وصنع لهم عجلاً من الذهب ، وقد شرح العلماء كيف كانوا يعبدون العجل بهذا الأسلوب . . كانوا يقفون صفوفاً حوله ويداؤن في الرقص والتواجد . . من يومها بدأت فتنة الذكر بهذا الأسلوب .

روى القرطبي في تفسيره أن الإمام أبي بكر الطرطوشى سئل عن جماعة من الرجال يكترون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ويوقعون بالقضيب على شيء من الأديم . (يقصد الطبل) ويقوم بعضهم برقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه . ويحضرون شيئاً يأكلونه . .

سئل الإمام هل الحضور معه جائز ؟

كان الجواب أن مذهب الراقصين بطلة وجهالة وضلاله ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثهما أصحاب السامری ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار فقاموا بيرقصون حوله ويتواجدون . . فهو دين الكفار وعباد العجل .

(١) سورة آل عمران آية ١٩١ .

وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، وعلى السلطان ونوابه أن يمنعوا هذه المساخر ويمنعوا الراقصين من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا أن يعينهم على باطلهم .. وهذا مذهب الأئمة الأربعية : مالك وأبي حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل .

إذا استبعدنا رقص الراقصين من الذكر فما هو المقصود بالذكر ؟
سنواجه هنا قانون المستويات ..

إن أبسط أنواع الذكر ذكر اللسان الله .. كالتلتفظ باسم الذات الإلهية ..
وفوق هذا المستوى حضور فكرة الله في القلب .

وهناك ذكر الله تعالى بإقامة حكمه في الأرض ، وتطبيق قوله تعالى على الحياة .. وهناك ذكر الله تعالى أثناء العمل اليومي للإنسان .. ويأخذ هذا الذكر شكل الابداع في العمل مع توجيه النية فيه إلى الله .
ومعنى ذكر الله ، أن يدرك الإنسان أن له خالقا يراه .

والذكر يعني الحياة .. لأن الإنسان مخلوق هالك .. والله هو الحى
القيوم ، والاتصال به يعني الاتصال بمصدر الحياة الحقيقة ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحى والميت » ..

هذه الصورة التي يقدمها الرسول للذكر ليست تعبيرا أدبيا ، إنما هي حقيقة يقينية . إن الذين يذكرون الله هم الأحياء .. أما الذين انقطع الاتصال بينهم وبين الله فقد انقطعت صلتهم بالحياة .. حتى لو أحدثوا أكبر ضجيج يمكن إحداثه في الدنيا ..

ونذكر الله يعني عبادة الله .. كالصلوة والصوم والحج والع jihad ..

ونذكر الله يعني إسلام الوجه لله ..

وليس هناك شرف فوق شرف الذكر ، ولا قيمة أخطر من إستحضار جلال الله في القلب والسجود لعظمته والإسلام لأمره ..

ونذكر الله يعني حب الله تعالى ..

وليس بعد درجة الحب درجة ..

هذا كله من معانى الذكر . كما أن من معانيه المعرفة .
معرفة الحياة ودقائقها .. ومعرفة العلوم وحقائقها ..

إن الله علم آدم الأسماء كلها . . . والعودة لهذا العلم ذكر الله . . .
فسر شيخ الجامع الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود قوله تعالى :
(فاذكروني أذركم)^(١) .

قال : إن (إذكروني) معناها : تذلّوا لجلالي .
أما (أذركم) فمعناها ، أكشف الحجب عنكم وأفيض عليكم رحمتي
وإحساني وأحبكم . . .

هذا بعض معانى الذكر ، أما أنواعه فيقسمها العلماء إلى نوعين :
ذكر اللسان .

وذكر القلب .

وذكر اللسان هو الطريق الذى يصل به العبد إلى استدامة ذكر
القلب . . .

يقول الإمام الشيرى « إذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل
في وصفه في حال سلوكه » . . .

ومن المدهش أن العلماء يرون أن الذكر نوعان . . . ذكر اللسان وذكر
القلب ، من المدهش أنهم يغفلون ذكر العمل . . . وهو أرقى أنواع الذكر
وأخطرها ، ويبدو أن الفصل بين ذكر اللسان والقلب ، وذكر العمل ، جاء
نتيجة منطقية للفصل بين الاعتقاد والعمل . . . وهو بدعة أحدثها أهل الزمان
الأخير ، ولم يعرفها عصر النبي صلى الله عليه وسلم . . .

ذلك أن عصر النبوة كان يعرف أرقى أنواع الذكر . . .
نقصد بذلك الذكر العملى الذى يتمثل فى إقامة الدولة الإسلامية ونشر
الدعوة والجهاد فى سبيل الله والمتضيغفين من الرجال والنساء والولدان . . .

يقول الله تعالى :
(وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمتضيغفين من الرجال
والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها
واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرا)^(٢) .

(١) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

(٢) سورة النساء آية ٧٥ .

إن القتال في سبيل الله هو أرفع أنواع الذكر . . ويليه ذكر القلب وبعدهما ذكر اللسان . .

ومن المأساة أن نفصل الذكر العملي عن ذكر القلب أو اللسان . . لأن الله تبارك وتعالى لا يناله شيء من ذكر الذاكرين ، إنما ينال الذاكرين ما ينالهم من تقدم إذا ذكروا الله . . والأصل في ذكر الله أن ينتشر أثره في الحياة . . وأن يعم فضله على الناس . . ولا يقع هذا التأثير إلا من الذكر العملي الذي يقوم فيه المسلم بدوره كحارس لقيم الخير البشرية وكمسئول عن قتال الألم والشرور في الأرض . .

أما ذكر القلب واللسان فلا يمتد أثره لغير صاحبه ، وعلى المستوى الشخصي يرتفع الذاكر إلى درجة من الشرف أشار إليها الحديث القدسى بقوله « أنا جليس من ذكرنى » .

أما الذكر العملي فيؤدى إلى الفلاح . . قال تعالى : (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)^(١) .

ولو تأملنا سياق الآيات فسوف نعلم أن الله تعالى يتحدث عن الذكر العملي . .

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاحة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذرعوا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)^(٢) .

تتحدث الآية عن ذكر الله مرتين . .

مرة إذا نودى للصلاحة . .

ومرة ثانية بعد قضاء الصلاة والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، أى العودة إلى الحياة اليومية والعمل . .

والمقصود بالذكر في المرة الأولى هو الصلاة ذاتها ، وهذا هو ذكر اللسان والقلب ، أما المقصود بالذكر في المرة الثانية ، فهو الذكر العملي الذي

(١) سورة الجمعة آية ١٠ .

(٢) سورة الجمعة آية ٩ .

يلازم الحياة اليومية ، ويأخذ شكل إقامة الخلافة في الأرض .. ويرتب الله تعالى عليه الفلاح .

أخرج الإمام البخاري حديثا قدسيا يرويه الرسول عن ربه ..
« قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في
نفسي ، وإن ذكرتني في ملائكتك في ملائكتك مني ملائكة خير منه ، وإن دنت مني شبرا
دنت منك ذراعا ، وإن دنت مني ذراعا دنت منك باعا ، وإن أتيتني تمشي
أتينك هرولة » ..

يشير الحديث القدسى إلى أنواع الذكر .. ويوضح جزاء كل نوع من
هذه الأنواع ..

ونذكر الإنسان لربه في نفسه هو ذكر القلب واللسان ، أما ذكر الإنسان
لربه في ملائكة ، فينصرف في رأينا إلى الذكر العملى الذى يقيم الأخلاق
والحكم بأمر الله في الأرض ..

ونذكر الله تبارك وتعالى ليس مقيدا بوقت معين ، فكل الأوقات تصلح
للذكر ، حتى اللحظات التي يقاتل فيها المسلمون ويواجهون عدوهم
ولا يستطيعون الصلاة لانشغالهم بالأعمال العسكرية .. في هذه اللحظات
يقوم مقام الصلاة أن يرفع المسلم رأسه ويقول « الله أكبر » ..
إذا استحالت الصلاة فإن الذكر يغنى عنها ..

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على جماعة من أصحابه فسألهم
ما أجلسهم .. فحدثوه أنهم جلسوا يذكرون الله ويحمدونه على ما هداهم
لإسلام ، فاستحلفهم الرسول فلحفوا له ، قال صلى الله عليه وسلم : أما أنا
لم أستحلفك تهمة لكم ، ولكن أتاني جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى
بكم الملائكة ..

خليفة الله

الإنسان هو خليفة الله في الأرض . .

تقوم العقيدة الإسلامية على هذه الفكرة . . وتتبع الفكرة من القرآن الكريم
لقوله تعالى . .

(وإنما قاتل ربكم الملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(١) .

ولقد كان إسناد الخلافة في الأرض للإنسان شرفاً أثراً حيرة الملائكة ،
ولهذا حدثوا الله عز وجل بقوله كان صادق الدلالة في التعبير عن الحيرة . .
(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك)^(٢) .

ويوحى قول الملائكة بالدهشة البالغة ، كما يقطع بأنهم لا يعرفون
الغيب ، فقد فوجئوا بأمر الله في استخلاف آدم ، كما غابت عنهم أسرار هذه
الخلافة وحكمتها . . ولقد كان جواب الله عز وجل على تساؤلهم في البداية
قصيراً وحاسماً . . رد فيه العلم إلى الله ونفاه عنمن سواه . .

(قال إني أعلم ما لا تعلمون)^(٣) .

اراد الله عز وجل أن ينبيء ملائكته الكرام أن له حكمة في استخلاف
آدم . . وهي حكمة يعلمها سبحانه وحده ولا يدرِّيها الملائكة . .

ويوحى قول الملائكة السالفة أنه كان لديهم من شواهد الحال ، كتجارب
مخلفات سابقة في الأرض . . أو كان لديهم من إلهام البصيرة ، ما يكشف
لهم عن شيء من طبيعة هذا المخلوق الجديد ، فعرفوا أنه سيُفسد في
الأرض ، وتوقعوا أنه سيُسفك الدماء . . ومن هنا تضاعفت دهشة الملائكة ،

(١ ، ٢) البقرة آية ٢٠ .

فهذا الخليفة رغم افساده المنتظر قد وقع عليه اختيار الله .. بينما يسبح الملائكة بحمد الله ويقدسون له ، ورغم ذلك تجاوزهم اختيار الله ..

ما هو السر في هذا الأمر أذن ؟

ما الذي يملكه آدم ولا يملكه الملائكة ؟

ما الذي يعرفه آدم ولا يعرفه الملائكة ؟

ما الذي يزيد فيه آدم عن الملائكة رغم أنه خلق من طين الأرض . ؟

دارت هذه الأسئلة في نفوس الملائكة ، ولهذا سارعوا بالسؤال ..

كتموا استشرافهم للخلافة في الأرض .

وأبدوا حيرة عميقة لإسناد هذه الخلافة لآدم .. وينبغي هنا أن نصرف أذهاننا عن تصور سؤال الملائكة كاعتراض على أمر الله عز وجل أو مراجعته سبحانه ، فالملائكة خلق منه عن الاعتراض .. إنما فادهم إلى السؤال أنهم - من بين مخلوقات الله - رمز النقاء والبراءة .. ومن حق البراءة أن تبدي دهشتها إزاء خليفة سيسفك الدماء ..

ولقد تصور الملائكة بفطرتهم البريئة أن التسبيح بحمد الله وتقديسه هو السر الأول في الخلق ، وهو الغرض الأخير للوجود ..

وهذا الغرض متحقق بوجودهم هم .. فما هو السر في أمر الله ؟

شاء الله تبارك وتعالى أن يطلع الملائكة على طرف من غيبه ..

شاء تعالى أن يخبرهم عن سر اختياره لآدم .. قال تعالى :

() وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمَ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَيْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَلْقَ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (١) .

يحدثنا الله تبارك وتعالى في الآيات السابقة عن شأن من شأنه مع الملائكة ..

يحدثنا عن غيب لا ندرى كنهه أو كيفية وقوعه ، لا نعرف كيف سأل الملائكة ولا كيف أجاب الحق .. كل ما ندرىه أن الله عز وجل لرحمته لم

(١) سورة البقرة آية ٣٢ - ٣١ .

يشأ أن يترك ملائكته في حيرتهم ، فهداهم إلى سر آدم . . وأفهمهم أن خليفة الله في الأرض يمتاز عن الملائكة بالعلم . . ويقل عنهم بقدرته على الخطأ . . ولسوف تتحقق حكمة الله في عمارة الأرض واستعمارها من خلال هذا المخلوق الذي يزيد على الملائكة في شيء ، وينقص عنهم في شيء . .

ما الذي يزيده آدم على الملائكة ؟

بعبارة أخرى . . ما هو سر آدم ؟

(وعلم آدم الأسماء كلها)^(١) .

جمع الله سر آدم وذريته في هذه الكلمات الأربع . .

إن معنى تعليم الأسماء ينصرف إلى أكثر من مستوى . . إبتداء من القدرة على الرمز للأشياء بالأسماء . . وانتهاء بأسماء الله الحسني . .

إن أول معنى لتعليم الأسماء ينصرف لهذه القدرة التي منحها الله آدم . . وهي القدرة على استخدام الرموز . . أو القدرة على تسمية الأشياء بأسماء . . وبغير هذه القدرة تستحيل الحياة على الأرض واستعمارها . .

إن آدم يملك سرا يتمثل في قدرته على التعبير باللغة والإشارة بها لشيء ، لا يهم ابتعاد الشيء أو قريبه ، حضوره أو غيابه ، إن مجرد تسميته تكفي لاستحضاره في الذهن فإذا هو حاضر . .

نحن نتحدث عن جبل . . أبسط من الذهاب إليه ذكر اسمه أو صفتة . . هذا يكفي لحضوره رغم عدم حضوره . .

هذه القدرة على اللغة والنطق والكتابة وتسمية الأشياء . . هي امتياز خاص لهذا الخليفة الجديد الذي خلقه الله من طين الأرض ، وأسلمه مفاتيح بيته الجديد في كوكب الأرض . .

أيضا ينصرف معنى الأشياء لمستوى أبعد من هذا . . ذلك مستوى المعرفة الإنسانية . . بكل ما تعنيه كلمة المعرفة من علوم إنسانية أو طبيعية أو رياضية أو كيميائية .

لو تصورنا - مجرد تصور - أن الله تبارك وتعالى عرض على الملائكة الكرام صورة لشجرة وذرة وطائرة . . وسألهم عن أسماء هذه الأسماء ، فلم يعرف الملائكة العلاقة بين دفء الشمس وثمار الشجرة ، ولم يعرفوا تركيب

(١) سورة البقرة آية ٣١ .

الذرة ولا سر استخدامها فى الطب ، ولم يعرفوا كيف يمكن لمعدن أثقل من الهواء كالطائرة ان يطير فى الهواء . .
لو تصورنا هذا . . فكيف لهذا الجنس ببراءته البيضاء أن يعمر الأرض . .

لو تصورنا أن الله عز وجل أمر آدم أن ينبيء الملائكة بأسماء هؤلاء . . وتكلم آدم . . كلاما علمه الله له . .
لو تصورنا هذا لفهمنا - كبشر - سر إستخلاف آدم . . وهو نفسه السر الذى فهمته الملائكة . .

أيضا ينصرف معنى تعليم الأسماء الوارد فى الآية لذرة أخيرة . .
نتحدث عن تعليم الإنسان أسماء الله الحسنى . . وانطباقها على مجالات الوجود الإنساني . .

من أسماء الله تعالى الجبار . . كيف ينطبق الاسم إذا لم يخلق الله طاغية فى الأرض كفرعون لينطبق عليه عذاب الجبار يوم القيمة .
من أسماء الله تعالى الرحيم . . كيف ينطبق الاسم إذا لم يخلق الله نبيا فى الأرض كمحمد لينطبق عليه مجال اسم الرحيم ويكون رحمة للعالمين . .

حين تعلم آدم الأسماء كلها . . وانبأ الملائكة بها . .
حين وقع هذا ، أدرك الملائكة أن الله لم يشاً أن يعلمهم سر الأسماء . .
واختار آدم لحمل هذا السر . .
حين وقع هذا ، فهم الملائكة سر اختيار آدم . . وفهم آدم حكمة اختياره . .

أدرك آدم أنه قد اختير خليفة الله فى الأرض . .
وقد كره بعض العلماء أن يقال عن بشر أنه خليفة الله ، وإنجروا على ذلك بأن الذى يستخلف هو الذى يغيب أو يموت ، وتعالى الله على الغيبة وتعالى على الموت . . كما أنهم استندوا إلى كلام أبي بكر الذى نودى يوما « يا خليفة الله » فقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
وأجاز بعض العلماء أن يقال عن بشر أنه خليفة الله ما دام قائما بأمر الله . .

ونحن مع الرأى الأخير لأكثر من سبب ..

الأول : وجود نص قرآنى صريح (وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة)^(١) .

الثانى : رفضنا تطبيق المनطق الإنساني على الله أو أمر الله .. وإذا كان استخلاف الإنسان للإنسان يقع بسبب عجز الإنسان وحاجته إلى خليفة ، فإن استخلاف الله للإنسان قد وقع بسبب كمال الله المطلق ومشيئته النافذة وحاجة الإنسان إليه ، وإذا كان الاستخلاف البشري يعني التكليف بمهمة قد لا تكون حاضرين ساعة أدائها ، فإن الاستخلاف الالهي يعني التكليف بمهمة تخضع لرقابة الله وتقع تحت سمعه وبصره سبحانه ..

واستخلاف البشر للبشر يعني أن يكون الخليفة في مركز النائب أو الوكيل .

أما استخلاف الله للبشر يعني أن يكون الخليفة في وضع العبد الطائع لا أكثر ..

وإذا كان استخلاف البشر للبشر يحمل معنى النيابة أو الوكالة .. فإن استخلاف الله للإنسان يعني التكليف بحمل أمانة معينة .. ولا ينصرف مطلقاً لمعنى النيابة أو الوكالة ..

يرى المفكر الإسلامي وأستاذ القانون عبد القادر عوده « إن الله قد أسكن عبيده الأرض وسخر لهم ما في الكون منحة لهم ، وإن فهو يعتبر أن ما في أيدي هؤلاء العبيد من ملك الله إنما هو من الناحية الفقهية عارية ينتفع بها البشر ، والقيام على العارية في فقه البشر نيابة ، وإن كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالكه .. وإن فكل فرد من أفراد البشر يعتبر نائباً عن ربه جل شأنه ، وهكذا لا يكاد معنى استخلاف البشر في الأرض لغة يختلف عنه فقهها ، ونتيجة ذلك أن مركز المستخلفين في الأرض هو مركز الخليفة أو النائب . وأن الخلافة أو النيابة هي عن الله جل شأنه » . وإذا كنا نتفق مع أستاذنا في رأيه الخاص في الملكية ، ونرى مثله أنها عارية ينتفع بها البشر وتتوسل إلى الله وارث كل شيء ، إلا أنها لا نوافقه على أن مركز المستخلفين في الأرض هو مركز النائب .. إنما يظل الخليفة في مركز العبد المكافف

(١) سورة البقرة آية ٢٠ .

بحمل أمانة معينة ، لأن تطبيق مفهوم بشرى على أمر إلهى غير جائز ..
كما أن فكرة النيابة عن الله يمكن أن تقود في مجال السياسة إلى ديكاتورية
يتهم معارضها بالكفر ، ولهذا نفضل تفسير الخلافة في الأرض بأنها حمل
لأمانة القيام بأمر الله ، وحمل لأمانة العلم بالأسماء ..

وهي كما نرى أمانة مزدوجة ، تعنى العلم البشري ، وتعنى العلم
بالله ..

تعنى العلم بأسماء الأشياء والعلوم ، وتعنى العلم بأسماء الله تعالى ..
وأى معرفة تفتقر إلى الأخرى تعنى أن الخلافة ناقصة ..

إن العالم الغربي مثلا قد تفوق في معرفة الأسماء .. وملك ناصية العلم
المادى .. وراح يشكل الحياة على هواه ، غير أن عدم اتصاله بالله قد جعل
الإنسان فيه أقرب إلى الآلية والإنعزال والتعاسة ..

أما العالم الشرقي فقد تفوق في مباحث الالهيات ؛ غير أن تخلفه في
ميدان العلوم المادية أوقعه فريسة لتأثير الغرب وتوجيهه .
وصار الإنسان في الشرق ممزقا بين ثراء الماضي ومجدده وبؤس
الحاضر وشحوبه .

والحقيقة أن العلم بالمادة والعلم بخالق المادة جناحان لازمان للإنسان إذا
أراد أن ينجو من الظلم والجهل .. قال تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على
السماءات والأرض والجبال فأبین أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)^(١) .

إن النجاة من الظلم لا تقام إلا إذا اتصل الإنسان بالله ..

والنجاة من الجهل تقضي العلم بأسماء الأشياء ..

هذا ما نفهمه من مقوله أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ..

.....

على المستوى الفردى تعنى الخلافة القيام بما أمر الله به والإنتهاء عما
نهى عنه .. كالعبادات المختلفة من صلاة وصوم وحج وزكاة ..
وعلى المستوى الاجتماعي تعنى الخلافة الحكم بما أنزل الله ..
فتخضع المعاملات لأمر الله ونهيه ..

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

وعلى المستوى الإنساني تعنى الخلافة إقامة علاقات الإنسان بالإنسان طبقاً للمفاهيم الواردة في القرآن . . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(١) . كما تخضع للمفاهيم الواردة في السنة « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتفوى » . .

وعلى المستوى الكوني تعنى الخلافة قيام الصلة بين الإنسان والكون ، على أساس من وحدة الهدف والمصير . . فالإنسان عائد إلى الله ، والكون عائد إلى الله . . والإنسان مخلوق مصيره الهلاك ، والكون مخلوق مصيره الفتاء . . والله هو الذي يرث الكون والإنسان وكل ما خلق . .

وإذا كان الكون ينجو من الحساب لأنه مسخر محكوم لا يملك حريته أو إرادته ، فإن الإنسان لا ينجو من الحساب لأنه حر مختار . . هذه بعض معانى استخلاف الإنسان في الأرض .

ما هي شروط الخلافة في الأرض ؟ ، ما هي أنواع الاستخلاف ؟ وهل هناك قانون يحكم هذا كله ؟

تنصل هذه الأسئلة اتصالاً وثيقاً بقضية التوحيد في العقيدة الإسلامية . وأول شرط لاستخلاف البشر هو طاعتهم لله . .

إن الله حين أسكن آدم وزوجه الأرض حدثهما عن شروط الخلافة قال تعالى وهو يقص علينا نبأ هبوط آدم وحواء من الجنة : (قلنا اهبطوا منها جميعاً إِنَّمَا يَأْتِينَكُم مِّنْ هَذِهِ فَمَنْ تَبَعَ هَدَايَنَا فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٢) .

نفهم من هذا أن اتباع هدى الله يعني النجاة من الأحزان والخوف وإن ، فقد قيدت الخلافة بشرط اتباع الهدى . .

نفهم من هذا أن الخلافة اختيار ، فهي صفة لا تثبت للإنسان بمجرد ميلاده كالأدمية أو العبودية . . وإنما تثبت له بطاعة الله والقيام بحق الأمانة التي كلفه الحق بها . وإذا كان الإنسان يولد عبداً لله ، سواء اعترف بهذا أو لا ، فإن الإنسان لا يولد خليفة لله ، إنما يصير خليفة لله إذا أراد الخلافة وسعى لها سعيها وهو مؤمن .

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٨ ، ٣٩ .

إن الملحدين والمنكرين والمشركين عبيد الله ، هو تعالى الذي خلقهم ، وهو سبحانه الذي يرثهم ، ينطبق على فرعون وصف العبودية رغم إدعائه الألوهية ، بمعنى أن انكار المنكرين لله لا يخرجهم من وصف أنهم عبيد تدق قلوبهم رغم إرادتهم ، ويجرى دمهم رغم عدم تحكمهم ، وتطيع خلبياً لهم خالقها بأسلوبها الخاص ..

العبودية قهر ..

والخلافة اختيار ..

ولا ينطبق وصف الخلافة إلا على الإنسان المسلم .. أى الإنسان الموحد .. ابتداء من خلق آدم حتى موت آخر أبنائه .. (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)^(١) ..

وإذا جاز أن يقال عن الأنبياء والأولياء أنهم خلفاء الله ، فلا يجوز أن يقال عن الكافرين أو المنكرين أنهم خلفاء الله ..

ذلك أن الخلافة عن الله لا تطلق إلا على المسلمين ..

والأصل في الإنسان أنه يولد على الفطرة ، يولد على الإسلام ، وبعدها يفرض عليه الأبوان ديانتهما ، ثم يكبر الطفل ويصير من حفظه أن ينظر في الديانات حوله ويختار ..

من اختار الإسلام صار خليفة الله في الأرض ..

وهذا الوصف ليس شيئاً هيناً ، إن مكانة المسلم في الوجود تشبه مكانة الشمس ، إذا غربت في جهة ، طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة .. يلاحظ إقبال أن الحكومات الشخصية المستبدة . والفلسفات الخاطئة ، والعقائد المحرفة ، تحرصن كلها على الحط من قيمة الإنسان ، والإستهانة بقدره ، وقد ترتب على فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية أن رsex في الناس مقت للحياة ، وجاء المتصوفون العجم ، فدعوا دعوة متخمسة إلى الفناء الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي « موتوا قبل أن تموتوا » ، ونشأ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات وانحلال المجتمع وظلم الحكام أدب متشارم وشعر متشارم كشعر أبي العلاء المعري في عصره ، وبتضارف هذه العوامل فقد الناس الثقة في نفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرغبة في حياتهم ،

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال منكسر الخاطر ضعيف الإرادة محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوان على حرية ، ويحسد الجماد في سلامته وهدوئه ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرف ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأ الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف الكنوز والقوى والمواهب التي أودعها الله في باطنها ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح ، ووصيا عليه .. فقد أخضع الله له الكون ، وما كان سجود الملائكة لأبى البشر إلا اشارة لهذا الموضوع .

ولقد كان للمسلم الشرقي أكبر نصيب في هذا اليأس والتشاؤم ، وفي انكار الذات ، وفي الجهل بقيمة وكرامته ، فقد فقد السيادة والسيطرة في بلاده ، ووطنه الإسلامي الكبير ، وخضع للنفوذ الغربي السياسي والاجتماعي ، وبهره بريق الحضارة الغربية ، فذاب أمامه كما تذوب الشمعة في وهج الشمس .. وقد الثقة بنفسه ومستقبله ، وقيمة وأهميته ، وأصبح أضعف نسما وإرادة من معاصره الأوروبي .. وجاءت النظم السياسية والفلسفات الاقتصادية والحكومات الشرقية في آسيا وافريقيا ، وجاء الأدب الحديث والشعر المعاصر والصحافة والنقد فلم يضرب كل ذلك إلا على الوتر الواحد ، ولم تردد إلا نغمة واحدة ، كلها تتجاهل قيمة الإنسان المؤمن وقيمة الفرد المسلم ، وكلها تتناسي رسالته ، وقدرتها على التغيير ، وكلها تجهل مواهبه وطاقاته المطمورة ، وكلها تجهل قوة إيمانه التي تصنع العجائب .

ينشد محمد إقبال في قصائده :

« عجبًا لك أيها المسلم .. تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك » .

« لماذا تنانين أيتها العين الساحرة المسئولة عن حراسة الضعفاء ومراقبة الإنسانية .. لماذا تنانين » ..

« أعلم أن الوطن جسد من تراب ، والدين هو الروح ، ولا حياة للجسد إلا بإرتباطه بالروح .. إنهض أيها المسلم .. وفي إحدى يديك المصحف ، وفي الأخرى السيف .. فباجتمعهما تحرر البشرية .

« أنت للناموس الأزلى حارس أمين .. فلتكن لسيد الكون يسار ويمين » ..

يريد أن يقول : لتكن أداة في يد القدرة الإلهية . .
هذه هي مكانة المسلم في الوجود . .
وهذا هو مركز الخليفة في الأرض . .

.....

يفرق العلماء بين نوعين من أنواع الاستخلاف . . الاستخلاف العام
والاستخلاف الخاص ، أما الاستخلاف العام فهو استخلاف البشر في
الأرض باعتبارهم مستعمرين لها ومستوطنين عليها كما قال تعالى : (هو
أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) ^(١) .

أما الاستخلاف الخاص فهو الاستخلاف في الحكم ، سواء في ذلك
استخلاف الدول أو استخلاف الأفراد . . واستخلاف الدول يعني الأخذ
بأسباب التقدم والسيادة ، واستخلاف الأفراد يعني تمكينهم من الحكم
والسلطان . (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس
بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ^(٢) .

وسنة الله جل شأنه في استخلاف الدول والأفراد أن يستخلف الأمة
ما دامت أهلا للاستخلاف . وأن يستخلف الأفراد إن كانوا أهلا لذلك . . وهو
سبحانه يتليهم جميعا فيما آتاهم .

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات
لبيلوكم في ما آتاكم) ^(٣) .

هكذا يستخلف الله الناس في الأرض ، فإن أقاموا على أمر الله فهم عند
 وعد الله لهم بالتمكين والعزة . . حتى إذا كفروا بأنعم الله وكذبوا بآياته وخرجوا
على حدود رسالته ، أخذهم الله بعنة أو تدريجاً وهم لا يشعرون .

قال تعالى : (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم
رسالهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم
جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لنتنظر كيف تعملون) ^(٤) .

.....

(١) سورة هود آية ٦١ .

(٢) سورة ص آية ٢٦ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

(٤) سورة يومن آية ١٣ : ١٤ .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن الخروج على طاعة الله يعني الخروج من شرف الخلافة . .

والخلافة عن الله هي شرف الإنسان الحقيقي . .
وربما فقد الإنسان هذه الصفة ، ولم يفقد صفة القوة أو السلطان أو البأس . .

غير أن القوة التي تبقى له تكون قوة بلا شرف . .
قوة عمياء لا تثبت أن تحطم نفسها على مذبح عبادة الذات أو عبادة الهوى أو عبادة الأوثان التي تمنىء بها الحياة . .

يافت الله تبارك وتعالى نظر الخلق إلى سنته الماضية في الاستخلاف ويحدث عباده أنه يهلك الأمم بالذنوب رغم قوّة هذه الأمم . .
(ألم يرواكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهر تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرناً آخرين)^(١) .

يحدثنا الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم عن أخبار السابقين ، ويطلعنا على قانون الخلافة المطبق في الأرض . . وهو قانون لا يفلت منه أحد . .
ولا ينجو منه مخلوق . .

ينطبق القانون إذا انتطبقت شروطه . .

لقد كذب قوم نوح نبيهم . . فأغرقهم الله في الطوفان . .
وكذب قوم هود نبيهم فحدثهم عن استخلافهم بعد قوم نوح (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح)^(٢) .

فلما رفضوا إدراك هذه الحقيقة يئس هود من تكذيبهم وعنادهم وقال لهم (ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً)^(٣) .

وجاء صالح فراح يذكر قومه بأنهم خلفاء من بعد عاد ، وأن سنة الله تعالى في الأرض لا تحابي أحداً ولا يفلت منها منكر أو مكذب .
وجاء موسى فشكّا قومه له أنهم تعرضوا للإيذاء قبل أن يبعث إليهم وبعد

(١) سورة الأنعام آية ٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ٦٩ .

(٣) سورة هود آية ٥٧ .

أن جاءهم . . فحدثهم موسى (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فینظر کيف تعملون)^(۱) .

.....
هذه هي سنة الخلافة في الأرض . .
وهذا هو قانونها الأعلى . .

من تجبر في الأرض ، واستكبر على آيات الأنبياء ، ونسى نعمة الله عليه ، وجد حادث الأمم السابقة .
من فعل هذا إنسحب منه قانون الاستخلاف فأبىد . . ونهاه الموت من الحياة وطويت عليه الصفحة . .
يتم هذا كله بعد الله . .

لا يظلم الله تبارك وتعالى أحدا ، إنما يظلم الناس أنفسهم . .
قال تعالى : (وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيته وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)^(۲) .

.....

تأمل تعبير الحق عن الذين يتخذون من دون الله أولياء ويهدرون قانون الخلافة في الأرض ، انهم يبنون على الأرض بيوتاً كبيت العنكبوت .
ويمتصرون أنهم يتحصنون وراء الخيوط الواهية . .

(۱) سورة الأعراف آية ۱۲۹ .

(۲) سورة العنكبوت آية ۴۱ - ۳۹ .

حكمة الله

تتجلى عظمة الله في خلق الخلق ..

وتتجلى أيضاً في تركيب هؤلاء الخلق وأسلوب حياتهم وعيشهم .
يعيش الملائكة في سلام دائم ، لا يعرفون إلا الله ، ولا يطietenون
إلا الله ، يسبحون بحمده ويقدسون له ويعبدونه .. ينطبق عليهم مجال
الرضا والقرب ..

ويعيش الشياطين في جحيم دائم .. لقد خرجو من رحمة الله ، طردوا
من مجال الرحمة ، وانطبق عليهم مجال الغضب والبعد ..
أما الإنسان فيعيش في صراع دائم ..

ومثلاً اقتضت المشيئة الإلهية وجود النقاء والبراءة ممثلين في
الملائكة ، واقتضت وجود الشر المحسن مجسداً في الشياطين ، اقتضت
المشيئة الإلهية أن يكون الإنسان تركيباً جديداً ، فهو بجسده الترابي وروحه
الإلهي وعاء من لون عبقرى يقبل الخير والشر ، ويمتزج فيه الجمال بالقبح ،
ويستطيع الصعود إلى مقام يباهى الله به ملائكته ، ويستطيع الهبوط إلى
حضيض تبراً فيه الشياطين منه .

هكذا جاء خلق الإنسان ..

جاءت طبيعته مركبة معقدة غنية كطبيعة الأرض التي خلق منها ..
وجاء روحه سراً معاجزاً ، وجاء عقله معجزة لم يزل العلم يقف أمامها
حائراً مكبلًا بالدهشة ..

ورغم أننا في النصف الأخير من القرن العشرين ..
رغم تقدم العلوم في هذا القرن .. لم يزل عمل العقل الإنساني سراً من
أسرار الله عز وجل .. مازال العلم لا يدرك سر الطافات المودعة في عقل

الإنسان ، وما زال العلم يجهل سر تفوق العقل وتألقه ، أو سر انطفائه وموته . . وإذا كنا نجهل كثيراً من أسرار العقل ، فإننا ندرك أن العقل هو منحة الله تعالى للإنسان . . وهو أداة الإنسان الأولى في الخلافة في الأرض . . وهو مناط التكليف والمساءلة . .

وعقل الإنسان أداة رائعة الكمال بالنسبة للحياة على الأرض . .

غير أنه أداة عاجزة بالنسبة لغيب الله المجهول . .

بمعنى أن العقل يستطيع دراسة طبقات الأرض ، أو أنواع المعادن ، أو أشكال الطيور والحيوان . . وهو يستطيع الوصول لنتائج باهرة في هذا كله ، غير أنه إذا ترك مجاله الطبيعي وراح يحاول البحث في عالم الغيب كالملائكة أو الجن أو الجنة أو النار . . كان بحثه في هذا المجال محفوفاً بالمخاطر ، ومحكوماً عليه بالاحباط . .

ولقد وفر الله تبارك وتعالى - رحمة منه - على العقل عباء البحث في الإلهيات ، وحدهه عنها عن طريق الأنبياء والرسل . . وكان الحديث عنها موجزاً وإن كان كافياً لمعرفة مصير الحياة الإنسانية ومآلها . .

غير أن العقل بأجنبته انطلق يحلق في كل اتجاه . . ويغوص في كل

عمق . .

لم يترك سؤالاً إلا سأله . .

ولا ترك منطقة لم يقتحمها . .

ولا ترك أسواراً محربة إلا حام حولها . .

نظر العقل حوله في الحياة فإذا الحياة تمتليء بأحزان عميقة ، ويكشف نسيجها عن ظلم البشر ، رأى العقل أن الألم والأوجاع والماسي نسيج تغضبه الأرض على رحابتها . .

وبدأ التساؤل :

لماذا خلق الله الإنسان ؟

لماذا خلق الله الألم . . ؟

لماذا سمح الله للشر أن يعترض طريق النوع الإنساني ؟

لماذا خلق الله تعالى إبليس ؟

لماذا يتعدب المؤمنون ويستمتع اللاهون ؟

.....

خاض العقل البشري مياه بحر كل موجة فيه تسبح فيها آلاف الأسماك ،
على كل فم سؤال يقول لماذا .. أو كيف ؟ وغاية جهد الأسماك أن تتصور
حكمة البحر وتقيسها على حكمة السمك .. وذلك جهد ضائع ..

.....

ما هي حكمة الله تبارك وتعالى من خلق الخلق وابتلاه ؟
إن الجواب يحتاج أن نسير خطوة بعد خطوة .
لو وقفت نملة تتفرج على عالم رياضي يحل مسألة رياضية ، ويكتب
مئات الحروف فوق سبورة أمامه ..
هل تعرف النملة حكمة ما يفعله الإنسان ؟

وإذا كانت بعض الخلائق لا تستطيع إدراك حكمة الخلائق الأخرى ،
لاختلافها في رتبة الخليقة ، فكيف يدرك إنسان صنع من تراب وماء حكمة
الباريء الجليل سبحانه .. ؟

كيف يدرك عبد يقف في مقام العبودية ، حكمة الله تعالى وهي حكمة
تخفى أسرارها وراء ملابس الأقنعة والرموز .. ولا يكشف عنها الخالق
تبارك ذاته وتقدست اسماؤه .. إلا بقدر معلوم ؟

.....

واجه السؤال عن حكمة الله ملابس العقول .
وتقدمت أشجع العقول وراحت تصعد وتسجد وتقرب ..
منها ما احترق في ساحات الدهشة ، ومنها ما انصرف في جلال
التحير ، وبقيت أسوار الإجابة أعلى من قدرة الأجنحة على التحلق .
لماذا خلق الله الألم الإنساني ؟

نعرف أن الله خلق الإنسان وأهبطه إلى الأرض .. وكان هبوطه إليها
هبوط كرامة لا هبوط اهانة .. لم يكن هبوط الإنسان إلى الأرض عقابا
على خطيبته في الجنة فحسب ، إنما كان مترتبًا وكائننا في علم الله من قبل
أن يخلق الإنسان (وإن قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض
خليفة)^(١) .

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

هبط الإنسان إلى الأرض ، والأرض بطبعتها وتكوينها مكان غير الجنة ..

الجنة هي السلام المطلق العظيم .. والأرض صراع لا يتوقف .. والألم نسيج من أنسجة الحياة على الأرض ، والحزن قانون من قوانين الوجود الإنساني ، والموت فقد الأحباب كأس لا تستعلى على احتسائها شفة ، وليس هناك إنسان يخلو من هموم أو جراح أو ألم .. ما هو السر وراء هذا كله ؟

ما هي حكمة هذا كله ..

يوجه السؤال إلى رجال الشريعة فيجيبون بالأية الكريمة التي تقول : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أليكم أحسن عملا)^(١) . نفهم من هذا أن كل ما يقع في الحياة والموت بلاء يمتحن الله به عباده .. نفهم من هذا أن الألم الإنساني بلاء يمتحن الله به عباده .. وإذا كانت هذه الإجابة حقيقة وكافية لاقناع بعض العقول ، إلا أنها لا تمنع بعض العقول من أن تسأل :

— ولماذا يمتحننا الله تعالى وهو يعلم النتيجة مقدما ؟

إن هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بأسلوبين كلاهما صحيح . يمكن أن نقول إن مقام العبودية لا يجوز لها أن تسأل جلال الألوهية . والدليل على ذلك قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)^(٢) . والله تبارك وتعالى لا يسأل عما يفعل لسبب بيده . أنه خالق الخلق ، ومالك الملك ، وصاحب الأمر والمشيئة ، وإذا كنا على المستوى البشري لا نجيز سؤال بشر عن كيفية تصرفه في ملكه ، فكيف نسأل رب العالمين عن أفعاله سبحانه في خليقه .

نفس السؤال يمكن الإجابة عنه بأسلوب آخر ..

إن الله يمتحننا - وهو يعرف ما سنفعل - ولكننا - نحن - لا نعرف ماذا تكون النتيجة ، ومن حقنا أن نعرف .. وهذه المعرفة تترتب على الإبتلاء وتتأتى كنتيجة من نتائجه ..

(١) سورة العنكبوت آية ٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

ما هو موقف العقيدة الإسلامية من البلاء والألم والشر . . .
خلق الله تبارك وتعالى الألم كما خلق الفرح .
وخلق الله تبارك وتعالى الصحة كما خلق المرض .
وخلق الله تبارك وتعالى الخير كما خلق إبليس .
وكل شيء في الدنيا شاهد على إيداع الباريء وألوهيته .
إن الألم شاهد على فهره كما أن الفرح شاهد على وده . . .
والمرض شاهد على جبروته كما أن الصحة شاهد على منته . . .
والخير شاهد على رحمته كما أن الشر شاهد على حكمته . . .
ما هي حكمة خلق إبليس . .

لماذا خلق الله تعالى إبليس . . وهو يعلم أنه سيعصى . . ويغوى ابن آدم ؟ . .

لماذا تركه الله عز وجل يعصاه ويأبى السجود لأدم ، وكان الحق يملك أن يحيله إلى تراب قبل أن يفتح فمه بالاعتراض على أمر الله .
هل يريد الله أن يقع في ملكه الشر ؟
نحب أن نميز هنا بين علم الله ، وإرادة الله . .

إن علم الله يستوعب كل شيء . . الخير والشر ، والحسن والسيء .
أما إرادة الله فلا تشاء إلا الخير ، ولا تأمر إلا بالعدل والإحسان . ويفرق العلماء بين إرادة الله التخbirية ، وإرادة الله الحتمية . .
هناك أمور قضاها الله وأرادها على سبيل الحتم ، وصرح بذلك في كتابه العزيز ، مثل ذلك حركة الأفلاك والنجوم (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)^(١) .

إن جريان الشمس ودورانها إرادة حتمية قضاها الحق في كتاب الأزل ، وليس أمام الشمس فرصة واحدة للخطأ ، ولهذا لن يحاسب الله الشمس يوم القيمة ، ولن يوقفها بين يدي هيبته سبحانه لتسأل عن أخطائها ، لأنها لم تخطئ . . فقد قضاها الله وسواها وأجرأها بحيث لا تخطئ . . وبذلك لم تعد الشمس حرية ولا عاد لها كيان مزدوج كالإنسان . .

(١) سورة يس آية ٣٨ .

أما إرادة الله التخبيرية فمثالها قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا) ^(١) .

ولقد قضى الله وأمر ألا يعبد الناس غيره ، ورغم هذا القضاء فهناك من يعبد غير الله ، والفهم الصحيح لهذه الآية أن الله أمر بعبادته على سبيل التخيير ، من أراد أن يدخل في الرحمة دخل ، ومن رفض فهو مسئول أمام خالقه يوم القيمة عن تمرده ..

ولقد كان رفض إيليس السجود لأدم وعصيأنه أمر الخالق .. كان هذا الرفض داخلا في علم الله .. وكانت إرادة الله بالنسبة لإيليس إرادة تخبيرية . كان الله تبارك وتعالى يعلم أن إيليس سيرفض السجود لأدم .. وكان إيليس يمارس حريته دون أن يعرف أن الله قد رتب عليها حكمته العليا في إبتلاء الإنسان ونمزوله إلى الأرض واستخلافه فيها .

أيضاً ترتب خلق إيليس بصورته الجديدة على خلق آدم ..

وإذن .. فقد كان إيليس ينتظر خلق آدم ليكشف عن هويته ويعرف حقيقته ويبدأ وجوده كرمز للشر .. ويبداً الإنسان صراعه معه ، ويكتشف حقيقته هو الآخر .. ولا شيء في الكون يفتقر إلى الحكمة ..

حتى إيليس ينطوى - رغم سوئه - على حكمة تمحيص قلوب بنى آدم حتى ليشبه إيليس مرآة ينظر فيها الإنسان ليعرف ذاته ويكتشف حقيقته .

هذه هي الحكمة الظاهرة من خلق إيليس ..

فما هي الحكمة من خلق الألم الإنساني في الأرض ؟

تقوم العقيدة الإسلامية على أن الألم ضروري للحياة هو والفرح سواء ، فهو السبيل الوحيد أمام الطفل لكي يولد ، وهو النار الهاشمة التي ينضج فيها النوع الإنساني جيلاً بعد جيل .. وهو النار التي تنفصل بسببها الشوائب عن دهب الروح ..

ومن الناجية الفسيولوجية ، ينبه الألم إلى الأخطار التي تصيب جسد الإنسان ، ولو تصورنا أن مريضاً أصاب الإنسان بغير ألم ، فهذا يعني القضاء عليه دون أن يدرى ، نعرف أيضاً أن شبح الألم يقف وراء كل إيداع إنساني في الآداب والفنون والعلوم .. لقد خلق الله تعالى الدنيا دارا

(١) سورة الاسراء آية ٢٣ .

للابتلاء ، ولهذا جاءت ناقصة ، وكان سبحانه يعلم أنها ناقصة ، واقتضت مشيئته وحكمته أن تكون دارا للأحزان والآلام ، كما اقتضت مشيئته أن تكون مهمة الإنسان فيها بعد معرفة الأسماء هي استكمال نقصه وعلاج نقصها ..

ولو تصورنا أن الحياة تخلو من الألم والنقص ، لرکدت أفكار النوع الإنساني وجمدت الحياة في مكانها دون تقدم ..

ولو أن الكاتب كان يصالح الحياة ويراهما في قمة كمالها لما تحرك للإبداع والتفكير .. ولو أن الفنان رأى الحياة في ذروة إنسجامها لما تحرك لإنتاج الفن ، ولو كان العالم لا يسمع صوت الأوجاع ولا يعاين نقص الدنيا لما تحرك للكشف عن الدواء ..

وكل انجازات النوع الإنساني على الأرض .. مدينة للألم بالوجود ، ومدينة للنقص بالإكمال ..

وهكذا يتعرف الله بالعسل والصبر إلى خلقه ..

وعلى العبد المؤمن أن يشرب العسل ويتجرع المزارع ويزداد حبه لله في الحالتين ..

يقول العارفون بالله .. بالبلاء تنضج الذات حتى ترفع الحجب التي تحجبها عن الله ..

أيضا يرى العارفون بالله أن الألم في كل صوره على الأرض ليس غير رحمة تتنكر في ثياب الشدة .. فالله تعالى لا يقدم لعباده إلا الخير .. وما نراه تحن غامضا أو عسيرا أو قاسيا أو مؤلما أو ظالما .. ليس كذلك في حقيقته ..

يحكي الله تبارك وتعالى في سورة الكهف قصة موسى مع عبد آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما ..

(قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلم ما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحظ به خيرا . قال ستجنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا)^(١) .

(١) سورة الكهف آية ٦٦ - ٧٠ .

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد الذى آتاه الله من لدنـه عـلـما ، كان اسمـه
الخـضر . . بينما أغـفل السـيـاق القرـآنـى اسمـه لـحـكـمة لا تـدـريـها . .

إنـطـلـق مـوسـى مع الخـضر يـمـشـيـان عـلـى سـاحـل الـبـحـر . .

موسـى فـى مـقـام التـلـقـى . .

والـعـبـد الرـبـانـى فـى مـقـام الأـسـتـاذ . .

مرـت سـفـينـة فـرـكـبـها الخـضر وـمـوسـى ، أـكـرـمـوهـما فـحـمـلـوـهـما بـغـيرـ
أـجـر . . فـوـجـيـء مـوسـى حـين رـسـت السـفـينـة وـغـادـرـها أـصـحـابـها وـرـكـابـها ،
فـوـجـيـء أـن الخـضر يـتـخـلـفـ فيـهـا ، وـلـم يـكـد أـصـحـابـ السـفـينـة يـيـتـعـدـون هـنـى بـدـأـ
الـخـضر يـخـرـقـ السـفـينـة . . اـقـلـع لـوـحـا مـن الـلـوـاحـهـا وـأـلـقـاهـ فـي الـبـحـر فـحـمـلـهـ
الـأـمـوـاجـ بـعـيـدا . .

كان مـوسـى يـرـقـب تـصـرـفـات مـعـلـمـه وـيـفـكـر . .

لـقـد حـمـلـنـا أـصـحـابـ السـفـينـة بـغـيرـ أـجـر . . أـكـرـمـونـا ، وـهـا هـو الخـضر
يـخـرـقـها وـيـفـسـدـها . .

كان التـصـرـفـ من وجـهـة نـظـر مـوسـى شـرـا مـحـضـا . . كان التـصـرـفـ من
وـجـهـة النـظـر الإنسـانـية إـيـذـاء غـيرـ مـفـهـوم ولا مـبـرـرـ له . .

ولـم يـطـق مـوسـى صـبـرا بـطـبـيـعـتـه الإنسـانـية وـغـيرـتـه عـلـى الـحـق . . حدـثـ
الـعـبـد قـائـلا : أـخـرـقـتها لـتـغـرـقـ أـهـلـهـا ، لـقـد جـئـتـ شـيـئـا إـمـراـ.

وـتـحدـثـ الخـضر إـلـى مـوسـى ، لـفـتـ نـظـرـه إـلـى عـبـثـ مـحاـوـلـةـ التـعـلـمـ مـنـهـ ،
لـأـنـهـ لـنـ يـسـطـعـ الصـبـرـ عـلـيـهـ . . وـاعـتـذـرـ مـوسـى بـالـنـسـيـانـ وـرـجـاهـ أـلـا يـؤـاخـذـهـ
وـلـا يـرـهـقـهـ . . وـعـادـا يـسـيرـانـ . . مـرـ الـاثـنـانـ عـلـى حـدـيقـةـ يـلـعـبـ فـيـها بـعـضـ
الـصـبـيـانـ . . حـتـى إـذـا تـعـبـوا مـنـ اللـعـبـ اـنـتـحـى كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ نـاحـيـةـ وـاسـتـسـلـمـ
لـلـنـعـاسـ . . فـوـجـيـء مـوسـى أـنـ الـعـبـدـ الرـبـانـى يـقـتـلـ غـلامـا . . وـأـدـهـشـتـ هـذـهـ
الـجـرـيمـةـ مـوسـى أـشـدـ الـدـهـشـةـ . . وـثارـ عـلـى الخـضرـ يـسـأـلـهـ مـاـ الذـنـبـ الـذـيـ
إـرـتكـبـهـ الغـلامـ لـيـسـتـحـقـ القـتـلـ هـكـذاـ . . وـعاـودـ الـعـبـدـ الرـبـانـى تـذـكـيرـهـ أـنـهـ لـنـ
يـسـطـعـ الصـبـرـ عـلـيـهـ . . وـاعـتـذـرـ مـوسـى بـالـنـسـيـانـ وـوـعـدـ أـنـهـ لـنـ يـسـأـلـ عـنـ حـكـمةـ
مـاـ يـقـعـ أـمـامـهـ . . وـاتـقـ الـاثـنـانـ عـلـى أـنـ أـيـ سـؤـالـ بـعـدـ ذـلـكـ يـعـنىـ الفـرـاقـ . .

ويـمضـيـ العـبـدـ ، ويـمضـيـ مـعـهـ مـوسـى . .

يـدـخـلـانـ قـرـيـةـ بـخـيـلـةـ ، لـاـ يـعـرـفـ مـوسـى لـمـاـذـا ذـهـبـاـ إـلـىـ الـقـرـيـةـ ، لـاـ يـعـرـفـ
لـمـاـذـا يـبـيـتـانـ فـيـهاـ ، نـفـدـ مـاـ مـعـهـاـ مـنـ الطـعـامـ ، وـحاـوـلـ الـاثـنـانـ أـنـ يـأـكـلـاـ مـنـ

طعام أهل القرية فأبوا أن يضيقوهـا . . وجاءـ عليهمـا المسـاء ، وأـلـوىـ الاثـنانـ إلىـ خـلاءـ فـيـهـ جـارـ يـتـهـاـوىـ إـلـىـ الحـدـ الذـىـ يـهـدـ فـيـهـ بـالـإـنـهـيـارـ . . وـفـوجـيـءـ مـوـسـىـ بـأـنـ الرـجـلـ الصـالـحـ يـقـضـيـ اللـيلـ كـلـهـ فـيـ اـصـلـاحـ الجـارـ وـبـنـائـهـ مـنـ جـدـيدـ . .

كان التصرف من وجهة نظر موسى عملا بلا معنى . . إن القرية بخيلة ، ولا يستحق من يعيشون فيها هذا العمل المجاني . . تحدث موسى للعبد الصالح قائلا :

• لو شئت لاتخذت عليه أجرا . .

وبهذه العبارة انتهت فترة مصاحبة موسى للعبد الصالح . . لقد حذرهـ منـ مـغـبةـ السـؤـالـ ،ـ وأنـذـرـهـ أـنـ يـكـونـ السـؤـالـ الثـالـثـ هوـ نـهاـيـةـ اللقاءـ . .

بعدهـاـ كـشـفـ العـبـدـ الـرـبـانـيـ لـموـسـىـ عـنـ السـرـ الذـىـ غـمـضـ عـلـيـهـ وـحـيـرـهـ وـدـفـعـهـ إـلـىـ الـاسـئـلـةـ . .

إن كل التصرفات التي أثارت موسى وحيرته كانت تنفيذا لإرادة عليـاـ وكانت لهـذهـ الإـرـادـةـ حـكـمـتـهاـ الـخـافـيـةـ ،ـ وـرـغـمـ أـنـ التـصـرـفـاتـ الـثـالـثـةـ كـانـتـ تـشـيـ بالـقـسوـةـ الـظـاهـرـةـ «ـ مـثـلـ خـرـقـ السـفـينـةـ »ـ أوـ تـنبـيـءـ عـنـ جـريـمةـ تـقـعـ عـلـىـ بـرـيءـ «ـ كـفـلـ الـغـلامـ »ـ أوـ تـبـدوـ بـلـ مـعـنـىـ «ـ كـأـدـاءـ عـلـمـ مـجـانـيـ لـقـومـ بـخـلـاءـ »ـ . . رغمـ أـنـ التـصـرـفـاتـ الـثـالـثـةـ كـانـتـ تـبـدوـ بـهـذـهـ القـسوـةـ ،ـ إـلـاـ أـنـ حـقـيقـتـهاـ كـانـتـ هـىـ الرـحـمـةـ بـعـيـنـهاـ ،ـ وـهـىـ الـلـطـفـ بـذـاتـهـ . .

شرح العبد الربانى لموسى حكمة ما وقع امامه :

(فـانـطـلـقاـ حـتـىـ إـذـ رـكـبـاـ فـيـ السـفـينـةـ خـرـقـهاـ ،ـ قـالـ :ـ أـخـرـقـتـهاـ لـتـغـرـقـ أـهـلـهاـ لـقـدـ جـتـ شـيـئـاـ إـمـراـ .ـ قـالـ :ـ أـلمـ أـقـلـ إـنـكـ لـنـ تـسـتـطـعـ مـعـ صـبـراـ ،ـ قـالـ لـاـ تـؤـاخـذـنـيـ بـمـاـ نـسـيـتـ وـلـاـ تـرـهـقـنـيـ مـنـ أـمـرـىـ عـسـرـاـ .ـ فـانـطـلـقاـ حـتـىـ إـذـ لـقـيـاـ غـلامـاـ فـقـتـلـهـ ،ـ قـالـ أـقـتـلـتـ نـفـسـاـ زـكـيـةـ بـغـيـرـ نـفـسـ لـقـدـ جـتـ شـيـئـاـ نـكـراـ .ـ قـالـ :ـ أـلمـ أـقـلـ لـكـ إـنـكـ لـنـ تـسـتـطـعـ مـعـ صـبـراـ .ـ قـالـ :ـ إـنـ سـأـلـتـكـ عـنـ شـيـئـ بـعـدـهـ فـلـاـ تـصـاحـبـنـيـ ،ـ قـدـ بـلـغـتـ مـنـ لـدـنـيـ عـذـراـ .ـ فـانـطـلـقاـ حـتـىـ إـذـ أـتـيـاـ أـهـلـ قـرـيـةـ اـسـتـطـعـمـاـ أـهـلـهاـ فـأـبـواـ أـنـ يـضـيـقـوـهـاـ ،ـ فـوـجـداـ فـيـهـ جـدارـاـ يـرـيدـ أـنـ يـنـقـضـ فـأـقـامـهـ ،ـ قـالـ :ـ لـوـ شـئـتـ لـتـخـذـتـ عـلـيـهـ أـجـراـ .ـ قـالـ هـذـاـ فـرـاقـ بـيـنـيـ وـبـيـنـكـ ،ـ سـأـبـنـكـ بـتـأـوـيلـ مـاـ لـمـ تـسـتـطـعـ عـلـيـهـ صـبـراـ .ـ أـمـاـ السـفـينـةـ فـكـانـتـ

لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعييها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلها ريهما خيراً منه زكاة وأقرب رحمة . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشددهما ويستخرجاً كنزهما ، رحمة من ربكم ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً)١(.

نريد أن نتوقف عند هذه القصة التي يقصها الله عز وجل علينا في القرآن

الكريم ..

ما هو مغزاها ..

ما الذي تعنيه ..

إن العبد الصالح يكشف لموسى (وهونبي من أولى العزم الكبار) أن علمه البشري محدود . . فالمحاصيب التي تقع على الأرض تخفي في ردائها الأسود الكثيب رحمة عظمى . . إن أصحاب السفينة حين يكتشفون أن سفينتهم أغرفت ، سيعتبرون أن مصيبة قد حلّت بهم ، بينما الحقيقة أن نعمة جاءتهم . . نعمة تنتظر كشف النقاب عن وجهها حين تنشب الحرب ويتصادر الملك كل السفن الموجودة غصباً ، ثم يفلت هذه السفينة لأنها تالفت ومعيبة ، وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوعاً ، بل يثرون على العكس . . لأن هذه السفينة ستصير هي السفينة الوحيدة التي تعمل في هذا الخط .

أيضاً سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة دهمتها بقتل وحيدهما الصغير البريء . . غير أن موته يمثل بالنسبة إليهما رحمة عظمى . فإن الله سيعطيهما بدلاً منه غلاماً يرعاهما في الشيخوخة ولا يرهقهما طغياناً ، وكفراً كالغلام المقتول . .

أما التصرف الثالث الذي بدا لموسى مفتراً إلى المعنى ، فقد كشف العبد الصالح عن حكمته فإذا هو مليء بالمعانى .

وهكذا يلفت العبد الصالح نظر موسى إلى أن النعمة تختفي في ثياب

(١) سورة الكهف آية ٧١ - ٨٢ .

المحنة ، وترتدى الرحمة قناع الكارثة ، ويختفى ظاهر الأشياء عن باطنها .

وهذا ما يرد الله عز وجل أن يحدثنا عنه بهذه القصة . .
يجب ألا يتوجه قلبا لما تزخر به الحياة من آلام ومصائب وشorer . .
فلعل يد الرحمة الخالقة تخفي سرها من اللطف والإنقاذ والإيناس وراء أقمعة
الحزن والآلام والموت . .

.....
ما هو العلم الذى أوتيه موسى ؟
وما هو العلم الذى أوتيه الخضر . .

إن علم موسى كان هو علم البشر العقلى ، مضافا إليه علم النبوة . ورغم
هذا فقد وقف علم موسى محكما بالدهشة أمام علم الخضر . . ذلك ان
الخضر كان يملك علما ليس هو العلم التجريبى البشري ، وليس هو علم
الأنبياء . . إنما كان يعرف جزءا اكتشف له من حكمة الله سبحانه . .
(فوجدا عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا
علم) .

إن علم العبد كان من لدن الله الحكيم الرحيم .
كيف ينظر العارفون بالله إلى قضية الألم وعلاقته بحكمة الله ؟
يرى العارفون بالله ان هناك نوعين من الألم . .
ألم البعد عن الله . . وهذا هو الألم الحقيقى . .
وسائل الآلام الأخرى . . وهذه ليست غير صور لا نعرف حقيقتها . .
لقد خلق الله الإنسان بنفحة من روحه : (فإذا سوتها ونفحت فيه من
روحى) (٢) .

ومجيء الإنسان إلى الدنيا وارتداؤه ثياب الجسد الترابية نوع من أنواع
البعد عن الله ، وليس الحياة غير رحلة ، يعود منها الإنسان إلى الله . .
أو يزيد فيها إبعاده عن الله . . والبعد عن الله هو ألم الآلام الأكبر عند
العارفين بالله . .

(١) سورة الكهف آية ٦٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٢٩ .

لهذا السبب ، يبدأ شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومي كتابه « المثنوي » بالحديث عن سبب الآلام ومصدر الأوجاع الأولى ، وذلك ألم الناى حين اقطع من شجرته وابتعد عنها ونأى ، وصار قصبة يتوج غناها بحنين يذوب شوقا للانسجام مع الأصل والأنس به . . . تقول الأبيات الأربع
الأولى من كتاب المثنوى :

استمع للناى كيف يقص حكايته
إنه يشكو آلام الفراق قائلا :
إننى منذ قطعت من منبت الغاب
والناس رجالا ونساء ي يكون لبكائى
إننى انشد صدرا مزقه الفراق
حتى أشرح له ألم الاشتياق
فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله
يظل يبحث عن زمان وصلة

هذا هو الألم الأكبر في رأى جلال الدين الرومي وهو يعتقد أن الألم ضروري للحياة كالفرح سواء بسواء ولجلال الدين ٥٣ بيتا من الشعر يتحدث فيها عن قصة رمزية تحمل هذا الاسم « كيف ازعج أمير رجل نائمًا كانت أفعى قد دخلت في فمه ». ومن خلال القصة الرمزية يقول لنا الرومي رأيه في حكمة الله وتصوره لسر وجود الألم الإنساني في الحياة . . . يقول الرومي : أن أحد الأمراء الحكماء كان يسير فوق صهوة جواده فمر بالقرب من أفعى كانت تدخل في فم رجل نائم ، وقد أبصر ذلك الراكب الأفعى ، فسارع إليها ليفرعها ، لكن الفرصة أفلتت ، ولما كان لهذا الرجل مدد كبير من عقله ، فإنه ضرب النائم ضربات موجعة بالدبوس ، واستيقظ النائم مفروعا وجرى لإحدى الأشجار وكان قد تساقط من الشجرة تفاح كثير ، وتعفن التفاح وصار عطنا ، فقال الأمير للرجل :

— كل من هذا يا من تعلقت بالآلام . . .
وراح الرجل يأكل وكلما تباطأ في الأكل ضربه الأمير بسوطه ، وجرى الرجل وكان يسقط على وجهه وينهض ويأكل التفاح الفاسد بالأمر ، وخلال هذا كله كان يبكي ويتالم ويناشد الأمير أن يتركه . .

لم يعبأ الأمير بتوسلات الرجل ، وراح يجره ويضطره إلى الجري والأكل والجري حتى كادت روح الرجل تزهق ، فمن ضربات الدبوس ، ومن خوف ذلك الفارس المنطلق كالريح ومن امتلاء الرجل بالطعام والنعاس والارهاق والجراح ، تخلت أماعنه عما طعم وخرجت منه العناكل ، رديئها وطبيها ، وقفزت الأفعى خارجة منه مع ما خرج ، فحينما رأى أن تلك الأفعى قد خرجم من جوفه ، سجد أمام ذلك الطيب الفعال ، وراح يثنى عليه ويحمده : * بوركت تلك الساعة التي رأيتكم فيها . . لقد كنت ميتاً ووهبت لى الحياة . .

* لقد كنت لي طالباً كما تفعل الأمهات ، وكنت أنا هارباً منك كما تفعل الحمير . .

* فالحمار يدفعه الغباء للفرار من صاحبه ، وصاحب يدفعه كرم العنصر إلى افتقاء أثره ، وهو لا يطلب من أجل نفع أو ضرر ، لكنه يطلب حتى لا يمزقه ذئب أو وحش كاسر .

وبنهاية القصة ، ندرك أن الفارس هنا رمز لحكمة الله الغامضة التي تؤدي إلى نجاة الإنسان وخلاصه . . لقد تعلق الإنسان بالآلام . ودخلت جوفه وسواس الشيطان التي حملتها الأفعى ، ولا خلاص له إلا بالألم حتى يطرد من جوفه الشرور . . وإنْ قد كانت كل ضربة من ضربات الفارس . . حباً يتنكر في ثياب الشدة . . كانت تصرفات الفارس حباً خالصاً صافياً يساق بلا انتظار لفائدة أو حمد . . وكذلك ينظر العارفون بالله إلى الآلام وحكمة الباريء .

يعرفون أن الألم سر من أسرار الحياة . . وعظمة الإنسان تتجلى حين يحارب الألم ويقف ضده إذا كان ذلك في إستطاعته أو قدرته . .

فإذا كان الأمر فوق طاقة القدرة وجب التسليم بحكمة لا تدرِّيها وإن علمها الله . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من شوكة تصيب المؤمن إلا يكفر الله بها خطایاه ، أو يرفع بها درجاته » .

رؤیة الله

بعین البصر فحسب ..

وبأنوار العقل وحدها ..

تستحيل رؤیة الله تبارك وتعالى فی الأرض ..

لا يصمد الجسد البشري لنور الله عز وجل ، ولا يتماسك أمام جلاله

وكبر ياته ..

تقوم العقيدة الإسلامية على هذه الحقيقة ..

ويحدثنا القرآن الكريم أن كل محاولات البشر التي تستهدف رؤیة الله عز

وجل .. أو رؤیة القدرة الخالقة وهي تعمل ، قد اصطدمت بالمستحيل ..

يقصى الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز قصة نبيين أحبا الله ، وطلب

أحدهما رؤيته ، وطلب الثاني رؤية سر اسلوبه سبحانه في الخلق ..

كان موسى هو النبي الذي طلب الرؤية ..

وكان إبراهيم هو النبي الذي طلب رؤية إحياء الموتى ..

قال موسى : رب أرني أنظر إليك .. وقال إبراهيم : رب أرني كيف
تحيي الموتى ..

كان جواب الحق عز وجل عن سؤال موسى : لن تراني ..

وكان جوابه عن سؤال إبراهيم : أو لم تؤمن ؟

وكان المعنى في الحالتين استحالة الرؤية على الأرض .. لجلال الله

وعجز البشر .. ولأن الله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار

وهو اللطيف الخبير)^(١) ..

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

لا نعرف أى مشاعر كانت تجيش فى قلب موسى حين سأله ربه
الرؤية ..

يحدثنا الله أن طلب الرؤية جاء من موسى بعد كلام الله عز وجل له :
(ولما جاء موسى لم يقاتنا وكلمه رباه قال رب أرنى أنظر إليك)^(١) .
ونحن نعرف من القرآن الكريم أن الله تعالى لا يكلم أحدا إلا وحيا
أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى ما يشاء بإذنه ..
يقول تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء
حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء)^(٢) .
نعرف أيضاً من القرآن الكريم أن الله كلام موسى تكليماً (وكلم الله موسى
تكللها)^(٣) .

نفهم من هذه الآيات جميعاً أن الله لم يكن يكلم موسى عن طريق رسول
أو عن طريق الوحي ، إنما كلمة مباشرة من وراء حجاب ..
وإندفع موسى كعاشق لله فطلب رفع الحجاب .. كان المفروض وموسى
نبي من أولى العزم الكبار أن يعرف أن رؤية المخلوق لله مستحيلة ، كان
المفروض أن يعرف أن أحداً لا يصمد لنور الحق إذا تجلى ، كان المفروض
أن يعرف أن الله لا تحيطه الأنظار ولا تحده الجهات ولا تدركه الأبصار
ولا تسعه أقطار السماوات والأرض .. الله أكبر من كل شيء ..
كان المفروض أن يعرف موسى هذا كله ، وكان موسى يعرف هذا كله ،
ولكن حبه العظيم لله دفعه إلى تجاوز منطق العقل والأعصاب ، فطلب
الرؤيا ، طلبها باندفاعة عاشق عظيم سأله المحال ناسياً أنه محال .. ورده
الله تعالى إلى حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية برفق وحب ..
(قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف
تراني)^(٤) .

لو أن الله عز وجل قال لن تراني ولم يزد عليها شيئاً ، لكان هذا عدلاً

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) سورة الشورى آية ٥١ .

(٣) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

منه سبحانه ، لأن المفروض على النبي أن يعرف أن جلال الألوهية يتعالى على نظر المخلوقات . ويعتلى على عجز حواسهم وانحصارها .. غير أن الله عز وجل أدرك موسى برحمته ، وبدأ بالحب والرأفة ، فنبهه إلى أن الرؤية مستحيلة ، وساق إليه الدليل على استحالتها ، فحدثه أن الجبل وهو أقوى الخلائق .. إذا استطاع أن يحمل تجلى الجلال عليه ، وإذا استطاع أن يستقر في مكانه ، فسوف يمكن لموسى أن يرى .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال
سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)^(١) .

حين تجلى الله عز وجل على الجبل .. سجد الجبل لهيبة الله ..
إندك الجبل العظيم وزايل مكانه .. هوت صخوره وتهاوت ترابا يغفر
جبينه في تراب الذل الله ..
وتصعد موسى من الصدمة ..

كان موسى ينظر إلى الجبل .. وفوجيء أنه يتلاشى أمام عينيه ..
وخر موسى صعقا .. قال بعض العلماء أن الصعق هو الموت ..
وقال البعض أنه الإغماء .. ومهما يكن من أمر فإن الله أمر موسى أن يفيق ، فلما عاد إلى وعيه ، عاد إليه وعيه بحقيقة ألوهية الخالق ، وعجز
الخلائق ..

(فلما أفاق قال سبحانك)

تنزيه الله أن يراه أحد من خلقه وهو في ثياب الجسد الإنسانية الهشة ..
تنزيه الله .. وتقديس لعزته وكبرياته أن يحصره مكان أو يحده زمان ..
(تبت إليك) .

تاب موسى من إجرائه على طلب الرؤية ..
تاب من نسيانه حقيقة أن أحدا لا يصمد لنور الله سبحانه ..
تاب من إغفاله أنه يجب تنزيه الله عن المكانية المحدودة التي لا بد منها
لحوث الرؤية ..
بعد توبة موسى وعودته إلى الحق .. حدثه الله عز وجل ..

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(قال يا موسى إنِّي أصطفتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلْمَاتِي ، فَخُذْ
ما آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَاكِرِينَ) ^(١) .

يَمْتَنَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ، وَيَحْدُثُهُ أَنَّهُ اخْتَارَهُ عَلَى النَّاسِ نَبِيًّا ، وَكَرْمُهُ
بِرِسَالَاتِهِ وَكَلْمَاهُ . . . وَأَنَّ عَلَى مُوسَى أَنْ يَقْنَعَ بِهَذَا وَيَكُونَ مِنَ الشَاكِرِينَ ،
وَعَلَيْهِ أَنْ يَقْفَ في مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ . . .
لَا يَتَجَازُهُ بِطَلْبِ الرُّؤْيَا مِنْ جَلَلِ الْأَلْوَهِيَّةِ . . .

وَإِذْنَ لَا يَرِي اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقٌ . . .
رَغْمَ أَنْ وَجْدَ اللَّهِ هُوَ الْوَجْدُ الْحَقِيقِيُّ ، وَبِقِيَّةِ الْكَائِنَاتِ تَسْتَمدُ وَجُودَهَا
مِنْ أَمْرِهِ . . .

رَغْمَ هَذَا . . . احْتَجَبَ الْحَقُّ عَنْ عَبَادِهِ بِجَلَلِهِ . . . وَصَارَ الْإِيمَانُ بِهِ أَيْمَانًا
بِالْغَيْبِ . . .

وَمَتَّلِمًا لَا يَمْكُنُ لِلْمَخْلُوقِ أَنْ يَرِي الْخَالِقَ . . . كَذَلِكَ لَا يَمْكُنُ لِلْمَخْلُوقِ أَنْ
يَرِي الْقُدْرَةَ الْخَالِقَةَ وَهِيَ تَعْمَلُ . . .

سَأْلَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ أَنْ يَرِيهِ كَيْفَ يَحْيِي الْمَوْتَىِ . . .

قَالَ تَعَالَى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ أَرْنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَىِ قَالَ :
أَوْ لَمْ تَؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلِّي وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَ قَلْبِي ، قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ
فَصُرْهُنَ إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَ جَزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَ يَأْتِينَكَ سَعِيًّا ،
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ^(٢) .

يَحْدَثُنَا اللَّهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ أَرَادَ أَنْ يَرِي يَوْمًا يَدِ الْجَلَلِ الْخَالِقِ وَهِيَ تَعْمَلُ ،
أَرَادَ أَنْ يَرِي بَعْثَ الْمَوْتَىِ وَيَشَهِدَ قِيَامَةَ الْحَيَاةِ مِنَ الْمَوْتِ . . .

إِنَّ الْمَوْتَىِ دُمْ أَوْ صُورَةَ الْعَدَمِ ، وَالْحَيَاةُ وَجُودٌ أَوْ صُورَةُ الْوَجْدِ . . .
كَيْفَ يَتَحَولُ الْمَوْتُ إِلَى حَيَاةٍ ، وَكَيْفَ يَصِيرُ الْعَدَمُ وَجُودًا . . .

كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرِيدُ أَنْ يَرِي النَّشَاءَ الْأُخْرَى . . . وَكَانَ يَرِيدُ أَنْ
يَرِي مَعْجَزَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . . وَكَانَ يَرِيدُ أَنْ يَعَاينَ يَدَ الْقُدْرَةِ الْجَلِيلَةِ وَهِيَ تَعْمَلُ
وَتَخْلُقُ وَتَبْدِعُ . . . بَايْجَازٌ . . . كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَرِي السَّرِّ . . .

(١) سُورَةُ الْأَعْرَافِ آيَةُ ١٤٤ .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ آيَةُ ٢٦٠ .

سؤاله الله تعالى (أو لم تؤمن ؟)

وكان الله عز وجل أعلم بآيمان إبراهيم من إبراهيم نفسه . .

كان الله عز وجل يعلم أن حب إبراهيم لله هو الذي دفعه لهذا الطلب ،

كان إبراهيم يريدطمأنينة القلب ، وهي شيء لا يسأله غير كبار المحبين . .

كان يريد أن يرى سراً من أسرار الله . .

كان يريد أن يشاهد السر . . فأطلعه الله على الكلمة التي تبعث

الموتى ، ولم يطلعه على السر . . أمره أن يذبح أربعة من الطير ويوزع

أشلاءها على الجبال ثم يقف في مكانه ويدعوها بأمر الله فتجيء إليه

ساعية . . وتهرب نحوه مستيقظة من الموت عائدة إلى الحياة . .

وإذن فقد أطلعه الله على الكلمة التي تبعث الموتى من صورة العدم ،

ولكنه لم يطلعه على أسلوب البعث وكيفيته وسره . .

ذلك سر من أسراره سبحانه . .

سر خباء عن عيون المحبين . . مثلاً احتجبت ذاته عن عيون

العابدين .

لا يطيق جسد إبراهيم الإنساني أن يتحمل النظر إلى جلال السر الإلهي

في البعث ، كما لا يطيق جسد موسى الإنساني أن يتحمل جلال رؤية الله عز

وجل . .

يتعالى الله على إدراك الأ بصار . .

ويتعالى الله عن رؤية أسراره وهي تعمل . .

هذه الحقيقة كانت جزءاً من وعي آخر الأنبياء .

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس حباً لله ، ورغم

أنه كان أول المسلمين وأكملهم ، وكان آخر الأنبياء وأكرمهم . . إلا أنه

عرف مقام الألوهية وموضع العبودية ، فلم يسأل ربه الرؤية . . ولا سأل أن

يرى السر ، ولأنه لم يسأل . . فقد أجيب لأكثر مما سأله . . وأطلعه الله على

عديد من آيات الله الكبرى في ليلة الإسراء والمعراج .

(لقد رأى من آيات ربِّه الكبُّرى)^(١) .

(١) سورة النجم آية ١٨ .

وَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَرِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْيَنِ الْبَصَرِ . .
وَقَدْ سَئَلَتِ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ عَنْ يَقُولُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى اللَّهَ فَقَالَتِ إِنَّ هَذَا
إِفْتَرَاءً . . وَالنَّصُّ الْقَرآنِيُّ يَقُولُ أَنَّ الرَّسُولَ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكَبْرِيَّ ،
أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . .

فَذَاتٌ تَبَارَكَتْ وَتَعَالَتْ عَلَى الْإِنْحِصارِ . .
وَتَقَدَّسَتْ وَتَنَزَّهَتْ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَبْصَارِ . .

• • • • •

إِذَا كَانَتْ رُؤْيَا الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ بَعْيَنِ الْبَصَرِ مُسْتَحْيِلَةً . . فَإِنَّ رُؤْيَتِهِ
بَعْيَنِ الْبَصِيرَةِ جَائِزَةً . .

وَالْقَلْبُ أَشْرَفُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ لِأَنَّهُ يُسْتَطِيعُ رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . . لَا بِمَعْنَى
الرُّؤْيَا الَّتِي تَعَاينَ ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى الْقَدْرَةِ عَلَى اسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ اللَّهِ
وَجَلَالِهِ . . هِيَ رُؤْيَا مَجَازِيَّةٍ إِذْنَ . .

وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الرُّؤْيَا بَعْيَنِ الْبَصَرِ . . وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الرُّؤْيَا بَعْيَنِ
الْقَلْبِ . . وَقَدِيمًا فَرَقَ الْقَشِيرِيُّ بَيْنَ الْمَشَاهِدَةِ وَالْمَعَايِنَةِ . . وَالْمَشَاهِدَةُ عِنْدَ
الْعَارِفِينَ هِيَ الرُّؤْيَا بِالْبَصِيرَةِ ، أَمَّا الْمَعَايِنَةُ فَهِيَ الرُّؤْيَا بِالْبَصَرِ . . وَهَذِهِ
الْآخِيرَةُ لَا تَجُوزُ فِي الدُّنْيَا . .

• • • • •

بَقِيَ أَنْ نَسْأَلَ . .

أَلَا يَرِيَ الْمُؤْمِنُونَ رِبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . .

يَحْدُثُنَا اللَّهُ عَنْ أَعْظَمِ نَعِيمٍ أَعْدَهُ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ . .

يَقُولُ تَعَالَى (وَجْهُ يَوْمَنِذِ نَاضِرَةٍ إِلَى رِبِّهَا نَاظِرَةٍ)^(١) .

فَسِرَّ الْقَشِيرِيُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِأَنَّ الْوِجْهَ مُشْرَقَةٌ لِأَنَّهَا رَأِيَّةُ اللَّهِ . .

قَالَ إِنَّ النَّظَرَ الْمَقْرُونَ (بِالِّى) مُضَافًا إِلَى الْوِجْهِ لَا يَكُونُ
إِلَّا الرُّؤْيَا ، وَكَانَ الْقَشِيرِيُّ أَحْسَنَ بِالرَّهْبَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ فَقَالَ
« يَخْلُقُ اللَّهُ الرُّؤْيَا فِي وُجُوهِهِمْ فِي الْجَنَّةِ عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ ، فَالْوِجْهُ نَاظِرٌ
إِلَى اللَّهِ ، وَالْعَيْنُ مِنْ جَمْلَةِ الْوِجْهِ ، فَالْعَيْنُ فِي الْوِجْهِ تَنْتَظِرُ ، وَالْوِجْهُ
لَا يَنْتَظِرُ ، كَمَا أَنَّ النَّهَرَ لَا يَجْرِي ، وَالْمَاءُ فِي النَّهَرِ يَجْرِي » .

(١) سُورَةُ الْقِيَامَةِ آيَةُ ٢٢ - ٢٣ .

يريد القشيري أن يقول أن الله يخلق الناس خلقاً آخر في الجنة . . .
ويخلق فيهم القدرة على احتمال نور الجلال الأعلى . . . ويقول أنهم في
رؤيتهم لا يحتاجون إلى تقليل حدة ، أو تحديق مقلة في جهة ، بل يرونها
بلا كيفية . . . يريد القشيري أن ينزع الله عن الانحصار ، ويقدسه عن إدراك
الأبصار .

ورد في الحديث القدسى الشهير قوله تعالى : « ما وسعنى أرضي
ولا سمائي ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » . . .

شئون الله

الزمان كان خاليا من الزمان . .
والمكان كان خاليا من المكان . .
والكون كله ظلة . . ضباب ولا ضباب . نجوم ولا نجوم . شمس
ولا شمس . .
أرض ولا أرض . . حياة ولا حياة . .
كان الكون لغزا من المياه الممتدة . .
مياه لا يسبح فيها شيء ، ولا يتحرك داخلها شيء ، مياه تخلو من الموج
والزبد ولا تعرف الملح . . مياه لا هواء فوقها ولا سماء لها غير بدايات
عرشه سبحانه . .
مياه ساجدة خائفة وسط خلاء عظيم .
أتسأل كيف تسجد المياه ؟
ذلك سر من أسراره هو . . وأنت تسألني أنا ، فلماذا لا تسأله
هو . . ؟ . أسجد واقترب واسأله كما تحب يجيبك . ستعرف أن المياه كانت
ساجدة لأنها تحمل عرشه هو .
(وكان عرشه على الماء)^(١) .
كان هنا تعود إلى زمن كان قبل أن يولد الزمان .
زمن كان خاليا من الزمان .
في هذا الزمن العريق الممتد في القدم ، وقبل هذا الزمن المجهول
الغامض الذي أسدل الله عليه أستار السر . . كان الله ولا شيء معه . .
كان سبحانه وتعالى قبل خلق العرش والماء والكرسي والكون والنجوم
والسماء والأرض . .

(١) سورة هود آية ٧ .

ثم أصدر الله تبارك وتعالى أمره إلى الكون أن يكون . . حضورا من العدم . طائعاً أو مكرها ، هنالك سجد الكون بين يدي الطاعة . . وولد الحب يومذاك . .

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان لها وللأرض إتيما طوعا أو كرها قالتنا أتينا طائعين)^(١) .

لا تجىء الأشياء طائعة إلا إذا كانت عاشقة ، ولم يكن جل شأنه في حاجة لأن يأمر بأكثر من حرفين . . كن . .

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملکوت كل شيء وإليه ترجعون)^(٢) .

كان الكون كله ظلمة ، وإنما أثاره ظهور أمر الحق فيه . .

حين تجلى الله تعالى على العدم بكلمة من حرفين ولد العدم في صورة الوجود . . استحب العدم من حرفين قالهما الله فصار وجودا . .

حين كلم الله تعالى العدم ، أصاب العدم هذا العشق الذي يدفع الكائنات دفعا إلى الوجود . . أتسأل كيف نزلت الروح من الأعلى إلى الأرض ، وكيف دخل القفص ذلك الطائر الذي لا حدود له . .

لقد تلا عليها الحق كلمات كما يقول جلال الدين الرومي . . حين يتحدث الله إلى العدم الذي لا عين له ولا أذن ، يصبح مواجا بالحركة . .

وبكلمات الله تنطلق المعدومات مسرعة الخطى نحو الوجود .

لقد همس الحق في أذن الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها تبتسم بالعطر .

وتحدث إلى الحجر فجعل منه عقيق المنجم ، وتلا آية على الجسم فأصبح روها ، وكلم الشمس فأضاءت بالإشراق . ثم عاد وألقى في سمعها بكلمة رهيبة فوق على وجه الشمس مائة كسوف .

أي قول ألقاه الحق في سمع السحاب ، فصب من أعينه الدموع .

وما الذي تلاه الحق على مسمع الأرض حتى صارت مراقبة ولزمت الصمت . وكل من كان مبلبل الفكر في تردداته فقد ألقى الحق في أذنه لغزا معجمى . . حتى يجعله أسير ظنن : أعمل بما قاله لي أم أعمل بضده .

(١) سورة فصلت آية ١١ .

(٢) سورة يس آية ٨٢ - ٨٣ .

ومن الحق أن يرجع لديه أحد الجانبين . . تماماً مثلاً رجح لدى آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة ظناً بأنه سيخلد في الجنة إلى جوار الله تعالى .

قبل الخلق كان الله شئون .

وبعد الخلق كان الله شئون . .

وبعد أن يبيد الخلق فسيكون الله شئون . .

وهو سبحانه وتعالى القائل (كل يوم هو في شأن)^(١) .

ونحن لا نعرف ما المقصود بكلمة « كل يوم » . . لا نعرف بعقولنا البشرية أي يوم يقصد الله عز وجل . . نحن نحسب أيامنا بدورة الأرض حول الشمس . . أما أيام الله تعالى فأجل من أن يعرفها العقل البشري أو يقيسها . .

وللباريء الخالق شئون لا ندرinya . . وإن كنا نحس ببعض منها في حياتنا اليومية على الأرض ، الوقت مثلاً شأن من شئون الله ، والكون شأن من شئون الله ، والحياة والموت على الأرض شأنان من شئون الله . . وكل جلال في الكون أو خير هو شأن من شئون الله . . الزمان نفسه هو الاستمرار والتواتر المتجدد لشئون الباري عز وجل ، والله تعالى كما يقول العلماء شأنان معروfan هما : الرحمة والقهر . . أو هما : الجمال والجلال في إصطلاح الصوفية . . فالرحمة هي شأن الجمال ، والقهر هو شأن الجلال . . وهما ينعكسان على صفحة الزمان .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) فقال « من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كربلاً ويرفع قوماً ويضع آخرين » . . و يحدثنا القرآن الكريم عن طرف من شئون الله التي تتصل بحياتنا (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنتزع الملك من من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيديك الخير إنك على كل شيء قادر . . تو لم الليل في النهار وتو لم النهار في الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)^(١)

(١) سورة الرحمن آية ٢٩ .

نفهم من الآية الكريمة بعضاً من شئون الله . . وندرك كيف يهيمن
الحق على كل شيء ويسير كل شيء . . ابتداء من هبة الملك والعزّة ، وانتهاء
بتصوير الخلق في الأرحام والتحكم في نوع الخليقة .
**(هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز
الحكيم)^(٢) . .**

(يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور)^(٣) .
إذا كانت شئون الله تعالى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة . . فإن السؤال
والدعاء شأنان من شأنه سبحانه . .
(يسأله من في السماوات والأرض . كل يوم هو في شأن)^(٤) .

فسرها ابن قيم الجوزية بقوله :
يغفر الله ذنبنا ، ويفرج كربنا ، ويكشف غمّا ، وينصر مظلوما ، ويأخذ
ظالمـا ، ويفك عانيا ، ويغنى فقيرا ، ويجرـكـسـيرا ، ويشفى مريضا ، ويـقـيلـ
عثـرةـ ، ويـسـترـ عـورـةـ ، ويـعـزـ ذـلـيلاـ ، ويـذـلـ عـزـيزـاـ ، ويعـطـىـ سـائـلاـ ، ويـذـهـبـ
بـدـولـةـ ، ويـأـتـىـ بـأـخـرىـ ، ويدـاـولـ الأـيـامـ بـيـنـ النـاسـ وـيـرـفـعـ أـقـوـاماـ وـيـضـعـ
آخـرـينـ ، وـيـسـوقـ المـقـادـيرـ التـىـ قـدـرـهاـ قـبـلـ خـلـقـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ ،
فـلـاـ يـتـقدـمـ شـيـءـ مـنـهـاـ عـنـ وـقـتـهـ ، وـلـاـ يـتـأـخـرـ شـيـءـ مـنـهـاـ عـنـ مـوـعـدـهـ ، فـكـلـ شـيـءـ
أـحـصـاهـ فـيـ كـتـابـهـ وـجـرـىـ بـهـ قـلـمـهـ وـنـفـذـ فـيـ حـكـمـهـ وـسـبـقـ بـهـ عـلـمـهـ . . وـهـوـ
المـتـصـرـفـ فـيـ الـمـمـالـكـ كـلـهـ . .

تصـرـفـ مـلـكـ قـادـرـ قـاـهـرـ . . رـحـيمـ عـادـلـ . .

• • • • •

سبـانـهـ وـتـعـالـىـ .

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٦ .

(٣) سورة الشورى آية ٤٩ .

(٤) سورة الرحمن آية ٢٩ .

صفات الله

للغيب أسوار وأستار ..

ومفاتيح الغيب عند الله وحده ..

(وعنه مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو)^(١).

تأمل إعجاز النص القرآني في الدلالة على شدة الخفاء وإحكام الحراسة .. لم يقل النص أن عنده الغيب لا يعلمه إلا هو ، وإنما أضاف إلى خفاء الغيب خفاء المفاتيح التي تؤدي إليه ..

نحن أمام غيب أخفاه الله عن الخلق ، وأخفى مفاتيحه هي الأخرى عنده فلا يعلمه إلا هو (ويعلم ما في البر والبحر)^(٢).

يهيمن علمه سبحانه على كل ما يدب على البر أو يعيش فوقه ، وكل ما يسبح في البحر أو يتنفس في مياهه ، كل الخلائق ابتداء من الخلايا الوحيدة وانتهاء بالأنسان .. كلها تدخل تحت مظلة العلم الإلهي الذي لا يغيب عنه شيء .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمه)^(٣).

ها هو الخريف ينصب خيمته على الأرض .. الرياح الباردة تهب ، ودم الربيع الأخضر ينسحب من عروق الشجر ، ويوما بعد يوم يزحف صدأ الصفرة وذبول النهاية .. ويثقل وزن الورقة رغم خفتها على العنق الذي يوصلها بالغصن الأم ، وتتغضض عروق الورقة وتجف داخلها العصارة ، وتجيء النهاية أخيرا ..

يكفى مرور عصفور خائف .. تكفى هبة من الهواء .. أو تكفى جاذبية الأرض نفسها لتهوى الورقة .. تتهادى برفق على أكف الهواء حتى

(١) آية ٥٩ سورة الأنعام ، (٢) آية ٣٢ سورة الأنعام ، (٣) آية ٦٠ سورة الأنعام .

تصل إلى الأرض . . يعلم الله بسقوط هذه الورقة . . يعلم بسقوط أوراق الشجر في قارات الدنيا جميعاً . . يعلم ما الذي نقصته الشجرة حين فقده إحدى أوراقها ، ويعلم ما الذي ستزيده الأرض حين تحول الورقة إلى تراب . . يعلم مصيرها في الأرض بعد ذلك ، هل تكون غصناً جديداً في شجرة ، أو ورقة في زهرة ، أو جزءاً من تراب . . يعلم الله هذا كله قبل أن يقع . .

لماذا . . ما هي أهمية سقوط ورقة ذابلة منتهية ؟

نحن لا ندري لماذا ، ولا نعرف سر أهمية هذا الحادث المتكرر . . كل ما نعرفه أن الآية ترسم لنا صورة لعلم الله الشامل المهيمن الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . . حتى موت أوراق الشجر في الخريف يهيمن عليه علم الله . .

(ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)^(١) .

لا شيء يفلت من علمه أو يخرج عن حكمه أو يدركه النسيان . .

كل شيء مسجل في كتاب . . وكل شيء يعلمه الله . .

ذلك أن العلم . . صفة من صفات الله عز وجل . .

تحديثنا العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم عن صفات الله الواجب لكماله ، وهي صفات العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام .

ومن المعروف أن تعبير « صفات الله » لم يذكر في القرآن ولا في الحديث الصحيح ، ولا عرف استخدامه عن أحد من الصحابة والتابعين .

إنما ورد في الرد على إنكار المنكرين وإلحادهم قوله تعالى (سبحان رب رب العزة عما يصفون)^(٢) .

قبل أن ندخل في حديث الصفات ، نحب أن نلفت النظر إلى أن صفات الله تبارك وتعالى أعظم من أن تحصى ، وحقيقة فوق إدراك العقول ، وإن كان القرآن قد حدثنا عن بعض صفات الله ، فإنه لم يحدثنا عن كل صفاته ، مثلما أن القرآن الكريم وهو كلمات الله . . ليس كل كلماته . .

(١) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٢) سورة الصافات آية ١٨٠ .

ومن البديهي أن الله عز وجل صفات تتصل بغيرنا من العوالم والخلائق ، وسوف لا ندرى عنها شيئاً لو حدثنا القرآن عنها ، ومن هنا جاء السكوت عما لا ندرىه . . وجاء الحديث عما يمكن لنا فهمه على قدر طاقة العقول . .

وإذن يورد القرآن الكريم أهم الصفات التي ينبغي على المسلم أن يعرفها عن ربه . .

.

وجود الله تبارك وتعالى صفة أولى ، وهى من البداهة بحيث تدركها الفطرة بغير علم ولا فلسفه ، أو إثبات أو مشقة . . ويثبت القرآن الكريم وجود الله تعالى بالآف الأدلة .

(الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها)^(١) .

(وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواهى وأنهارا)^(٢) .

(وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة)^(٣) .

(وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهر)^(٤) .

تنبيء كل هذه الآيات بوجود الله تبارك وتعالى ، وتستدل عليه بما ترى من شئونه في حكم هذا الكون . .

يحدثنا القرآن الكريم أن الأزلية والخلود صفتان من صفات المولى عز وجل .

(هو الأول والآخر)^(٥) .

لم يكن قبله قبل ، ولا يكون بعده بعد . . يirth كل شيء لأنه الأول والآخر . . ويموت كل شيء ويبقى هو سبحانه .

(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)^(٦) .

نعرف من القرآن الكريم أن الله عز وجل ذاتاً تخالف الحوادث . . بمعنى أن المخلوقات الحادثة تجىء من وجود سابق ، أو تجىء من تزاوج بين ذكر وأنثى ، أما الحق عز وجل فيتعالى على القوانين الحاكمة لمخلوقاته . .

(١) سورة الرعد آية ٢ .

(٢) سورة الحديد آية ٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٧٨ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٨٠ .

(٥) سورة الحديد آية ٣ .

(٦) سورة الرحمن آية ٢٦ ؛ ٧٧ .

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)^(١) .

نعرف من العقيدة الإسلامية قيام الله تبارك وتعالى بنفسه ، واستغناءه عن خلقه واحتياجهم إليه (يا أيها الناس أنتم القراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)^(٢) .

تحدثنا العقيدة الإسلامية عن وحدانية الله تعالى :

(وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فلابد
فارهبون)^(٣) .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ،
وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)^(٤) .

(لو كان فيهما آلة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما
يصفون)^(٥) .

تحدثنا العقيدة الإسلامية عن قدرة الله تعالى ، وترينا أن هذه القدرة
الخالقة وراء كل ما تراه من صور الخلق ..

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من
يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ،
إن الله على كل شيء قادر)^(٦) .

نعرف من القرآن الكريم أن إرادة الله فوق كل إرادة ، وأن مشيئته تعلو
كل مشيئة . . (وما تشاءون إلا أن يشاء الله)^(٧) كما نعرف أن علم الله
تعالى يسع كل شيء ويحيط بكل شيء (يعلم ما في السماوات والأرض
ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عالم بذات الصدور)^(٨) .

يحدثنا القرآن أن الله تبارك وتعالى يتصرف بالحياة الكاملة التي تستمد
منها كل أنواع الحياة ، وتقوم بحكم كل أنواع الحياة (الله لا إله إلا هو الحي
القيوم)^(٩) .

(٦) سورة التور آية ٤٥ .

(٧) سورة الإنسان آية ٣٠ .

(٨) سورة التغابن آية ٤ .

(٩) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) سورة فاطر آية ١٥ .

(٣) سورة النحل آية ٥١ .

(٤) سورة المائدة آية ٧٣ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

كما يحدثنا الله أنه هو السميع البصير (إن الله هو السميع البصير)^(١).

وأنه يتصرف بصفة الكلام (وكلم الله موسى تكليما)^(٢).

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن صفات الله تبارك وتعالى هي كمال مطلق لا يتناهى . . .

سبحانه لا نحصي ثناء عليه . هو كما أثني على نفسه . . .
وهناك أمر خطير تنبه إليه العقيدة الإسلامية ، ويجب أن يغطّن إليه المؤمن ، وهذا الأمر هو أن المعنى المقصود باللّفظ في صفات الله تبارك وتعالى يختلف اختلافاً كاملاً عن المعنى الذي تقصده بهذا اللّفظ إذا صرفاً لصفات المخلوقين . بمعنى أننا إذا قلنا أن الله أعلم ، أو قلنا أن العلم صفة من صفات الله تعالى ، وقلنا أن فلان عالم ، أو العلم صفة لفلان من الناس . . . إذا قلنا هذا وجب أن نفهم أن المقصود بعلم الله ، شيء يختلف كل الاختلاف عن المقصود بعلم الناس . . .

علم الإنسان مكتسب . . . ومخلوق . . . ومحدود وناقص . . . وله بداية وله نهاية . . . علم الإنسان يعتمد على التجربة واستقراء الظواهر والنظر والتحليل . وعلم الله قديم وأزلي . . . ومطلق وكامل . . . وليس له ابتداء وليس له انتهاء . . . وهو علم لا يأخذ منه البشر إلا بمقدار ما يأخذه طير غميس منقاره في مياه البحر ، وإنّ لا يعد علم المخلوقين إلى جواره شيئاً ، وكذلك الحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والقدرة ، والإرادة . . . إذا وصفنا الله عز وجل بشيء من هذه الصفات ، وجب أن نفهم أن المعنى ليس هو المعنى البشري المتعارف عليه بيننا . . .

إن الله سبحانه وتعالى

(ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير)^(٣).

يتفق علماء المسلمين جميعاً على هذه الحقيقة . . . أن الله ليس كمثله شيء . . . غير أن الخلاف نشب حول تفسير بعض آيات الصفات .

(١) سورة غافر آية ٢٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

فقد وردت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة أحاديث يوم ظاهرها مشابهة الحق تبارك وتعالى لخلقه في صفاتهم . .
وهذه هي الآيات المتشابهة كما سماها القرآن :

قال تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ألم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الأنباب)^(١) .

وقد اختلف فهم العلماء لهذه الآية ذاتها ، فهم بعضهم أنها أمر بعدم التأويل ، وفهم بعضهم أنها أمر بالتأويل بشرط الرسوخ في العلم .
وقال الفريق الأول أن من الأدب الوقوف عند ظاهر النصوص وتفيض علمها إلى الله ، وكان هذا رأي السلف ، وقال علماء الخلف أن القرآن نزل على العقل البشري ، والعقل الإنساني مكلف بالمعرفة والفهم ، مأمور بهما ، والتأويل بغض النظر التنزيل واجب .

ما هي آيات الصفات ؟

أحياناً يذكر القرآن الكريم آية يتحدث فيها عن وجه الله أو يد الله أو نفسه سبحانه ، وأحياناً تتحدث الآيات أن الرحمن على العرش استوى ، وأحياناً تذكر أنه القاهر فوق عباده . . أو أنه في السماء . .
يقول تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام)^(٢) .

ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ الوجه مضافاً إلى الله عز وجل .
يقول تعالى : (وألقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني)^(٣) .
ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ العين مضافاً إلى الله عز وجل .
ويقول تعالى (يد الله فوق أيديهم)^(٤) .

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

(٢) سورة الرحمن آية ٢٦ - ٢٧ .

(٣) سورة طه آية ٣٩ .

(٤) سورة الفتح آية ١٠ .

وقال تعالى : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)^(١) .
 ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ اليد مضافا إلى الله عز وجل .
 يقول تعالى : (ويحذركم الله نفسه)^(٢) .
 ويقول تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)^(٣) .
 ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ النفس مضافا إلى الله سبحانه .
 قال تعالى (الرحمن على العرش استوى)^(٤) .
 فأثبتت الآية له الاستواء على العرش . . .
 قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده)^(٥) .
 مما يؤخذ منه نسبة الجهة لله تبارك وتعالى . . .
 من آيات الصفات ما يوحى بشبهة الحركة والانتقال في المكان والتحيز
 في جهة كقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا)^(٦) .
 وإلى جوار هذه الآيات ، أوردت السنة النبوية الفاظاً كالتي وردت في
 الآية السابقة . . . ومثال ذلك حديث النزول .

« ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول
 من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر
 له » .

.

هذه نماذج لأيات الصفات ، كيف فهمتها الفرق الإسلامية القديمة . . .
 وما هو الفهم اللائق بجلال الله فيها ؟
 في البداية .

يجب أن نفهم أن أي تجسيم لله أو أي تشبيه له . . . يخرج بصاحبها من
 ظلال العقيدة الإسلامية ، كما أن أي تعطيل للصفات بحيث تنكرها تماما
 يخرج بالمنكرين من ظلال العقيدة . . .
 وإن فان الأخذ بظاهر الآيات واعتقاد أن الله وجهاً كوجوه الخلق ،
 أو يداً كأيديهم ، يؤدي بصاحبها إلى وثنية جديدة تقف ضدها عقيدة الإسلام ،

(٤) سورة طه آية ٥ .

(٥) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٦) سورة الفجر آية ٢٢ .

(١) سورة المائدة آية ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية ١١٦ .

كما أن انكار الصفات ومدلولاتها هو لون من ألوان التحرير في العقيدة الإسلامية ، وهو وثنية جديدة يقف ضدها الإسلام ..

ما هو فهم علماء السلف والخلف لهذه الآيات والأحاديث ؟

عيبًا نبحث عن ظل لهذه القضية في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عصر الخلفاء الراشدين ، فقد كانت هذه العصور هي قمة بناء الدولة الإسلامية ، ولم يكن المسلمين الأوائل يتكلمون في العقائد ويتناذرون فيها ، وإنما كانوا يجاهدون في سبيل الله وينشرون الإسلام في الأرض . كانوا مسلمين عمليين ، وكانوا مؤمنين بحق ، وكان موقف السلف هو الإيمان بهذه الآيات والأحاديث وتصديقها كما وردت .. كانوا يثبتون ما أثبته الله لنفسه .. كاليد والعين والإستواء ، وكانت يتركون بيان المقصود منها الله عز وجل .. فهو سبحانه الذي يعلم المعنى الحقيقي المقصود .

سئل مالك بن أنس « الرحمن على العرش إستوى ». كيف إستوى ؟ .

قال « الإستواء معروف ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ثم أمر بالسائل فأخرج .

وسأله أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ ، أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَدِّثِ عَنْ أَحَادِيثِ الصَّفَاتِ ، مِثْلَ « أَنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعَالَى يَنْزَلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : نَؤْمِنُ بِهَا وَنَصْدِقُ بِهَا وَلَا نَسْأَلُ عَنِ الْكِيفِيَّةِ وَالْمَعْنَى ، لَا نَرْدِدُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْحَقُّ إِذَا كَانَ بِأَسَانِيدٍ صَحَّابٍ ، لَا نَرْدِدُ عَلَى اللَّهِ قَوْلَهُ ، وَلَا يَوْصِفُ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْثَرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، بِلَا حَدٍ وَلَا غَايَةً ، لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ .

وقال أَبُو عَبْدِ اللَّهِ « مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ سَمَاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ سَعْيَنَا كَمَا سَمَاهُ ، وَلَمْ نَتَكَلَّفْ مِنْهُ صَفَةً مَا سَوَاهُ ، لَا هَذَا وَلَا هَذَا .. لَا نَجِدُ مَا وَصَفَ ، وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةً مَا لَمْ يَصِفْ » .

.....

كان السلف كما ترى يرون الوقوف عند النصوص ، ولا يسمحون لأنفسهم بتأويلها ، لأنهم يرون أن معرفة صفات الله وذاته فوق إدراك العقل البشري ، وقد فهموا أن العقل لا يملك من القدرات ما يستطيع به إدراك الكيفية أو الكنه ، فتحاشوا السؤال بما .. وكيف ..

وقالوا : إذا عجزنا في أنفسنا عن « ما » دائمًا وعن « كيف » كثيرا .
كيف نستطيع أن نجيب « بما » و « كيف » في ذات الله وصفاته . . ؟
وما دام الأمر كذلك ، فنحن نؤمن بما جاء . . كما جاء . .
هذا هو موقف السلف رضوان الله عليهم . . موقف التسليم والتقويض
للله . آمنوا بالأيات كما وردت ، وتركوا المقصود منها الله عز وجل ، واعتقدوا
تنزيه الله تعالى عن المشابهة لخلقه .

أما موقف الخلف فقد اختلف ، إذ أنهم تقدمو بعقولهم في هذا المجال . .
قالوا إننا نقطع بأن معانى ألفاظ هذه الآيات لا يراد بها ظواهرها ، لقد نزل
القرآن بلغة العرب ، ونزل بلسان عربى مبين ، وللعرب تشبيهات
ومجازات ، وليس هناك ما يمنع من تأويل هذه الآيات وتتنزيه الله . .
وإذن فإن قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) يعني أن قدرته تعالى
تحفظ قرار المؤمنين بمبایعة الرسول ، يقول العرب أن البلدة في يد الأمير
ويكون الأمير مسافرا أو مقطوع البيد ، والقول كناية عن تبعية البلدة للأمير ،
وليس المعنى أنه يمسكها في يده . .

يقول أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي « ويقى وجه ربك » معناها
ويقى ربک ، أما « يريدون وجهه » فهي بمعنى يريدونه . . وقال الضحاك
وابو عبيدة « كل شيء هالك إلا وجهه » يعني إلا هو .

ويرى ابن الجوزي أن مذهب السلف لم يكن أخذ هذه الآيات على
ظواهرها ، لأن الأخذ بظواهرها فيه تجسيم وتشبيه ، إنما كان مذهب السلف هو
السكت تماما عن البحث فيها ، وهذا ما نعتقده .

ويقول فخر الدين الرازى « وإن علم أن نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها
على ظواهرها لوجهه . . الأول أن ظاهر قوله تعالى (ولتصنع على عينى)
يقتضى أن يكون موسى عليه السلام مستقرا على تلك العين ملتصقا بها
مستعليا عليها ، وذلك لا ي قوله عاقل ، والثاني أن قوله تعالى (واصنع الفلك
بأعيننا) يقتضى أن يكون الله تلك الصنعت هي العين ، وهذا ما لا ي قوله
عقل . . فثبتت أنه لا بد من المصير إلى التأويل . . فيصبح معنى هذه
الألفاظ هو شدة العناية والحراسة .

وقال حجة الإسلام الغزالى في تفسيره لحديث الرسول صلى الله عليه
 وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » قال : لو فتشنا عن

قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع ، فعلمنا أنها كنایة عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي ، وكفى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وفما في تفهم تمام الإقتدار ..

.....
هذا هو موقف الخلف من آيات الصفات . موقف استخدام العقل وتأويلها بما يفيض تنزيه الله عن مشابهة غيره ..

ورغم أن السلف والخلف كانوا يهتفان لتنزيه الله عز وجل .. رغم إتفاق الفريقين على أن ظاهر النصوص غير مراد في حق الله تعالى ، رغم معرفة كل من الفريقين أن اللغة إشارة إنسانية إلى شيء ، والله ليس كمثله شيء ، وبالتالي فإن تعبيرات اللغة في حقه لا تعنى ما تعنى في حق البشر ، رغم هذا كله اختلف الفريقان . يقول كتاب العقائد لشهيد الإسلام حسن البنا : « اتفق السلف والخلف على أصل التأويل ، وإنحصر الخلاف بينهما في أن الخلف زادوا تحديد المعنى المراد حسبما أجلاتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك ، حفظاً لعقائد العوام من شبهة التشبيه ، وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتا .. ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتغويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالإتباع ، حسماً لمادة التأويل والتعديل ، ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بکفر ولا فسوق .. ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قدیماً وحديثاً . وصدر الإسلام أوسع من هذا كله ، وقد لجأ أشد الناس تمسكاً برأي السلف إلى التأويل في عدة مواطن ، مثل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، من ذلك تأويله لحديث « الحجر الأسود يمین الله في أرضه » ، والخلاصة أن السلف والخلف قد إتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق ، وهو تأويل في الجملة ، وإنتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز ، فإنحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع ، وهو هين كما ترى ، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم ، وأهم ما يجب أن تتجه إليه هم المسلمين الآن هو توحيد الصفوف وجمع الكلمة » ..

.....
توحى الكلمات الأخيرة باشفارق المفكر الإسلامي على الأمة أن تختلف

كما اختلفت في الزمان القديم . .

ولقد كان للخلاف أسباب سياسية في الأعم الأغلب . .

وهذه الأسباب زالت بزوال الأيام وهلاك المتصارعين ، ولم يبق لنا غير
أسلوبين من أساليب النظر لآيات الصفات . .

ونحن نرى أن هدف السلف والخلف كان تنزيه الله تبارك وتعالى ،
وإذن فقد كان كلامها على حق . .

اختلفت مستويات النظر إلى الآيات . . واختلف فهمها تبعاً لذلك وكان
هدف المستويات جميعاً واحد ، هو إثبات أن الله ليس كمثله شيء . . لا نريد
أن نحكم لفرقة على فرقه . . فقد سقطت القضية بالتقادم ، ولا نحب أن نتهم
فرقه لحساب فرقه . . لأن الإسلام دين تجميع لا دين تفريق . .
كانت نوايا الفريقين إثبات التنزيه . . وكان كلامها على حق . . فقد
اختار إحدهما طريق التسليم وسلك الثاني طريق العقل ، وإن فإن
الاختلاف - في حدوده الضيقه هذه - من دلائل رحمة الله بعباده ، فقد ألم بهم
بآيات معينة . . ولم يلزمهم بفهم معين . .

ومن حق من يطمئن قلبه للتسليم كالسلف أن يسلم . .

ومن حق من يطمئن عقله للتأويل كالخلف أن يقول . .

هذا كله حق إذا وقع بين العلماء ولم يتجاوزهم إلى العامة وكان هدفه هو
التنزيه . .

الباطل أن يتهم أحد الفريقين الآخر بالخروج من الدين كما حدث
قديماً . . أو نستخدم العنف كأدلة للإنقاذ كما يحدثنا التاريخ .
صدر الإسلام أوسع من هذا كله .

يرينا التاريخ الإسلامي أن الفكرة التي تدثرت بالصمت البحث على فم
ابن حنبل . . كانت أقوى من كل سيف العامون والدولة العباسية . .
مرة أخرى . .

صدر الإسلام أوسع من هذا كله . .

ويعتبر رأى الإمام محمد عبده - الذي أورده في رسالة التوحيد - رأياً له
أهمية في هذا المجال ، لقد بدأ بذكر الحديث المنسوب إلى رسول الله :
« تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » فقال : إن لم يصح هذا
الحديث ، فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه » .

يرى الإمام أنه : إذا قدرنا عقل البشر حق قدره ، وجدنا غاية ما ينتهي إلى كماله ، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها . . وأما الوصول إلى كنه حقيقة ما ، فمما لا تبلغه قوة العقل البشري . .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله - إن كان سليماً - إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به ، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب . فالاشتغال بالاكتناه ، إضاعة لوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه .

يكفيانا من العلم بصفات الله أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك ، فهو مما يستأثر هو بعلمه ، ولا يمكن لقولنا أن نصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيهه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، وأما كيفية الانتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها . . وما علينا إلا الوقوف عند . . ما تبلغه عقولنا . .

علم الكلام

تقوم العقيدة الإسلامية على دعوة العقل للحضور ولفت انتباهه لما يدور حوله أو يجري داخله ، و تستنكر أن يقدم الإنسان أفكار أسلافه ويؤخر عقله .

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنما على آثارهم مهتدون)^(١) .

أيضا ينهض التكليف على العقل ، وحكم فاقد العقل أنه غير مكلف ولا مأمور بشيء ولا مسئول عن شيء . . .

وإذا كان القرآن قد أعلى من شأن العقل في عقيدة الإسلام ، وجعله أداة للخلافة في الأرض ، وتحقيق أمر الله فيها ، فإنه لم يجعل له الوصاية على القلب أو الروح ، ولم يجعله بديلا عن الوجدان أو المشاعر ، ولم يسمح له أن يكون حكما نهائيا في أمور الغيب أو العالم الآخر . . فهذه مناطق لا يمكن استكشافها بأنوار العقل وحده . .

ظل الأمر بهذا التوازن المدهش طوال عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وما تبعه من عصور راشدة ، لم يكن التوحيد أيامها علما نظريا يتناوله المسلمون بالبحث والمناظرات والجدل والفلسفة . .

كان الأمر أبسط من هذا وأعمق وأشد فعالية . .

كان التوحيد استمراً متقدما لبناء مجتمع الموحدين ودولتهم ، وكان التوحيد هو أخلاق القرآن وقد تحولت إلى رجال يسيرون على الأرض ، ولم يكن أحد من المسلمين العرب يتوقف عند المشاكل التي ستثور فيما بعد ، أو تلفت انتباهه القضايا التي لم ينكشف عنها ستار الغيب .

(١) سورة الزخرف آية ٢٢ .

ومرت أيام الله . . بكل ما يخبئه الحق فيها من إمتحانات ثقيلة ، وقد بدأت هذه الإمتحانات غداة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير أن يحدد من يخلفه بعده ، واختلف المهاجرون والأنصار فأسرع عمر بياع صاحب رسول الله في الغار ، أبا بكر الصديق ، واعتبر هذا التصرف تجاوزا - رغم حسن الاختيار - لأن المسلمين لم يستشاروا فيما يكون خليفة . واتبع أبو بكر طريقة ثانية . فعهد بالخلافة إلى عمر واتبع عمر طريقه ثلاثة ، فعهد إلى ستة من ذوى الحكمة والرأى باختيار خليفته ، وأختار عثمان بن عفان ، وكان عثمان بن عفان هو سيد أكبر دولة في الأرض ، ورغم هذا لم يكن في بيته سلاح يدفع به عن نفسه المهاجمين ، وفي يوم الجمعة ١٧ يونيو سنة ٦٥٦ ميلادية ، اقتحم الثائرون بيت عثمان وقتلوا وهو جالس يقرأ القرآن ، وسالت دماء الخليفة على نسخة القرآن التي كان يقرأ فيها ، واصطبغ القبيص بدمه ، وتداعت الأحداث وبدأت الفتنة الكبرى . . وصار قميص عثمان كافيا لإثارة الهموم وتحريك المطالبين بثاره ، ونجح معاوية بن أبي سفيان في استغلاله قميص عثمان فبُويع بالخلافة رسميا بعد أربع سنوات من استشهاد عثمان ، ووقعت في هذه السنوات محن ثقيلة .

كان على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قد أُمسى هو الشخصية الأولى بين المسلمين بعد وفاة عثمان ، وبايده الناس بالخلافة في مسجد المدينة ، ولكن عائشة رضي الله تعالى عنها دعت المؤمنين - وكانت في مكة - إلى الثأر لمقتل عثمان ، ووقفت ضد على ، ومرت الأيام فإذا عائشة وعلى بن أبي طالب يلتقيان في معركة . .

وكان الموقف باعثا على الدهشة العميقه . .

ووجهان من وجوه المسلمين لا يشك أحد في ايمانهما . . يقفن معا موقف الصراع ، انتصر على في الصراع ثم فوجيء بأن معاوية بن أبي سفيان ، رئيس البيت الأموي وأمير سوريا ، يرتدى قميص عثمان ويطالب بدمه ويتهمه بأنه كان وراء قتله . . كانت براءة على بن أبي طالب أرفع من أن تلتفت إلى التهمة ، وتداعت الأحداث فالتحق جيش على بن أبي طالب بجيش معاوية في واقعة صفين . . وقبل على التحكيم ، وخرج عليه الخوارج لأنه نزل على قرار هيئة من البشر ، بينما الحكم لله وحده . .

بعد ذلك قتل على كرم الله وجهه في مسجد الكوفة ، بعد سلسلة من

الخيانات الموجهة ضده ..

وهكذا أسرف الصراع بين على .. بكل تقواه وعلمه وورعه ، ومعاوية بكل دهائه ودنيويته وأطماعه ، أسرف الصراع عن فوز الأكثر دهاء ودنيوية .

في هذه الظروف كلها .. ولدت كلمة الاعتزال والمعتزلة .. حين بدأت المحنـة وقع القتال بين على وعائشة ، وعلى ومعاوية اعتزل حكام المسلمين هذا الصراع كله .. لم ينغمـسوا في حرب الجمل ولم يستدرجوا لواقعـة صفين ..

كان معتزلـة ذلك الزمان القديم يرون أن الحق لم ينكـشـف في أحد الجانبين انكـشـافـا يرجـحـه على الجانب الآخر ، وربما كانوا يـرون أن الحق مع أحد الجانبين بـدرـجـة أـكـبـرـ من الجانب الثانـي ، وكانـوا يـعـرـفـون أنـ عـلـيـاـ وـعـائـشـةـ مـؤـمـنـينـ ، فـكـرـهـوـاـ أـنـ يـدـخـلـوـاـ فـيـ القـتـالـ بـيـنـ مـؤـمـنـينـ ..

مهما يكن من أمر فقد ولـدتـ كـلـمةـ الـاعـتـزـالـ فـيـ ذـلـكـ العـصـرـ ، وـسـمـيـ هـؤـلـاءـ الـحـكـمـاءـ بـالـمـعـتـزـلـةـ .. بـعـدـ مـائـةـ عـامـ عـادـ الـاسـمـ إـلـىـ الـظـهـورـ بـظـهـورـ الـمـعـتـزـلـةـ الـذـيـنـ خـلـقـواـ عـلـمـ الـكـلـامـ فـيـ الـإـسـلـامـ ..

ما هو المقصود بـعلمـ الـكـلـامـ ؟ ما هيـ أـهـمـيـتـهـ وـأـسـبـابـ نـشـوـئـهـ وـأـهـدـافـهـ ؟
منـ هـمـ الـمـعـتـزـلـةـ ؟ كـيـفـ ظـهـرـوـاـ عـلـىـ مـسـرـحـ التـارـيـخـ الـإـسـلـامـيـ وكـيـفـ
أـسـدـلـ عـلـيـهـمـ السـتـارـ ؟

.....

علمـ الـكـلـامـ هوـ عـلـمـ التـوـحـيدـ .. وـهـوـ عـلـمـ يـبـحـثـ فـيـمـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ يـعـرـفـهـ
الـمـسـلـمـ عـنـ اللـهـ وـأـسـمـائـهـ وـصـفـاتـهـ ، وـيـبـحـثـ فـيـ الـأـنـبـيـاءـ وـالـرـسـلـ وـالـرـسـالـاتـ ،
وـيـبـحـثـ فـيـ الـقـضـاءـ وـالـقـدـرـ وـالـإـيمـانـ وـالـحـسـابـ ، هـوـ عـلـمـ مـوـضـوعـهـ أـصـوـلـ
الـدـيـنـ وـعـقـائـدـهـ ، وـهـدـفـهـ حـرـاسـةـ الـعـقـيـدةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـنـ غـارـاتـ الـفـكـرـ الـوـثـنـىـ
عـلـيـهـا ..

وـالـعـلـمـ بـوـضـعـهـ هـذـاـ مـنـ أـخـطـرـ الـعـلـمـ الـإـسـلـامـيـةـ .. غـيرـ أـنـهـ أـخـطـأـ فـيـ
بـداـيـةـ حـيـاتـهـ عـدـةـ أـخـطـاءـ كـانـتـ كـافـيـةـ لـذـهـابـ دـولـتـهـ ..

هلـ كـانـ مـنـ الـخـيـرـ أـنـ يـنـشـأـ عـلـمـ الـكـلـامـ فـيـ الـإـسـلـامـ ؟
يرـىـ الأـسـتـاذـ يـحـيـيـ هـاشـمـ حـسـنـ فـرـغـلـ فـيـ رـسـالـتـهـ التـىـ حـصـلـ بـهـاـ عـلـىـ
دـرـجـةـ الـمـاجـسـتـيرـ «ـ أـنـ عـلـمـ الـكـلـامـ قـامـ بـهـدـفـ دـفـاعـيـ جـلـيلـ وـخـطـيرـ ، هـوـ

المحافظة على عقائد المسلمين ، وكان عليه أن يتصدّى أعداء الإسلام .
وأخطرهم ، وأقواهم سلاحا ..

وإن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره ، لما كان يمكن أن يحدث لو أن
هجوم العقائد المغيرة وجد بين المسلمين فراغاً أو التقى فيهم بالموافق
السلبية ..

وكان لهذا العلم ، إلى جوار هدفه الدفاعي دور إيجابي يتعلق بتفهم
مسائل العقيدة كما وردت في الكتاب والسنة .. وصحيح أن المنهج الذي
عولج به هذا العلم مؤخراً كان غريباً على روح القرآن والسنة ، وصحيح أن
هذا العلم كان سبباً في احداث المذاهب وترسيخ التفرقة وإثارة الشبهات واحياء
الجدل ، إلا أن له غاية جليلة ينبغي الالتفات إليها ، هي قيادة مسيرة الحضارة
الإسلامية في طريقها ». أ.ه.

والحق أن علم الكلام نشأ لأسباب عديدة ..

كانت حروب التحرير الإسلامية قد شقت طريقها في قلب العالم القديم
مثل سكين يشق قطعة من الزبد ، لم يكدر يمضي عام واحد على وفاة الرسول
صلى الله عليه وسلم حتى كان جنوب العراق قد فتح ، بعده بثلاث سنوات
فتحت دمشق واندحر الفرس في القادسية ، بعد سبع سنوات فتحت مصر ،
بعد مصر بعام تهاوت فارس ، بعد ١٥ عاماً ، استسلمت طرابلس الغرب ،
بعد ١٧ عاماً احتلت قبرص ، بعد ٣٨ عاماً من وفاة الرسول فتحت أفريقيا
على يد عقبة بن نافع ، وفي خلال أعوام قصيرة فتحت القسطنطينية والأندلس
والسند ، ولم يكدر القرن الأول يمضي على انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ،
حتى كانت القوتان العظيمتان في الأرض قد خضعتا للإسلام ، وفتحت ممالك
الأرض العاملة أبوابها لرأيات التوحيد . وترامت الديار الإسلامية شمالاً
وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وكانت السرعة التي تم بها فتح هذه الدول دليلاً على
قدرة التوحيد على تغيير الحياة والمجتمعات .

وكان من آثار هذه الفتوح أن دخلت في الإسلام أمم وأجناس وأفكار
وثقافات وفلسفات جديدة ، واحتلّت الفرس بالروم بالسريان بالمجوس
بالعرب ، وأسلم كثير من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ، أسلموا
ورؤوسهم مملوهة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم إلا النطق بالشهادتين .
وسرعان ما أثروا في الإسلام نفس المسائل التي كانت تثار في أديانهم .

وكانت هذه الأديان قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ، ونظمت طرق بحثها وتعمقت في ذلك كثيرا ، وبدأ الهجوم على الإسلام من داخله ، بدأت اثارة الشكوك حوله ، ولم يكن في استطاعة الإسلام أن يضرب الأفكار المثارة بالسيف ، وإن فقد ميزة من أخطر ميزاته ، وهي سماحة بالحرية وتسامحه الفكري إنما أضطر العلماء أن يتصدوا بالفكرة .. وكان هذا من أسباب نشأة علم الكلام .. إلى جوار أسباب عديدة أخرى كالسياسة والصراع بين الفرق وإمتزاج الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى ..

وحين ظهر المعتزلة على مسرح حوادث .. كانوا قد درسوا الفرق الأجنبية وأقوالها وحججها وكانوا مطلعين على أقوال الخصوم وأدليتهم ، وكانوا مسلحين بالفلسفة اليونانية والمنطق واللاهوت ، وهكذا قرأ النظام ارسطو ورد عليه .. واستخدم كثير من المعتزلة تعبيرات الفلسفه .. وكانوا يمثلون فكرا متقدما في زمانهم ، رغم ذلك صنفهم كثير من علماء الزمان القديم مع أهل البدع والخارجين على الإسلام .

يقول الإمام الموفق ابن قدامه المقدسي .. في رسالته لمعة الاعتقاد .

« من السنة هجران أهل البدع ومبaitهم وترك الجدال والخصومات في الدين ، وترك النظر في كتب المبتدعة ، والإصغاء إلى كلامهم ، وكل محدثة في الدين بدعة ، وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع كالرافضة والجهامية والخوارج والقدرية والمرجئة والمعتزلة والكرامية والكلابية ونظائرهم ، بهذه فرق الضلال وطوائف البدع أعادنا الله منها »^(١) .

(١) أما الرافضة فقد جاءوا إلى زيد بن الحسين بن على بن أبي طالب ، وطلبو منه أن يتبرأ من أبيه بكر وعمر حتى يكونوا معه ، فقال بل أتوهلاهما وأنبرا من تبراً منهما . فقالوا إذا نرفضك ، فرفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضة أما الجهمية فينتسبون إلى جهم بن صفوان ؛ وهم من الجبرية الخالصة ، الذين وافقوا المعتزلة على نفي صفات الله الأزلية وزادوا عليهم .

أما الخوارج فهم الذين خرجوا على سيدنا على بن أبي طالب رضى الله عنه وقالوا « لا حكم إلا لله » فقال : كلمة حق يراد بها باطل .. والخوارج لا يطيعون السلطان من أئمة المسلمين . أما القدرية فقد لقبوا بذلك لأنstandsهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم كل دور للقدر فيها ، وهذا يقتضي إثبات خالق لأفعال العباد غير الله .

هذا رأى عالم من القدماء . . وهو رأى يضع المعتزلة مع أعدائهم في سلة واحدة ، كانوا يقولون بحرية الإنسان وإرادته الكاملة ، فساواهم العلماء بمن يقول بانعدام إرادة الإنسان مطلقاً . .

ولعل الإمام ابن قدامة لم ينظر في كلام المعتزلة إلا وهو ضيق الصدر ، لعله نظر في الآثار التي نجمت عن كلامهم أكثر مما نظر في كلامهم ، وقد كانت آثاراً تعسة حقاً .

وفي المحدثين من يغضض الطرف عن آثار كلامهم ، وينظر فيما قالوه وحده . . فيراه خيراً كله . . كالدكتور محمد عمارة في تحقيقه لرسائل العدل والتوحيد . . يقول : « فالمعزلة ، أهل العدل والتوحيد ، مثلاً ، هم أكثر المدارس الفكرية تعبيراً عن أصالة الشخصية العربية الإسلامية ، فهم الذين استخدمواً المنهج العقلي في البحث ، دون أن يكونوا أسرى الفكر اليوناني ، ودون أن ينفصلوا عن قضايا العقيدة التي كانت تزخر بها المجتمعات العربية الإسلامية في عصورهم ، والذين كانوا رجال فكر وسياسة وثورات وعلم وهندسة وزهد . . هذه المدرسة لا تزال آثارها حبيسة المخطوطات موزعة في مختلف المكتبات ، على الرغم من قلة هذه النصوص التي بقيت لأهل الإعزال ، حيث أن الجانب الأكبر من آثارهم قد أبيد بفعل أعدائهم منذ قرون » . .

• • • • •

أنت ترى كيف يختلف العلماء حول المعتزلة ، والحق أن المعتزلة لم يكونوا ابتداعاً بحثاً وشراً محضاً كما يرى الإمام ابن قدامة ، ولم يكونوا خيراً بحثاً كما يرى د . محمد عمارة .

أما المرجئة فأصناف : صنف منهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم المراد هنا .

أما المعتزلة فهم نشأوا من فريق في جيش على واعتزلوا السياسة ؛ وقيل سموا بذلك لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري وعلى رأسهم واصل بن عطاء ، وكان غالب بدعهم وظلالهم من الكلام والفلسفة .

أما الكرامية فأصحاب أبي عبد الله بن محمد بن كرام ، وكان من يثبت الصفات إلا أنه يتنهى إلى التجسيم والتشبيه .

أما الكلابية فينسبون إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري ، وهو منTalk ، وهو رئيس الطائفة الكلابية ، وكانت بيته وبين المعتزلة مناظرات .

كان المعتزلة كبشر مزيجا من الخير والشر ، كانوا مفكرين من طراز عقلى جرىء ، كانوا فرسان الجناح العقلى فى الإسلام . .
لكن غلوهم فى العقل أفسد كل شيء . .
جاءت النتائج شبيهة بالغلو فى الخرافه . .
وقد دخل المعتزلة مسرح التاريخ الإسلامي بشكل بالغ الجسارة . .
انهم يدافعون عن الإسلام فى الفصل الأول . . يتحدثون كثيرا عن الحرية التى منحها الله لعباده حتى صاروا يخلقون أفعالهم . .
غير أنهم فى الفصل الأخير يخبون السيفوف فى عباءاتهم توطئة لذبح هذه الحرية التى منحها الله لعباده ، ولقد صدرت منهم فى البداية مئات الكلمات الطيبة ، وأهدر قيمتها الفكرية التماع الضوء على سيفوف القهر والإلزام .
ولقد ارتكب المعتزلة عشرات الأخطاء التى ولدت كلها من خطأ رئيسي واحد . . هو الافتتان بالعقل . .
رأى المعتزلة أن العقول خلقت للمعرفة . . نحن نعرف الله والنبي بالعقل ، وإن يجيء العقل قبل كل شيء ، ويملك العقل النظر فى كل شيء ، ويستطيع حل جميع المعضلات ، بل إن مهمة العقل أن ينظر فى كل شيء ، ويناقش كل شيء ، ويستكشف كل شيء .
كان تفكير المعتزلة تفكيرا حادا يتسم بالجرأة ، وكان فيهم تعصب أساء إلى دعوتهم ، وعنف أفقدهم عطف الناس ، وكانت فيهم جرأة على الحقيقة ، وهذه حسنة من حسناتهم ، غير أن جرأتهم امتدت إلى الناس ، ثم ما لبثت أن اجترأت على الله عز وجل . . فحاولوا قياسه . . سبحانه على القوانين البشرية . .
وحين قاومهم العلماء رفعوا سيفوفهم وقتلوا من تختلف وجهات نظره عن وجهة نظرهم . .
وانتهى بهم الأمر إلى أن صرخوا على العقل أن يعد سفينته للإبحار فى محيط الألوهية الجليل . .
كانت رحلة بلا عودة . .
وغابت السفينة فى غياهب الموج . .

وتحطمت سفينة الاعتزاز ، وذهب المعتزلة إلى غير رجعة ، وأضيف ذهابهم في الحساب النهائي لقائمة الخسائر التي لحقت بال المسلمين ، فقد كانوا يستطيعون إضافة الكثير لل الفكر الإسلامي ، لو أنهم ساروا بعقولهم في الطريق الصحيح الذي خلقت له ، وهو طريق العلوم البشرية ، لا طريق علم الكلام . .

أو لو أنهم ساروا في علمهم هذا سيرته الطبيعية داخل قاعات الدرس ولم يخرجوا به إلى الناس ويحاولون فرضه على العامة . .

ان الغوص في أعماق الأشياء جزء من مهمة العقل الإنساني ورسالته ، ولكن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، والخوض في ذاته وصفاته وأفعاله ومشيئته بالعقل وحده ، لا يقود إلى شيء . . ان مقام البشرية هو العلم البشري . . هذا مقام العقل ومجاله ، ووقف الإنسان عند حدوده ذكاء ونضج ، ولو أتنا تصورنا النتائج التي يفيد منها المسلمون من عقول المعتزلة الجريئة لو أنها انصرفت إلى الطب والفقه والهندسة والفلك بدل انصرافها للصفات وأفعال الله وخلق القرآن . . لو تصورنا التقدم الذي كان متاحا بهذه الإمكانيات ، وكيف ذهب هذا كله إلى حيث لا يفيد منه أحد ، بل أهدر هذا كله فيما يعود بالضرر العام . .

لو تصورنا هذا لأدركنا مدى الخسارة . .

ينتقد الدكتور أحمد أمين أصول المعتزلة ويحللها فيعرف بما لهم من فضل ، ويقر بما أحدثوا من آثام . . يقول : « ان التاريخ الإسلامي لم يشهد قبل المعتزلة هذا القول الشامل الفلسفى فى الله وصفاته وأفعاله ، مع البراهين العقلية ، والحجج النقلية ، كما شهد فى المعتزلة ، وقد كانت نظرتهم فى توحيد الله نظرة فى غاية السمو والرقة ، فطبقوا قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) أبدع تطبيق ، وفصلوه خير تفصيل ، وحاربوا كل المذاهب التى تلتتصق بالتجسيم والتشبيه . . كما وقفوا أمام مشكلة المثبتة والعقبة فرأوا أن ذلك لا يكون له معنى إلا بتقرير حرية الإرادة فى الإنسان . . وأنه خلق أعماله نفسه ، وإن فى امكانه أن يفعل الشيء وألا يفعل ، فإذا فعل بإرادته وترك بإرادته ، كانت مثوبته أو عقوبته عادلة ومعقولة ، أما إذا كان الله يخلق الإنسان ويضطره إلى العمل على نحو

خاص ، فيضطر المطيع إلى الطاعة ، والعاصي إلى العصيان ، ثم يعاقب هذا ويثيب هذا ، فليس من العدالة في شيء .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الله على الإنسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد أذموا الله - مثلا - بالعدل كما يتصوره الإنسان ، وكما هو نظام دنيوي ، وفاتهم أن معنى العدل - حتى في الدنيا - معنى نسبي يتغير تصوره بتغير الزمان ، وإن ما كان عدلا في القرون الوسطى يعد ظلما الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله ... أه ..

.....

ما هي أصول المعتزلة ؟

يقوم الإعتزال على خمسة أصول (★) القول بالتوحيد ، (★) القول بالعدل ، (★) القول بالوعد والوعيد ، (★) القول بالمنزلة بين المترادفين ، (★) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أول أصل من أصول المعتزلة هو التوحيد ، وقد ذهبوا في تفسيره لأعمق بعيدة ، وبلغوا في تحليله وفلسفته أقصى حد ، فهم يرون كمسلمين أن الله ليس كمثله شيء ، وكان كثير من علماء المسلمين يومئذ يؤمنون بالتنزيه إيمانا مजملأ ويمسكون عن الكلام في الآيات المتشابهة ، أما المعتزلة فقالوا أننا نستمسك بأيات التنزيه وتعرض للآيات الأخرى ونتأولها تأويلا يتفق والتنزيه ، ولا نعكس ، لأن الإسلام دين توحيد وتنزيه ..

وصحيح أن المسلمين جميا يقولون بالتوحيد والتنزيه ، ولكن المعتزلة يضيفون بعدها فلسفيا بالحديث عن النتائج التي تلزم القول بالتوحيد ، وعندهم أن من هذه النتائج أن يكون الله أزليا بذاته ، أما صفاته تعالى فليس لها استقلال عن الذات ، بمعنى أن علم الله ليس صفة منفصلة عن الذات الإلهية ، فهو عالم بتلك الذات الإلهية نفسها ، لا يوقوف صفة العلم وحدها ، ولم يكن هذا اللون من الكلام - الذي يستخدم أدوات المنطق والفلسفة اليونانية مستساغا أو مفهوما عند الكافة ، فعارضه السلفيون وقالوا أن المعتزلة يعطّلون صفات الله ولها سموهم بالمعطلة .

نظر المعتزلة للآيات المتشابهة الواردة في الصفات كاليد والعين ، وأولوا

المعانى بالقدرة والرعاية ، مضيا مع التنزيه إلى نهايته . . أيضاً توقف المعتزلة عند وصف كلام الله ، وتساءلوا هل هو أزلى ك الله أو حادث ومخلوق ، واعتقدوا أنه مخلوق ، وعارض المحدثون وقالوا إن القرآن كلام الله تعالى ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، فإذاً هذه المسألة بدعة لم يقلها النبي ولا أصحابه ، فلا نتابعكم في السير فيها . هذا أول أصل من أصول المعتزلة . . قولهم بالتوحيد بأبعاده الفلسفية الجديدة ، أما الأصل الثاني فقولهم بالعدل الإلهي ، فهم لا يتصورون العدل الإلهي إلا إذا كان الإنسان صاحب إرادة حرة قادرة على الفعل ، ولهذا وقف المعتزلة في صف الحرية الإنسانية ، وجادلوا القائلين بالجبر وفندوا أقوالهم ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان ، كانوا يعارضون أن يكون الإنسان كالريشة في مهب الريح ، أو كالخشب بين يدي الأمواج .

أما الأصل الثالث فقولهم بالوعد والوعيد ، والمقصود بالوعد أن يثاب من خرج من الدنيا على طاعة وتوبة ، ومعنى التوحيد أن يعاقب من خرج من الدنيا من غير توبة ، فهم يربطون الثواب والعقاب بالأعمال ربطة حتماً ، وغلا بعضهم في التعبير قالوا : يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، إشار إلى اعتقادهم أن ثواب الطاعات وعقاب المعاصي قانون حتمي التزم الله تعالى به .

وقد تفرع عن هذا الأصل ، القول بالمنزلة بين المترفين ، وهو القول في مؤمن ارتكب كبيرة من الكبائر ، ان رأى المعتزلة أنه لا يظل مؤمناً ، ولا يصير كافراً ، فهو في منزلة بين المترفين : الكفر والإيمان ، ولقد كان هذا نقطة البدء للمذهب المعتزلي كله ، ذلك أن القتال بين على ومعاوية أثار في أذهان الناس قضية هامة ، ان «علياً» يقاتل دفاعاً عن الإسلام ، ومعاوية يقاتل - كما يزعم - دفاعاً عن الإسلام ، ومحال أن يكون الطرفان المتقاتلان على صواب ، لا بد أن يكون أحدهما على الأقل مخطئاً ، هذا الخطأ قد أودى بأرواح مئات الضحايا من خيرة الناس ، ما هو الحكم فيمن يثبت أنه هو المخطيء ؟

هل يكفر أم لا . . قال الخوارج أنه يكفر ، وقال المرجئة بتأجيل الحكم إلى يوم الحساب . فلما عرض الأمر على مجلس الحسن البصري ، وكان

وأصل بن عطاء بين الحاضرين فأفني بأن مرتكب الكبيرة يقع في منزلة بين المنزلتين (يقصد الإيمان والكفر) ، ولم يرض شيخه الحسن البصري عن هذه الفتوى ، فترك وأصل مجلسه وجلس بعيدا عنه في المسجد . . قال الحسن البصري :

اعتلنا وأصل . .

وكان اعترافه هذا بداية الاعتزال والمعتزلة .

أخيرا يجيء الأصل الخامس من أصولهم ، وهو الأمر بالمعرفة والنفي عن المنكر . ويرى المعتزلة أن هذا الأمر ليس جملة تقال بالفهم ، وإنما هو سلوك يجب على المؤمنين أن يسلكوه ، بمعنى التدخل للنفي عن المنكر بالقوة ، وحمل الناس بالقوة على ما يرونها واجب الإتباع ، وهذا هو تصورهم للجهاد في سبيل الله . .

هذه صورة سريعة لما أراده المعتزلة للناس من مبادئ الفكر والعمل . . ورغم أن جزءا من كلام المعتزلة كان دفاعا عن التوحيد والتزarah . وكان يثبت الله تعالى الخير وينسب الشر للإنسان ، وكان يرى أن الإنسان حر ومحظوظ وفاعل ، وهذا كلّه صواب وخير . .

غير أنهم بدأوا الشر يوم أفلت منهم قياد العقول ، ولم يعد فيهم من يستطيع كبح جماحها . . وكان هذا يوم ابتدعوا بدعتهم في القول بخلق القرآن ، وحاولوا فرض رأيهم على الناس بقوة السيف .

.....

ظهر القول بخلق القرآن في آخر الدولة الأموية على لسان الجعد ابن رهم ، معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . . ولم يكن هذا القول بلا أصل ، فأصله البعيد يرجع لطالوت بن أعمص اليهودي .

منشأ الفكرة كما ترى هم اليهود . . ونحن نعلم كيف كاد اليهود للإسلام ، ووضعوا في السنة مئات الأحاديث المكذوبة ، واحتالوا على القرآن فلم يستطعوا الإضافة إليه أو التبديل فيه ، فتساءلوا هل هو قديم أم مخلوق ، وذهبوا إلى أنه مخلوق . . وورثت المعتزلة هذا القول عن الجعد والجهنم . . ولسنا نعرف ، هل وقع المعتزلة في الفخ دون ادراك ؟ أو ورثوا هذا القول كما يرث المقاتل سلاحا من أسلحة خصمه في حرب مستمرة ، فيستخدم السلاح دون أن يدرك خطره على عقيدته . . لا نعرف الحقيقة في هذا كلّه

لأن نواياهم ملك الله وحده هو المطلع عليها . . كل ما نعرفه أنهم أخطأوا خطأهم البالغ حين ذهبوا إلى القول بـكفر من يخالفهم في الرأي ، وظللت المسألة تنموا ويدور حولها الجدل ، وتنسع فيها الأقوال ، وتؤلف فيها الكتب حتى جاء عصر المؤمنون .

وكانت مسألة خلق القرآن هي المسألة التي ترکز فيها الاعتزاز في عصره ، وولدت المحنّة على يديه سنة ٢١٨ هجرية ، واستمرت ستة عشر عاماً كاملة ، وبعدها رحم الله وانتهت المحنّة .

بدأت المحنّة برسالة من المؤمن بن الرشيد العباسي إلى إلى بغداد ، يخبره فيها أن الجمّهور الأعظم والسود الأكبر من حشو الرعية وسفالة العامة أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلاله عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، والسر في ذلك أنهم ساواوا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن . . فاعتقدوا أن القرآن قديم أزلٍ لم يخلقه الله ، مع أن الله يقول في كتابه (أنا جعلناه قرآنًا عربياً) وكل ما جعله الله فقد خلقه . . قال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر أنه قصص لأمور حادثة ، وإنـ فـهـوـ حـادـثـ ، بـعـدـ هـذـهـ المـقـدـمـةـ أـخـبـرـ المـأـمـونـ وـالـىـ بـغـدـاـدـ أـنـ هـنـاكـ مـنـ يـقـولـ بـقـدـمـ الـقـرـآنـ ، وـهـؤـلـاءـ شـرـ الـأـمـةـ ، وـرـوـوسـ الضـلـالـةـ الـمـنـفـوـصـوـنـ مـنـ التـوـحـيدـ . . بعد ذلك أصدر المؤمن أمره إلى الوالي أن يجمع القضاة ويقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ويبداً امتحانهم فيما يقولون .

رأى المؤمن ان واجبه تصحيح عقائد الناس الفاسدة ، بوصفه خليفة المسلمين ، كان المؤمن معتزلياً ، فقرر امتحان العلماء في مذهبـهـ ، من أقرـهـ أجازـهـ المؤـمـونـ ، وـمـنـ خـالـفـهـ فـصـلـهـ مـنـ مـنـصـبـهـ .

وبدأت أغرب فتنـةـ في تاريخ الإسلام .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوـيـ : « احتضنت الدولة العباسية الكبرى في عهد ملك من أقوى ملوكها ، وأعظمهم شأنـاـ وسلطاناـ ، عقيدة لا يفهمها العامة ، ولا يوافق عليها جمهور العلماء ، ولا يستسيغها الشعب ، وفرضتها على الجمـهـورـ ، وجعلـتـهاـ فـارـقاـ بـيـنـ الـكـفـرـ وـالـإـيمـانـ ، وـالـشـرـكـ وـالـتـوـحـيدـ ، وأـمـرـتـ بـإـقـسـاءـ كـلـ مـنـ لـاـ يـدـيـنـ بـهـ أـوـ يـخـالـفـهـ ، وـامـتـحـانـهـ وـتـعـذـيـهـ ، فـكـانـتـ مـحـنـةـ عـظـيـمةـ عـلـىـ الـأـمـةـ ، وـفـكـرـةـ فـلـسـفـيـةـ ضـاقـ عـنـهـ تـفـكـيرـ الـعـامـةـ ، وـضـافـتـ بـهـ نـفـوسـهـمـ ، لـأـنـهـ تـطـلـبـ مـسـتـوـيـ عـلـمـيـاـ رـاقـيـاـ ، وـإـلـمـاـمـاـ بـالـفـلـسـفـةـ وـذـكـاءـ ،

والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب ، ويعجبني في ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين ، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهم ، على ذكائهم ، في هذا الشأن : « كان عقل المعتزلة عقلاً حاداً جافاً فلسفياً ، وأضعف نقطة فيه أنه اراد أن يفرض على العامة فرضاً ، واراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللا محدود ، والوحدة والتعدد والمكان والجهة ، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط ، ولا أدرى إذا كان ذلك في مصلحة الإنسانية أو لا » . . .

• • • • •

يسخر الأستاذ أحمد أمين من المعتزلة بعبارته الأخيرة ، ولقد كان محقاً في سخريته ، من تناقضات المعتزلة أن عقليهم رغم إيمانه بالحرية ، كان متغصباً غاية التعصب ، فلم يفهم إلا حريته وحده ، ولم ير إلا رأيه فحسب ، وكل من يخالفه الرأي خرج من حظيرة العقيدة الإسلامية بقرار أميرى يصدره أمير المؤمنين . .

وتطورت المحنـة . . بعد خطاب المأمون الأول عاد يرسل خطابه الثاني طالباً فيه سبعة من أهل السنة ليتحنّهم بنفسه . . وكان السبعة يقولون بأزلية القرآن ويشنعون على المأمون ، وحضر العلماء فامتحنّهم المأمون وسط جو من الإرهاب فقالوا إن القرآن مخلوق . . ويبدو أنهم لجأوا إلى ما يعرف في الإسلام باسم التقية . . بمعنى أنهم اتفقاً سخط الخليفة ووافقوا على ما يقول رغم ثبات قلوبهم على الإيمان . .

وقوى جانب الحكومة بعد هذا الحادث ، وحزن أهل السنة كما حزن العامة . . وعاد المأمون يتجرأ فأرسل خطاباً ثالثاً لوالى بغداد ، أعلن فيه أنه مسئول عن رعيته ، مسئول عن توحيدهم ، والقول بقدم القرآن شبه إشراك ، فيجب أن يحارب كما يحارب الشرك . . وهكذا أصدر الخليفة أمره بقتل مخالفيه في عقيدته . . واستند للفكرة التالية :

ان القول بقدم القرآن يضاهى قول النصارى في ادعائهم أن عيسى ابن مريم غير مخلوق . .

ان عيسى مخلوق ومحدث . . وكذلك القرآن . .

ويتصدر هذا الأمر الأميري تهياً مسرح الحوادث لاستقبال كثير من الدماء التي سوف تجريها سيف الخليفة المسلولة ..

وتهياً المسرح لاستقبال البطل الذي يستطيع تحدي الحكومة والانتصار لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وكانت الحكومة تفرض الاعتزال ، والشعب كله بعلمائه يقف ضده . وجاء دور امتحان أحمد بن حنبل ..

سأله والي بغداد إسحاق بن ابراهيم : ما تقول في القرآن .

قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله .

سأله إسحاق : أملحوق هو ؟

قال أحمد بن حنبل : هو كلام الله لا أزيد عليها.

قال إسحاق : ما معنى أنه تعالى سميع بصير .

قال أحمد : هو كما وصف نفسه ..

قال إسحاق : فما معناه .

قال أحمد بن حنبل : لا أدرى .. هو كما وصف نفسه ..

حرر إسحاق بن ابراهيم محضرا بجميع أقوال الممتحنين ومن بينهم أحمد بن حنبل وأرسلها إلى المأمون ، فثارت ثائرته وجن جنونه ، ان العلماء جميعاً يقولون أن القرآن كلام الله ، وفيهم من يصرح بأنه مجعل لقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآن عربياً) ورغم تصريحه بأنه مجعل ، إلا أنه يرفض أن يقول أنه مخلوق .. وطارت رسالة من المأمون إلى والي بغداد أن يقبض على العلماء ويمتحنهم .. فإذا لم يرجعوا ويتوبيوا فليرسل إليه المعاذين ، وسيحملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا فوة إلا بالله ..

وقبضت سلطات بغداد على ثلاثة عالماً وقاضياً ومحدثاً وفقيها .. وأعادوا امتحانهم بعد أن قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وكان السيف يوم مضى وراء كل كلمة من كلماته .. وأقرروا جميعاً بأن القرآن مخلوق إلا أربعة ..

أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقاريري ، ومحمد بن نوح ، فأمر بهم والي فقيدوا في الحديد ، فلما أصبحوا أعد عليهم امتحانهم فأعترف سجادة بخلق القرآن فأخلت سبيله ، وبعد يوم أجاب القواريري فأطلقه ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، وصدرت الأوامر بحملهما معاً إلى الخليفة بعد شدهما في الحديد ..

ومات المأمون وأحمد بن حنبل في طريقه إليه ، فأعادتهما السلطات إلى
بغداد . .

ومات محمد بن نوح وهو عائد من بغداد ، وانتقلت الخلافة إلى المعتصم
شقيق المأمون .

وتركت رياضة المعارضين في أحمد بن حنبل . .
كان الموقف يوحى بالرهبة . .

رجل واحد يقف أمام أقوى دولة في الأرض .

كان المعتصم رجلا عسكريا صرفه الشئون العسكرية عن الانغماض
في علم الكلام ، وكان يغالب سأمه وهو يستمع لجدلهم الفلسفى المعقد ، ولكنه
ورث عن أخيه المأمون وصية بأن يستكمل سيرته في الدفاع عن رأى
المعتزلة ، والاستماع إلى رأى أحمد بن أبي دؤاد زعيمهم ، وامتحان ابن حنبل
حتى يقر بأن القرآن مخلوق . .

• • • • •

جلس المعتصم في قصره وحوله رؤوس المعتزلة وزعيمهم . . وكبار
قواد الجيش من خراسان . .

جلس المعتصم مطرقا عليه إمارات التفكير . . ثم رفع رأسه لأحمد بن
أبي دؤاد وسأله : هيء يا ابن أبي دؤاد . . أما زلت مصرًا على رأيك في
محنة هذا الرجل . .

كان الرجل الذي يشير إليه الخليفة هو الإمام الممتحن أحمد بن حنبل .
وكان قد صار أقوى شخصية في الدولة . .

كما يمثل بشخصه وحده . . كل قوى المعارضة في الدولة .
قال زعيم المعتزلة : إنه ضال مضل مبتدع . . وإن ضلالته تلقى رواجا
بين العامة . .

قال معتزلي آخر : يا أمير المؤمنين . . إن ما يذيعه ابن حنبل في
الناس كفر صراح ، اقتله يا أمير المؤمنين ودمه في رقابنا .

قال المعتصم : وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملأوا الطرق
والمباني ووقفوا بباب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم يقولون : إن أحمد بن
حنبل يفتن اليوم ، وقد علموا أننا أحضرناه من سجنه ببغداد إلى هنا . .
كان الخليفة محقا في انتراضه . . كان الناس جمِيعا قد أخذوا صف

ابن حنبل ، وكانت هذه هزيمة للدولة والنظام الحاكم والفكر المعتزلي كله . .
وهب المعتزلة يدافعون عن وجوب تصفية ابن حنبل . .

قال أحدهم : متى كان عوام الناس يا أمير المؤمنين حكما فيما
لا يفهمون . . ان هذا أدعى إلى أن تعالجه قبل أن يستفحـل أمره . .
قال آخر : لو مد الله في عمر الخليفة المأمون أيام قليلة لقتله . . ولكنـه
مات قبل أن يصل هذا الضال المضل إلى عـسـكـرـه . .

قال المعتصم : قد أوصـانـيـ أمـيرـ المؤـمـنـينـ المـأـمـونـ أـقـعـمـ رـجـالـ
الـبـدـعـةـ وـلـاـ سـيـمـاـ اـبـنـ حـنـبـلـ ،ـ وـلـكـنـ أـخـشـ الفـسـادـ .ـ وـالـنـاسـ الـيـوـمـ فـيـ هـرـجـ
وـمـرـجـ وـكـانـمـاـ استـعـدـواـ لـلـفـتـنـةـ وـالـهـيـاجـ .ـ

قال المـعـتـزـلـةـ :ـ لـاـ يـخـشـيـ بـأـسـ الـعـوـامـ إـذـاـ كـانـ زـمـامـهـ بـيـدـ رـجـلـ يـدـبـرـ
أـمـرـهـ ،ـ وـهـذـاـ الرـجـلـ فـيـ أـيـدـيـنـاـ الـآنـ ،ـ وـهـوـ فـيـ أـيـدـيـنـاـ مـنـذـ ثـمـانـيـةـ وـعـشـرـينـ
شـهـراـ .ـ

تمـتـ المـعـتـصـمـ :ـ مـاـ أـسـرـعـ مـاـ تـمـرـ الـأـيـامـ .ـ

كانـ وـاضـحـاـ أـنـ المـعـتـصـمـ يـسـاقـ كـارـهاـ إـلـىـ اـمـتـحـانـ اـبـنـ حـنـبـلـ ،ـ مـضـيـاـ مـعـ
سـيـاسـةـ الدـوـلـةـ ،ـ وـخـضـوعـاـ لـاعـتـباـراتـ الـكـبـرـيـاءـ ،ـ فـلـمـ يـكـنـ مـمـكـنـاـ أـنـ يـتـرـاجـعـ
الـآنـ بـعـدـ كـلـ الشـوـطـ الـذـىـ قـطـعـهـ ،ـ وـرـاحـ المـعـتـزـلـةـ يـحـرـضـونـهـ عـلـىـ قـتـلـ اـبـنـ
حنـبـلـ .ـ حـدـثـوـهـ كـيـفـ دـعـاـ اـبـنـ حـنـبـلـ عـلـىـ الـمـأـمـونـ .ـ

كانـ اـبـنـ حـنـبـلـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ الـمـأـمـونـ حـيـنـ جـاءـهـ أـحـدـ خـدـمـ الـمـأـمـونـ وـقـالـ
لـهـ :ـ اـنـ أـمـيرـ الـمـؤ~مـنـينـ سـلـ سـيـفـاـ لـمـ يـسـلـهـ قـبـلـ ذـلـكـ ،ـ وـأـنـهـ أـقـسـ بـقـرـابـتـهـ مـنـ
رـسـوـلـ الـلـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـئـنـ لـمـ تـجـبـهـ إـلـىـ خـلـقـ الـقـرـآنـ لـيـقـتـلـكـ بـهـذـاـ
الـسـيـفـ .ـ

سـمـعـ اـبـنـ حـنـبـلـ عـبـارـةـ الرـجـلـ وـجـثـاـ عـلـىـ رـكـبـتـيـهـ وـرـفـعـ رـأـسـهـ إـلـىـ السـمـاءـ
وـقـالـ :ـ يـاـ سـيـدـىـ .ـ غـرـ هـذـاـ الـفـاجـرـ حـلـمـكـ حـتـىـ تـجـرـأـ عـلـىـ أـوـلـيـائـكـ بـالـضـربـ
وـالـقـتـلـ .ـ اللـهـمـ أـكـفـنـاـ مـؤـنـتـهـ .ـ

استـمـعـ المـعـتـصـمـ إـلـىـ حـدـيـثـ المـعـتـزـلـةـ وـقـالـ :

بـلـغـنـيـ ذـلـكـ .ـ وـعـلـمـتـ أـنـ النـاسـ يـتـحـدـثـونـ بـهـاـ فـيـ الـأـسـوـاقـ وـيـقـولـونـ أـنـ
أـحـمـدـ اـبـنـ حـنـبـلـ دـعـاـ بـهـاـ فـيـ أـوـلـ الـلـيـلـ ،ـ فـمـاـ جـاءـ الـثـلـثـ الـأـخـيـرـ حـتـىـ أـتـاهـ مـنـ
يـيـشـهـ بـأـنـ أـمـيرـ الـمـؤ~م~نـينـ قـدـ مـاتـ .ـ وـهـمـ يـعـتـبـرـونـ ذـلـكـ مـنـ كـرـامـةـ أـحـمـدـ اـبـنـ
حنـبـلـ عـلـىـ اللـهـ .ـ

قال المعتزلة : هذا من الشواهد الناطقة بسذاجة العوام وعدم تمحيصهم وسرعة قبولهم للخرافة والجهل ، ألم نكن معك وهو يسلم روحه قبل العصر ، لقد مات أمير المؤمنين قبل أن يدعو ابن حنبل عليه . . ولكن جهل العوام سول لهم أن يتخذوا مما حدث كرامة لابن حنبل .

قال المعتصم : إنهم يقولون إن الله ألهمه الدعاء بعد موت المأمون ، فدعا به ، فأتاه الخبر بما دعا ليكون ذلك تأييدها وتثبيتها ، فالكرامة في أن الله ألهمه الدعاء لا في أنه أمات المأمون استجابة له .

قال المعتزلة : إن عقول العوام يا أمير المؤمنين لا تطيق مثل هذا ولا تعيه . . هذا كلام يدسه رؤوس البدعة ويروجونه بين الناس سعيًا إلى الفتنة . .

تساءل المعتصم عنمن يسعى إلى الفتنة وقد عادت لأنفه رائحة الخطر . . وحده المعتزلة أن هذا كلام الذين امتحنوا وأقرروا بخلق القرآن ، وقد سقطوا في أعين الناس . .

حدثوه أن ملكه أثبت من أن تؤثر فيه هيجنة الغوغاء أو العامة . . حدثوه أن أحمد بن حنبل سبق من بغداد إلى طرطوس متغللاً بأغلال الحديد محمولاً على جمل مهين في حالة زرية على أعين الناس ، فما إجترأ أحد على اختطافه أو حل وثاقه أو الغضب له . وقد قطع به حراسه الطريق من بغداد إلى طرطوس ، فلم يكن هناك إلا عدد قليل من الناس يتأمل هذا المشهد ، وكان الناس جميعاً صامتين . . ومن تكلم لا يزيد على أن يقول له « الثبات يا أحمد . . الجنة تنتظرك يا أحمد » . .

وفي بعض مراحل الطريق . . نزل الجندي يستريحون مع أحمد بن حنبل ، فجاء رجل يقول : أيكم أحمد بن حنبل . فأشاروا إليه . .

فقال « يا هذا ، إن الله قد رضيك له وأفادك . فانظر لا يكون وفودك على المسلمين وفوداً مشئوماً . واعلم أن الناس إنما ينتظرون قولك ليقولوا بعده . واعلم إنما هو الموت والجنة » . .

أفهم المعتزلة المعتصم أن عوام الناس لا يوصون هذا الرجل بأكثر من أن يمد رقبته للسياف ليدخل الجنة . . ومن كان هذا شأنهم فإن القوة والشغب والثورة على السلطان أشياء لن تخطر لهم ببال . .

واطمأن المعتصم إلى ضعف العامة وعجزهم وأمر أن يحضروا إليه ابن حنبل ليمتحنه بنفسه .

دخل أحمد بن حنبل . . شيخ مديد القامة أسرم الوجه ، قد قوسه مر السنين والجاج المحن وتعاقب السفرات الطوال سيرا على القدم ، يجلله مشيب وقور ، ويستطيع من وجهه ورugh صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به . .

ألقى أحمد بن حنبل السلام على الخليفة فأمره أن يدنو ، فدنا وهو يرسف في أربعة أغلال من الحديد الثقيل .

وتحدث ابن حنبل إلى المعتصم . سأله : إلى أي شيء دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

قال أمير المؤمنين : إنه دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله . .

قال ابن حنبل أنه يشهد بذلك ، وأضاف يقول :

ان هؤلاء (مشيرا إلى المعتزلة) يدعونني أن أقول أن القرآن مخلوق ، وهو شيء لا أجد له في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . يا أمير المؤمنين : « حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثني أبو حمزة ، قال سمعت ابن عباس يقول : إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله ، فقال أتذرون ما الإيمان بالله . قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وإن تعطوا الخمس من المغنم . . ». فهذا ما يرويه جدك ابن عباس - عن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو يعلم الناس الإيمان ، وليس فيه شيء مما يدعوه هؤلاء من خلق القرآن .

اهتز المعتصم - ثوانى قليلة - لهذا الإسلام الصافي المتحدر من فم ابن حنبل . .

قال المعتصم : إنني لم أمر فيك بشيء ، ولو لآني وجئتكم في يد من كان قبلى ما تعرضت لكم .

لم تلبث لحظات الضعف هذه أن فسحت الطريق لكبرياء المعتصم . .

وهكذا أمر بامتحان ابن حنبل . . وبدأت مناقشته وجداوله . .

سأله المعتزلة : ماذا تقول في القرآن .

قال : القرآن كلام الله تعالى .

قالوا : مخلوق أم قديم .

قال : هو كلام الله تعالى . . .

قال المعتزلة : إن الله يقول « خالق كل شيء » والقرآن شيء ، فهو إذن مخلوق .

قال ابن حنبل : هذه الآية عامة أريد بها التخصيص لا العموم كقوله تعالى عن الربيع التي أهلك بها قوم هود « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت كل شيء حقاً أو أنها لم تدمر إلا ما أراد الله . . .

قال أحد المعتزلة : يقول الله تعالى « وما يأتيم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » فهل يكون محدثاً إلا المخلوق .

قال أحمد بن حنبل : الذكر الذي هو القرآن جاء في قوله سبحانه « والقرآن ذى الذكر » فهو هنا معرف بالألف واللام ، وفي الآية الأولى بدون ألف ولا لام . . . فهذه غير تلك .

قال أحد المعتزلة : إن عمران بن حصين يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « إن الله خلق الذكر » . . .

قال أحمد بن حنبل : أخطأت ، الرواية الصحيحة أن الله كتب الذكر .

قال أحد المعتزلة : يروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » ، وهذا صريح في أن آية الكرسي مخلوقة ، وهي من القرآن .

قال أحمد بن حنبل : لا أجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلق وقع على آية الكرسي . إن الحديث صريح في أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

واستمر الجدال واستمرت المنازرة . . . وعجز المعتزلة رغم كثرتهم أن يثنوا ابن حنبل عن رأيه . . . ظل يقول أن القرآن كلام الله . . . ولا يزيد عليها . . . قاوم قولهم أنه مخلوق ، ولم يقل أنه أزلبي . . .

كان أحمد بن حنبل يتخرج من القول في القرآن بما لم يقله الله عز وجل . . .

وكان قد فرر ألا يتزحزح عن موقفه قيد شعره . . . يحكى الإمام أحمد ابن حنبل ما وقع له أيام المعتصم فيقول : « أخرجت ، وجئ ببداية فحملت

عليها وعلى القيود ، وما معى أحد يمسكني ، فكدت غير مرة أن أخر على وجهى لنقل القيود ، فجئ بى إلى دار المعتصم . فأدخلت حجرة وأغلق الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فاردت أن أتسخ للصلوة ، فمدت يدى فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأت وصليت ، فلما كان من الغد راح المعتصم يقول لى : يا أحمد ، والله أنى عليك لشقيق ، وانى لأشفق عليك كشفتى على هرون ابني .. ما تقول ؟ . فأقول أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله » .

يحكى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ مَا وَقَعَ لَهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ .. ظَلُوا يَنْظَرُونَهُ وَيَجَادُلُونَهُ وَيَمْتَحِنُونَ فِيهِ أَسَابِيعَ كَامِلَةً ، ثُمَّ أَمْرَوْا بِهِ فَأَدْخَلُوهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لِلْمَرَةِ الثَّالِثَةِ عَلَى الْمَعْتَصِمِ .. دَخَلَ ابْنُ حَنْبَلٍ فَإِذَا قَصْرُ الْخَلِيفَةِ غَاصٌّ بِالْجَنْدِ وَقَدْ اسْتَلُوا سِيَوفَهُ ، وَبِالْجَلَادِينِ وَهُمْ يَقْفَنُونَ بِالسِّيَاطِ .. وَجَعَلُوهُ يَنْقُلُونَهُ مِنْ حَجَرَةِ إِلَى حَجَرَةِ ، حَتَّى يَنْخُلِعَ قَلْبُهُ وَأَخِيرًا أَوْفَوْهُ أَمَامَ الْمَعْتَصِمِ ، وَرَاحُوا يَنْظَرُونَهُ وَيَجَادُلُونَهُ وَهُوَ يَجِيئُهُمْ وَيَعْلُو صَوْتُهُ عَلَى أَصْوَاتِهِمْ حَتَّى صَرَخَ الْخَلِيفَةُ : اسْحِبُوهُ وَاخْلُعُوهُ ..

صدر أمر الخليفة باحضار الجلادين .. ودخلوا لهم يمسكون السياط في أيديهم ، فامتحنها المعتصم وقال : ائتونى بغيرها ..

لم تعجبه السياط ، وجئ بغيرها .. وخلعوا قميص ابن حنبل وتقدم أول جlad وانهال عليه يضرره سوطين .. والخليفة يأمره .. شد .. وتعاقب الجلادون على ابن حنبل ، كل واحد يضرره سوطين وجئ بغيره .. فلما ضرب تسعه عشر سوطاً قام إليه الخليفة يسألة :

— يا أَحْمَدُ عَلَمْ تَقْتُلْ نَفْسَكَ ..

وَجَعَلَ أَحَدَ الْجَنْدِ يَنْخَسِهِ بِسِيفِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

— الْخَلِيفَةُ عَلَى رَأْسِكَ قَائِمٌ .. وَعُلَمَاءُ الْأُمَّةِ حَوْلُكَ وَتَرِيدُ أَنْ تَغْلِبَ هُؤُلَاءِ كُلَّهُمْ وَحْدَكَ ..

وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : اقْتُلْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدَمْهُ فِي عَنْقِي ..

وَوَسْطَ هَذَا الْهُوَلِ كُلِّهِ لَمْ يَزِدْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ عَلَى قَوْلِهِ :

— اعْطُونِي شَيْئاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ سَنَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقُولُ بِهِ .. وَعَادَ الْخَلِيفَةُ يَصْرَخُ عَلَى الْجَلَادِينَ أَنْ يَشْدُوَا عَلَيْهِ ..

وعادوا يجلدونه بالسياط . . حتى أغمى عليه . . وطرحوه على الأرض
وساروا فوقه باقدامهم ودمه يسيل . .

يحكى أَحْمَدُ بْنُ حِنْبَلَ مَا وَقَعَ لَهُ فِي قَوْلٍ : « جَعْلُ الْجَلَادِ يَتَقدِّمُ وَيَضْرِبُنِي سَوْطَيْنِ وَيَتَنْحِي ، وَالْمَعْتَصِمُ فِي خَلَالِ ذَلِكَ يَقُولُ : شَدَ . . قَطْعُ اللَّهِ يَدُكَ . . حَتَّى ذَهَبَ عَقْلِي . فَأَفَقَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا الْحَدِيدَ قَدْ أَطْلَقَ عَنِي . . وَكَانَ جَسْدِي يَشْخَبُ دَمًا ، وَأَتَوْنِي بِسَوْيِقٍ وَقَالُوا لِي : اشْرِبْ . . فَقَلَتْ لَا أَفْطِرْ ، ثُمَّ جَاءَ بَنِي إِلَى دَارِ اسْحَاقَ بْنِ ابْرَاهِيمَ فَحَضَرَتْ صَلَاةُ الظَّهَرِ ، فَتَقدِّمَ أَبْنَ سَمَاعِهِ فَصَلَى ، فَلَمَّا انْفَتَلَ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ لِي : صَلَيْتَ وَالْدَمْ يَسِيلُ مِنْ ثُوبِكَ . . فَقَلَتْ . . قَدْ صَلَى عَمْرٌ وَجَرَحَهُ يَشْخَبُ دَمًا » . .

لم تفلح سياط المعتصم ولا سيفوه أن تزحزح ابن حنبل عن موقفه ، ففشل التلويع بالمجد كما فشلت القوة في تحريكه شعرة واحدة عن موقفه . . . وبعد ثلاثة سنوات تقريباً من القبض عليه وتعذيبه واهانته وضرره . . أفرج عنه . . وخرج ابن حنبل كما يخرج الذهب حين يدخل النار ، واعترف معاصره بأن دفاعه عن الإسلام والقرآن كان عظيماً ، وأنه سد ثغرة كادت تحدث في الإسلام ، وفربوا ذكره بذكر أبي بكر الصديق . . وقال عنه على بن المديني أمام الحديث وأحد شيوخ البخاري «أن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنّة» . .

انتهى الصراع بين المعتزلة وأهل الحديث بهزيمة المعتزلة . . وقد أخطأ المعتزلة في رأي العلماء خطأين ، أولهما محاولة اشراك العامة في هذه المسائل ، وهي مسائل يتوه فيها العلماء والفلسفه ، فكيف يتقبل عقل العامة هذه المباحث عن صفات الله ، وهل هي عين الذات أو غير الذات ؟ .. لقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم من الجارية أن تعتقد أن الله في السماء وإن تشير نحو السماء ، لأن عقلها لا يسمح لها بأكثر من ذلك ، ولم يحاول تفهيمها أنه ليس في مكان .. الخطأ الثاني الذي ارتكبه المعتزلة كان حملهم الحكومة على أن تتدخل بالسلطان والسيوف والسياطط والجنود والجلادين في هذه المسألة .. وكان تصرفهم هذا جهلاً بنفسية الشعوب ، فقد وقف الشعب كله وراء ابن حنبل ، وكره الناس المعتزلة كراهية شديدة ، ان الناس يكرهون السلطة حين تنحاز إلى رأي وتحاول فرضه ..

وظهر أهل الحديث ، والدولة كلها تقف ضدهم ، والعذاب يقع عليهم ،
وفضيلة التضحية تظهر من جانبهم . .

وانتصر حزب المحافظين في الإسلام على حزب الأحرار كما يرى
الأستاذ أحمد أمين ، أو انتصر الجناح السلفي على الجناح العقلي . . وكانت
نتيجة المحنـة أن كـره الناس المـعـتـزـلـة وـعـلـمـ الـكـلـام ، وـنـكـلـوا بـعـدـ ذـلـكـ بـعـلـمـائـهـمـ
وـأـحـرـقـواـ كـتـبـهـمـ وـرـدـواـ إـلـيـهـمـ الصـاعـ صـاعـيـنـ . .

وـدـفـنـ عـلـمـ الـكـلـامـ فـىـ بـطـونـ الـكـتـبـ الـقـديـمـةـ وـكـفـ عـنـ أـنـ يـكـوـنـ عـلـماـ
مـتـجـدـداـ . .

وـانـفـرـدـ الـمـحـدـثـوـنـ بـعـلـمـ الـكـلـامـ . . انـفـرـدـواـ بـالـتـقـلـيدـ وـتـكـرـارـ ماـ قـبـلـ . . وـإـذـاـ
الـكـتـبـ الـصـادـرـةـ فـىـ هـذـاـ الـعـلـمـ مـنـ مـؤـلـفـيـنـ مـتـعـدـلـيـنـ تـكـادـ تـكـوـنـ نـسـخـاـ مـكـرـرـةـ مـنـ
كـتـابـيـنـ قـدـيمـيـنـ أـوـ ثـلـاثـةـ كـتـبـ .

وـصـحـيـحـ أـنـ مـوـقـفـ اـبـنـ حـنـبـلـ كـانـ سـداـ مـنـيـعاـ فـىـ اـتـجـاهـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ
الـتـكـيـرـ الـفـلـسـفـيـ الـمـتـهـورـ الـذـىـ لـوـ سـيـطـرـ عـلـىـ الـأـمـةـ لـاـنـقـطـعـتـ صـلـتـهـ بـمـنـابـعـ
الـدـيـنـ وـعـقـائـدـ الـمـوـحـدـيـنـ ، وـلـخـضـعـتـ لـلـفـلـسـفـاتـ وـأـصـبـحـتـ عـرـضـةـ لـبـدـعـ الـأـرـاءـ
الـمـحـدـثـةـ وـتـرـفـ الـقـيـاسـاتـ الـمـسـتـنـبـطـةـ . .

هـذـاـ كـلـهـ صـحـيـحـ . .

وـلـكـنـ الـمـحـنـةـ أـوـقـتـ فـىـ نـفـسـ الـوقـتـ نـمـوـ عـلـمـ الـكـلـامـ . . وـعـطـلـتـ نـمـوـ
الـجـنـاحـ الـعـقـلـىـ فـىـ الـمـسـلـمـيـنـ . .

وـفـىـ رـأـيـاـنـاـ أـنـ خـطـاـ الـمـعـتـزـلـةـ الـأـسـاسـيـ يـكـمـنـ فـىـ أـنـ مـنـهـجـ الـمـتـكـلـمـيـنـ لـمـ يـكـنـ
قـرـآنـيـاـ . .

كـانـ لـعـلـمـاءـ الـكـلـامـ مـنـهـجـ خـاصـ يـخـالـفـ مـنـهـجـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـالـحـدـيـثـ
الـشـرـيفـ كـمـاـ يـخـالـفـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ مـنـهـجـ الـفـلـاسـفـةـ . . وـنـحـنـ نـعـتـقـدـ أـنـ هـذـاـ
الـانـفـرـادـ بـمـنـهـجـ غـيرـ قـرـآنـيـ ، فـىـ مـنـاقـشـةـ شـىـءـ يـتـصـلـ بـعـقـائـدـ التـوـحـيدـ فـىـ
الـقـرـآنـ . . نـرـىـ أـنـ هـذـاـ الـمـنـهـجـ هـوـ الـمـسـئـولـ عـنـ فـشـلـ هـذـاـ الـعـلـمـ وـذـهـابـ
دـوـلـتـهـ . .

وـكـلـ مـاـ فـعـلـتـهـ الـمـحـنـةـ ، أـنـهـاـ عـجلـتـ بـهـذـهـ الـهـزـيـمةـ . .

ذـلـكـ اـنـ دـرـاسـةـ أـىـ ظـاهـرـةـ قـرـآنـيـةـ بـمـنـهـجـ غـيرـ قـرـآنـيـ ، لـنـ تـؤـدـيـ لـنـتـيـجـةـ . .

رـبـماـ أـثـرـتـ هـذـهـ دـرـاسـةـ بـلـبـلـةـ الـعـقـائـدـ الـمـسـتـقـرـةـ فـىـ نـفـوسـ النـاسـ ، وـرـبـماـ

كانت الشمار فتنة مريدة يذهب ضحيتها المئات كما حدث في التاريخ . . غير أنها لن تتمرر الحقيقة التي يقدمها القرآن بمنهجه . . إلا إذا عولج القرآن بمنهج قرآنى .

قام منهجه القرآن في الدعوة على أساس لا مثيل له هو مخاطبة الفطرة والعقل بعمق وبساطة ، وجاءت آياته معجزة بمستوياتها المختلفة وقدرتها على الإيحاء بمعانٍ تزيد كلما زاد علم المتأمل فيها ، ان نظرة العami إلى قوله تعالى : (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق)^(١) ، هذه النظرة تثير إيماناً ساذجاً بعظمة القدرة . كما أن نظرة عالم الحياة إلى منشأ الإنسان تثير حيرته وإعجابه . .

هناك أيضاً قوله تعالى (فلا أقسم بموقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم)^(٢) ، هذا القول يثير في البدوى إحساساً بأن النجوم بعيدة هناك . . وعلى قدر بعدها يعرف عظمة القسم الالهى . .

نفس هذا القول يتسع إذا تأمله عالم في الفلك . . ان معرفة الأبعاد الصحيحة بين النجوم والنجوم ، خلية أن تهز عالم الفلك لهذا القسم الذي رده القرآن منذ أربعة عشر قرناً . . حين كان علم الفلك لا يعرف شيئاً عن موقع النجوم ، ولم يكتشف بعد حقيقة حجم الكون . .

هذا المنهج القرآني يؤثر في العami والعالم ، في المفكر وغير المفكر ، في الفيلسوف وغير الفيلسوف ، في المثقف وغير المثقف . . يصلح هذا المنهج للتأثير في الناس كافة . . لأنه يخاطب الفطرة كما يخاطب الوجدان وكما يخاطب العقل . . وتنكب الآية الوحدة أكثر من عمق في المعنى كلما زاد حظ الناظر فيها من العلم . .

أما علم الكلام فأعطى العقل حريته في البحث والنظر ، ورأاه سيداً يجب طاعته . . ومد نطاق سيادته على كل أرض وسماء ، بما في ذلك سماء العقائد . . وتجاهل في نفس الوقت منطقة الوجدان ومنطق الشعور . . وليس العقل وحده - في ميدان الغيب - هو السفينة الناجية .

(١) سورة الطارق آية ٥ ، ٦ .

(٢) سورة الواقعة آية ٧٥ ، ٧٦ .

أسماء الله الحسنى

كان المشركون من العرب في جاهليتهم يسمون آلهتهم بأسماء يشتقونها من أسماء الله سبحانه ، كاللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقد حذر الله تبارك وتعالى من اجترائهم على اسمائه وسماته إلحادا فيها . . قال تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذرروا الذين يلحدون في اسمائه سيجرون ما كانوا يعملون)^(١) .

ومثلاً وردت الإشارة لأسماء الله الحسنى في الكتاب العزيز ، ورد النص عليها في أحاديث الرسول . .
قال صلى الله عليه وسلم « إن الله تسعه وتسعين اسماء من أحصاها دخل الجنة » . .

وفي رواية أخرى أنه قال « من حفظها دخل الجنة » . .
(هو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الباري المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد البااعث الرشيد الحق الوكيل القوى المتين الولي الحميد المحصى المبدىء المعيد المحني المميت الحى القيوم الواحد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو الرعوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقطسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهدى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور)

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

لماذا يحدثنا الله تبارك وتعالى عن أسمائه الحسنى ؟
ان الإجابة على هذا السؤال أمر يتصل اتصالاً وثيقاً بحقيقة التوحيد في
العقيدة الإسلامية . .

اسماء الله الحسنى هي الحقيقة المطلقة ، لأن الله تعالى هو الحقيقة
المطلقة . وما عدا الأسماء صور تظاهر وتختفى ، وتوجد وتهلك .

كل ما في الكون صور تخضع لما تخضع له الصور . . الحقيقة الباقيه
هي أسماءه الحسنى . . وسر كونها الحقيقة أنها تشير إلى جلاله وترمز
لعزته . وإذا كان الله تبارك وتعالى قد احتجب بذاته المقدسة عن أنظار
الخلق ، فقد اقتضت رحمته أن يكشف اسماءه الحسنى للناس وأن يدلنا على
طريق الدعاء بها ، قال تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

بهذه الآية الكريمة . . لا يعود الإنسان وحيداً على الأرض . .
لا يعود غريباً في هذا الكون . . لقد سخر الله له الكون وجعل بيته
الأرض . . والأرض بالنسبة للإنسان مكان هائل الحجم ، وإن كانت بالنسبة
إلى الكون ذرة متناهية في الصغر ، ولو تصورنا أن الإنسان ، بضعفه أمام
قوى الكائنات الأخرى وبغيرته وسط أنواع الحياة ، لو تصورنا الإنسان يعيش
على الأرض بغير أن يعرف أسماء خالقه ، وبغير أن يقدر على الاتصال
به ، وبغير أن يستطيع دعوته وسؤاله ، أي عذاب كانت تصيره الحياة . .

نستطيع أن نفهم إذن مدى الإكرام الذي منحه الله للإنسان حين حدثه
عن أسمائه ، لقد أشفع الله على عباده فحدثهم عن أسمائه ، وجعلها طريقاً
لدعوته ، ألا ترى أن الإنسان يلتفت إذا ناداه باسمه أحد ، إن رحمة الله
تبارك وتعالى تسرع لمن يناديها سبحانه بأسمائه .

يقول الحديث الصحيح أن من حفظ الأسماء أو أحصاها دخل الجنة .

ما هو المقصود بحفظ الأسماء واحصائها ؟

نريد أن نستبعد من الحفظ معنى التقليد الذي صارت إليه حضارتنا
حين أخذلت إلى الأرض ، ونريد أن نستبعد معنى الصم والاستذكار عن
ظهور قلب ، ونريد أيضاً أن نستبعد من الإحصاء معنى العد . . يقول الله

تبارك وتعالى (لقد أحصاهم وعدهم عدا) ^(١) فالإحصاء غير العد ..
الإحصاء معنى أكبر من العد .. هو معرفة أشمل من معرفة العدد ..
المقصود من حفظ الأسماء هو حفظ أمانتها .. هو حمل أمانتها وعدم
تضييعها .. والمقصود من إحصاء الأسماء هو شهود حقيقتها .. والأسماء
الحسنى بوصفها المثل الأعلى والحقيقة المطلقة .. هي هدف المسلم فى
حياته على الأرض .

ويقدر ما يحمل المسلم من أسماء الله الحسنى ، يكون حظه من
التوحيد .

وقد أدرك العلماء هذه الحقيقة قديما ، أفضل من ادرأكنا لها اليوم .
منذ ٩٠٠ عام على التقريب ، كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالى كتابه
« المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى » ، وقد لاحظ حجة الإسلام
هذه الصلة بين أسماء الله الحسنى ، وأخلاق المسلم ، فكتب في نهاية شرحه
، لكل اسم ، تنبئها يقول فيه « وحظ العبد من هذا الإسم أن يكون كذا
وكذا » ..

وهذا هو الإتجاه الذى نعتقد أن العقيدة الإسلامية تؤيده ..
قارن هذا الفهم الصحيح ، بما أشار إليه الأستاذ حسن البنا في كتابه
« العقائد » من فهم بعض المعاصرين لخواص الأسماء ..
« يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصا تتعلق به ، وقد
يتغلى البعض فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادما روحانيا يخدم
من يواكب على الذكر به ، والذى أعلم فى هذا ، وفوق كل ذى علم عليه ،
ان أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة لها فضل على سائر الكلام ، وفيها بركة ،
وفى ذكرها ثواب عظيم ، وإن الإنسان إذا واطب على ذكر الله تعالى طهرت
نفسه ، وصفت روحه ، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى ،
أما ما زاد عن ذلك فلم يرد في كتاب ولا سنة ، وقد نهينا عن الغلو في دين
الله تعالى ، والزيادة فيه ، وحسبنا الاقتصار على ما ورد » .

(١) سورة مریم آية ٩٤ .

يشير الأستاذ البنا بكلماته السابقة إلى غلو بعض المسلمين في النظر لخواص الأسماء . . لقد تحول الفهم القديم الصحيح للأسماء ، إلى محاولة البعض أن يستخدمها في السحر أو الاتصال بعالم الروح ، وهذه المحاولة تخرج ب أصحابها من خيمة الإيمان .

ذلك أن السحر في القرآن الكريم كفر بصريح النص . . يقول الله تعالى : (واتبعوا ما تنتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملائكة ببابل هاروت وماروت وما يعلمون من أحد حتى يقولا إِنَّا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ)^(١) .

وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وحكم الآية واضح في أن السحر كفر ، وهذا الحكم عام ينطبق على كل زمان ومكان ، ولا يختص بأمة دون أمة ، أو عصر دون عصر . .

.

الفهم الصحيح للأسماء الحسنى هو حمل أمانتها .
وحمل الأمانة يقتضى المعرفة ، والمعرفة طريق إلى التعلق والتخلق . .
وبقدر ما يتعلق المسلم بأسماء الله ، وبقدر ما يأخذ من أخلاقها يكون قد أخذ من التوحيد .

يتفق العلماء على أن من اسمائه تعالى ما لا يجوز اطلاقه على غيره سبحانه . . كَاللهُ وَالرَّحْمَنُ . . كما لا يجوز التخلق بهذين الأسمين ، وإنما يجوز التعلق بهما ، ومن اسمائه تعالى ما يجوز لل المسلم أن يأخذ من أخلاقها كالرحيم والكريم . . ومن الأسماء ما يباح ذكره وحده كالعظيم والشكور ، ومن الأسماء ما لا يباح ذكره وحده كالمعيت والضار ، فلا يقال يا مميت يا ضار ، وإنما يقال يا محيي يا مميت ، يا نافع يا ضار ، تأدبا في حقه تعالى ، وتفادي من ايهام ما لا يليق بجلاله سبحانه .

من المتفق عليه أيضاً أن ما نعرفه نحن كبشر من أسماء الله تعالى ، ليس هو كل أسماء الله تعالى ، فإن الله عز وجل أسماء لا يعلمها إلا هو . .
أسماء استأثر بها في علم الغيب وحده . .

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو الله بقوله « اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلكه في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عنك ، أن يجعل القرآن ربى قلبي ونور صدري وذهب همي وجلاء حزني » . . . وقد فهم العلماء من هذا الحديث أن الله تعالى أسماء لم يطلع عليها أحدا من خلقه . . .

أول ما نعرفه من أسماء الله الحسنى . . . هو الله . قال تعالى :
(وما من إله إلا الله)^(١) .

و(الله) في العقيدة الإسلامية هو اسم رب العالمين سبحانه . . . وهو اسم لمن انفرد بالوجود الحقيقي ، وهو أعظم الأسماء التسعة والتسعين ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها ، أما سائر الأسماء فتدل على معانٍ منفردة كالعلم والقدرة ، وهو أخص الأسماء فلا يطلق على غيره سبحانه ، لا من باب الحقيقة ولا من باب المجاز . . . واسم الله أشهر الأسماء ، وهو المستغنى عن التعريف بغيره ، فنحن ننسب غيره من الأسماء إليه ، ولا ننسبة إلى الأسماء ، فنقول إن الصبور والرحيم والشكور من أسماء الله ، ولا يقال أن الله من أسماء الصبور أو الرحيم .

وقد اختلف العلماء هل الاسم مشتق أم لا . . .

قيل أنه مشتق من الله . . . أي المتأله المتعالى الذي لا يحكمه أحد ويحكم كل أحد . . . وقيل أنه مشتق من الوله . . . أي الذي يتوله في حبه أهل محبته . . . وقيل أنه مشتق من الهوية ، إذ يشير كل ما في الكون إليه . . . فلا إله إلا هو . . . وفي العلماء من يعتقد أن كل ما ذكر في اشتقاء وتصريفه تعسف وتتكلف كالأمام الغزالى . . .

ويرى بعض العارفين أن كل اسم من اسمائه تعالى يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم . . . فإنه يصلح للتعلق دون التخلق . . .

ما هو حظ العبد من اسم الله . . .

أجاب حجة الإسلام بقوله « ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم هو

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ .

التاله . . ومعنى ذلك أن يكون العبد مستغرق القلب والهمة بالله تعالى . .
لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه » . .
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أصدق بيت قالته
العرب قول لبيد : إلا كل شيء ما خلا الله باطل ». .

الرحمن الرحيم

قال تعالى : (وَالْحُكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)^(١) .
الرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة في الأصل رقة في
القلب تؤدي إلى الإحسان والتفضل ، واستحالة هذا المعنى في حقه تعالى ،
يراد بها غايتها ، وهي توصيل الخير والثواب ودفع الشر والبلاء . . . ويرى
الشيخ حسنين مخلوف أن الرحمن عند أكثر العلماء أبلغ من الرحيم ، يقول
الأثر الكريم « يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة » ورحمته تعالى في الدنيا
تشمل المؤمن وغير المؤمن ، والصالح وغير الصالح ، أما رحمته في الآخرة
فتختص بالمؤمنين ، ومرتبة الرحمة هي أعلى المراتب ، وقد وصف الله بها
رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِلنَّاسِ)^(٢) ، ويجوز أن يسمى العبد رحيمًا ، ولا يجوز أن يطلق اسم
الرحمن على أحد من الخلق ، وقد فهم الإمام الغزالى من ذلك ، أن الرحمن
ينطوى على نوع من الرحمة هو أبعد من استطاعة العباد ، وهو ما يتعلق
بسعادة الآخرة ورحمته سبحانه فيها .

حظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى طريق الله ، بالنصح الرفيق والتلطف ، وبأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الایذاء ، أما حظ العبد من اسم الرحيم فيكون بأن لا يدع فقيراً في جواره وبلده إلا قام بتعهده ودفع فقره إما بماله أو بجاهه أو السعي في حقه ، فإن عجز عن جميع ذلك فيعيشه بالدعاء وإظهار الحزن حتى كأنه مشترك معه في فقره وحاجته ..

نريد أن يتوقف القارئ قليلاً عند كلمات الإمام الغزالى الأخيرة ، وهى كلمات كتبت من ٩٠٠ عام ، ولكنها في اعتقادنا تعبر عن أدق فهم وأكمله

(١) سورة البقرة آية ١٦٣

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧

للحقيقة الإسلامية ، وهي عقيدة كان الأساس فيها هو المأواحة بين المهاجرين والأنصار ، وبغير عطاء الأنصار الكريم ، لم يكن ممكناً أن تنجح الدولة الإسلامية وتبلغ أسماعنا الدعوة . . حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة التي أصبحت بوصوله هي المدينة المنورة ، آخى بين المهاجرين والأنصار . . كان نصيب الأنصارى سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، أن يحظى بأخوة عبد الرحمن بن عوف المهاجر . . قال الأنصارى للمهاجر : أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالى نصفين لك أطبيهما ، ولئن امرأتان فانتظر أيتهما تعجبك كى أطلقاها فتنزوجها . . ويرفض عبد الرحمن بن عوف برفق ويقول : بارك الله لك فى أهلك ومالك . أين سوقكم ؟ . . ويخرج إلى السوق ليعمل ويأكل من كدح يديه ، ويتصدق على فقراء المدينة رغم فقره . .

وبعد معركة حنين ، قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم على الجند ، ولم يعط الأنصار شيئاً . . وقال قائل منهم : لقى والله رسول الله قومه . . ومشى سعد بن عباده إلى رسول الله فأخبره أن الأنصار غاضبون ، سأله الرسول : فيم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن لهم من ذلك شيء .

وأمره رسول الله أن يجمع الأنصار ، ثم يبنئه بذلك ، وخرج إليهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
يا عشر الأنصار ، ألم أتكم ضالين فهداكם الله ، وفقراء فأغناكم الله ،
وأعداء فألف الله بين قلوبكم .

صمت الأنصار . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ألا تجيرون يا عشر الأنصار . .

قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيك . . ألمن الله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا مطاردا
فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك .

قالوا : المن الله ورسوله . .

قال رسول الله : أغضبتم يا عشر الأنصار لمال أعطيته قوما لأحببهم
في الإيمان ، وتركتم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام . . أفلأ ترضون

يا معشر الأنصار ان يذهب الناس إلى رحلهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفسي بيده ، لو أن الناس سلكوا طريقاً وسلكت الأنصار طريقاً لسلكت طريق الأنصار ، ولو لا الهجرة لكونت امراً من الأنصار .. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .
ويبيكى القوم حتى تقتل لحاصم ويقولون : رضينا بالله ربنا ورسوله
قسماً ..

كان الأنصار مثلاً أعلى في الرحمة ، لأنهم كانوا مثلاً أعلى في العطاء ، ولهذا دعا لهم رسول الله بالرحمة ، والرحمة صفة من صفات اسمه تعالى ..

ال المسلم الحقيقي في الدنيا ، هو من يجئ إليها ليعطى لا ليأخذ ..
هذه نظرة العقيدة الإسلامية للعطاء .. هو جزء من التوحيد في هذه العقيدة ..

الملك

قال تعالى في سورة المؤمنون (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَالِكُ الْحَقُّ)^(١) .
والملك هو المستغنٰ عن غيره ، وقد احتاج إليه غيره ، وهو المالك لكل الخلق والأكون ، وهو المتصرف في كل الخلق والأكون وهو ذو الملك والسلطان .. وفي عباد الله على الأرض ملوك ، غير أن الملك في حقهم مستمد من الله ، مؤقت بزمن هو زمان الحياة على الأرض ، أما معنى الملك في حقه تبارك وتعالى فهو الملك الدائم الذي لا يعارضه أحد ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولا يجرؤ عليه أحد . والله تعالى هو (مَالِكُ النَّاسِ إِلَهُ النَّاسِ) ، والله تعالى هو (مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ) والله تعالى هو (مَالِكُ الْمَلَكَاتِ تَوْتِي الْمَلَكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَكَ مِنْ تَشَاءُ)^(٢) والله تعالى هو ذو الملكوت (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٣) والمملكت مبالغة في الملك .. الملكوت بمعنى الملك المطلق المتعالى على مفاهيم البشر عن الملك . ما هو حظ العبد من هذا الاسم .. يرى الغزالي أن العبد لا يتصور فيه أن يكون ملكاً مطلقاً ،

(١) سورة المؤمنون آية ١١٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٣) سورة يس آية ٨٣ .

معنى الاستغناء عن كل شيء ، فالعبد لا يزال فقيراً إلى الله محتاجاً إلى الناس . ورغم هذا ، فإن لكل عبد مملكته الخاصة ، قلبه وقالبه .. مملكة جنوده فيها هم الشهوة والغضب والهوى ، ورعايته لسانه وعيشه ويداه وسائر أعضائه ، فإذا ملك العبد مملكته ولم تملكه هي ، وإذا أطاعته ولم يطعها ، فقد نال درجة الملك في عالمه .

قال أحد الأمراء لأحد العارفين : سلن حاجتك .

قال العارف : كيف ولی عبادن هما سيداك ..

قال الأمير : ومن هما .

قال العارف : الحرص والهوى .. فقد غلبتهما وغلباك ..

وسائل تلميذ شيخه قال : أوصني .

قال له : كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة .

قال : كيف .

قال : الملك في الدنيا من يقطع طمعه وشهوته فيها .

القدس

قال تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس)^(١) .

القدس هو المenze عن كل وصف يدركه حس ، أو يتصوره خيال ، أو يسبق إليه وهم ، أو يختلط به ضمير ، أو يقضى به تفكير .

الله منze عن كل صفة تنطبق على الخلق .. أعظم أوصاف الكمال الإنساني تعتبر في حق الله تبارك وتعالى اساءة أدب ، لأنه أعظم منها بغير حدود .

والقدس والتقديس والقدس من معانى الطهارة .. فنص الله علينا ما قالته الملائكة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)^(٢) أي نظهر أنفسنا لك . حظ العبد من هذا الاسم أن يظهر نفسه بالتوبيه ، ويظهر ارادته بالعمل ، ويظهر ماله بالزكاة والصدقة ، ويظهر قلبه من كل ما سوى الله .

(١) سورة الحشر آية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٠ .

السلام

سمى الله تعالى نفسه السلام ، لسلامته مما يلحق المخلوقين من تغيير أو تأثير أو نقص أو فناء ، وهو السلام بمعنى أن كل سلام في الكون يستمد منه ويعتمد عليه ويرجع إليه .

والله ذو السلام بمعنى واهب السلام لعباده ، ومن آداب من عرف أن الله هو السلام أن يسلم الناس من لسانه ويده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . . .
حظ العبد من هذا الاسم أن يعرف أن الله هو السلام ، وأن رسالته هي الإسلام ، وأن أسمه المسلم . .

المؤمن

المؤمن عند الغزالى هو الذى يستمد منه الأمان ، ويرى الرازى أن أصله من الأمان ، فهو الذى أعطى عباده الأمان لأنه العادل فى حكمه ، الرحيم فى قضائه .

حظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الخلق كلهم جانبه ، ويرجو كل خائف الاحتماء به لدفع الهلاك عن نفسه فى دينه ودنياه .

المهيم

الهيمنة هى الرقابة المحكمة . والمهيم هو الرقيب على كل شيء ، الحافظ لكل شيء ، والله هو القائم على خلقه ، بإطلاعه عليهم ، وحفظه لهم ، واستيلائه عليهم . . والله هو المهيم على كل أمر من أمور الخالق ، وعلى كل سر من أسرار الناس . .
حظ العبد من اسم المهيم أن يراقب سره وعلانيته فيجعلهما الله .

العزيز

اسم مشتق من العزة ، بمعنى القوة التى لا تناول ، يقول تعالى : (من كان يريد العزة فللها العزة جمِيعا)^(١) وبهذه الآية يتحدد مصدر العزة ، وعلى من يريدها أن يستمد من المصدر الوحيد ، والله هو العزيز بمعنى أن الله هو

(١) سورة فاطر آية ١٠ .

الغالب ، وبمعنى أنه المتعالى عن المثليل ، وبمعنى أنه الذى تشد الحاجة إليه ولا يحتاج لأحد .

حظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد في أمور الدنيا بالعون والعمل ، وفي أمور الآخرة بالنصيحة والأخلاص .

الجبار

سمى الله تعالى نفسه الجبار لأنه ارتفع عن أن يتناوله أحد أو يدركه أحد ، والجبار هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذي لا يخرج أحد من قبضته ، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته . . ومن المكره أن يطلق هذا الاسم على أحد من الخلق ، فهو في حق الخلق ذم ، وفي حق الخالق ارتفاع وعلو . . وحظ العبد من هذا الاسم كما يقول الغزالى أن يرتفع العبد عن الاتباع وينال درجة الاستتباع ، ويتردد بصلاحه بحيث يجبر الخلق على الاقداء به والاستفادة منه ومتابعته ، فيستفيد الخلق ولا يستفيد .

المتكبر

قال تعالى في سورة الحشر (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) .

من معانى المتكبر بلوغ ذروة الكبرياء والعظمة ، ومن معانىه تعالى عن صفات المخلوقات ، ومن معانىه من يرى الكل صغيراً بالإضافة إلى ذاته ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يكون زاهداً في الدنيا متكبراً عليها ، راغباً في الله وحده .

الخالق الباريء المصور

الله تعالى هو خالق الخلق من عدم ، وهو مقدر الأشياء طبقاً لعلمه وحكمته . . يقول تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر)^(١) .

والخلق هو الابداع والانشاء من عدم ، أما الباريء فمعنى ايجاد الأشياء

(١) سورة القمر آية ٤٩ .

برئه من التفاوت ، أو تعنى ايجاد الأشياء وتركيبها فى إطار من الانسجام الذى يمكن لها فيه أن تعيش ، أما المصور فتعنى خلق صورة لكل مخلوق فى الخلق . . صورة يحملها الانسان أو الحيوان أو النبات ، ولا يملك لها اختيارا ولا ردا . .

لا نعرف ماذا يكون حظ العبد من هذه الأسماء الثلاثة ، فإن الخلق والبرء والتوصير أمر لا تتصور فى حق العبد إلا على سبيل المجاز . . فهى ممتنعة على العباد بمعناها الحقيقى ، أما الآداب والفنون فهى لون من ألوان الخلق الذى يعتمد على تجربة الفنان والحياة ، والفنان والحياة جميا من مخلوقات الله .

الغفار

الغفار هو الذى أسدل ستره على ذنوب العباد فى الدنيا ، وهو الذى يتجاوز عن عقوبتها فى الآخرة ، وهو الذى يغفر لعباده إذا تابوا ، وهو الذى يعود إلى المغفرة لو أساءوا وتابوا . . وهو الذى لا يمل من المغفرة مادام العبد لا يمل من التوبة . .

قال تعالى : (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) ^(١) .

والله تعالى : هو الغفور (إن ربنا لغفور شكور) ^(٢) .

والله تعالى : هو (غافر الذنب وقابل التوب) ^(٣) .

والغافر هو الذى يغفر الذنوب .

والغفور هو الذى يغفر الذنوب كثيرا .

والغفار أبلغ وأشمل وأعم ، لأنه الدائم المغفرة . .

حظ العبد من هذا الاسم أن ينظر إلى الأشياء فلا يرى ما فيها من قبح وإنما يرى ما فيها من جمال . . روى عن عيسى عليه السلام أنه مر مع الحواريين على كلب ميت قد تصاعدت رائحته . .

قال الحواريون : ما أسوأ رائحته . .

(١) سورة طه آية ٨٢ .

(٢) سورة فاطر آية ٣٤ .

(٣) سورة غافر آية ٣ .

قال عيسى : ما أحسن بياض أسنانه .
يريد أن يعلمهم رؤية الجمال حتى داخل القبح .

القهار

هو الذي يقصيم ظهور الجبارة من أعدائه ، فيقهرهم بالألم والاذلال والموت ، وكل ما في الوجود مقهور الله بمعنى أنه مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز كل العجز في قبضته .. وقد اختلف العلماء في معنى القهار ، هل هو من صفات الذات أو صفات الفعل ، ومهما يكن من أمر فإن القهار أعم وأشمل من القاهر ، وهو مبالغة في القاهر .

حظ العبد من هذا الاسم أن يقهر اعداءه ، وأولهم نفسه التي هي بين جنبيه .. فيقهر شهواتها وحظوظها التي يمكن أن تضلله .. ومن أمات شهواته في حياته ، عاش في مماته .. وارفع درجة من درجات فهر النفس على الحق ، هي الموت في سبيل الله ، قال تعالى : (ولا تحسين الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)^(١)

الوهاب

الهبة هي العطاء الذي لا ينتظر المقابل ، والهبة عند البشر مقيدة بأغراض النفس ودوافع المصلحة ، محكومة أصلا بثراء الواهب وقدرة خزائنه ، أما عند الله تعالى فهي تتعلى على أغراض النفس والانحصار والنفاد ، الله هو الذي يهب المستحق وغير المستحق ، ويهب المؤمن والملاحد ، ويهب الصالح والفاسد ، ويهب نعما لا يمكن احصاؤها وان أمكن عدها . قال تعالى : (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها)^(٢) .

والعد هو ذكر الأرقام أما الاحصاء فمعرفة أسرارها أيضا ، تقوم العقيدة الإسلامية على أن الوهاب بحق هو الله .. فخزائنه سبحانه بلا نهاية ولا حد ، (ألم عندهم خزائن رحمة رب العزيز الوهاب)^(٣) .

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

(٢) سورة النحل آية ١٨ .

(٣) سورة ص آية ٩ .

حظ العبد من هذا الاسم أن يهرب من ماله وعلمه ، غير منظر لثناء
الخلق ، منتظرا وجه الله عز وجل .

الرزاقي

هو الذي تولى خلق الأرزاق ، وتتكلف بتوصيلها إلى أفواه المخلوقات
وخلايا الأجساد ، وكل ما على الأرض من مخلوقات ، تحتاج إلى الطعام
لتعيش ، والله هو خالق الطعام ، وكل ما على الأرض يستمد طاقته من
الشمس ، والله هو خالق الشمس ، وكل الآلهة البشرية التي صنعتها أوهام
البشر لم تزعم لنفسها أنها ترزق أحدا ، (هل من خالق غير الله يرزقكم من
السماء والأرض لا إله إلا هو)^(١) .

ورزق الله تعالى لعباده ألاف الأنواع ، هناك رزق الدنيا ورزق
الآخرة ، ورزق الأبدان ورزق العقول ورزق القلوب ورزق الأرواح .
ليس للعبد حظ في اسم الرزاق ، فالله وحده هو الرزاق والرزاقي ،
ومتى عرف العبد أن الله وحده هو الرزاق ، لم ينتظر الرزق من غيره ، ولم
يتوكلا فيه إلا عليه . .

سئل حاتم الأصم من أين يأكل ؟ قال : من خزائنه ! فقال السائل :
أيُلقي عليك الخبز من السماء ، قال حاتم : لو لم تكن الأرض ملكه لكان يلقيه
من السماء .

الفتاح

هو الذي يفتح على عباده أسرار الكون والحياة ، وهو الذي يفتح مغاليق
العلوم والفنون ، وهو الذي يفتح خزائن الرزق بأنواعه ، وهو الذي يفتح في
الأرواح نوافذ على الأسماء الحسنة والصفات . . وهو الحاكم بين الخلق
لأن الفتاح مبالغة في الفتح والفتح هو الحكم . .
حظ العبد من هذا الاسم أن يحس بالعطش إلى فتح الله عليه في دينه
ودنياه .

(١) سورة فاطر آية ٣ .

العليم

العليم هو الذى وسع علمه كل شيء ، وأحاط علمه بكل شيء ، ولم يفلت من علمه شيء ، وكل ما على الأرض من علم وعلماء ، هو خلق من خلق الله تعالى ، أوجدهم ابتداء ويسرهم للعلم انتهاء ، واحتفظ بحقيقة العلم لنفسه سبحانه ، وأعطى خلقه قدرًا متفاوتًا يتطورون فيه ويكتسبونه ..

والفرق بين علم الله تعالى وما سواه من العلم ، أن علم البشر مستفاد من الأشياء ، أما علم الله تعالى فغير مستفاد من الأشياء ، إنما وجدت الأشياء بحقيقةها هذه ، لأن علم الله هو الذى أوجدها هكذا ..

القابض الباسط

يقبض الله تعالى أرواح الخلائق عند موتها ، ويبيسط أرواح خلقه الجديد في الأرحام ، ويغفض الصدقات من الأغنياء ، ويبيسط الحماية للضعفاء ، هو القابض للرزق حتى لا يبقى طاقة ، وهو الباسط للرزق حتى لا تبقى فاقة ، وهو القابض على أعناء القلوب بالحزن والاستياش ، وهو الباسط بألوان الكشف والفرح .. وهو القابض على ناصية العباد بالأمر والحكم ، وهو الباسط لهم وقتاً من الحياة يتلذّهم فيه ، وبعد ما يرجعون إليه . قال تعالى : (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)^(١) .

يرى بعض العارفين أن القبض والبسط شأنان من شئون الله يتصلان بالجلال والجمال ، فالقبض جلال والبسط جمال .. إذا قبض الله قلب عبد أحس العبد بالجلال ، وإذا بسط الله قلب عبد أحس بالجمال ..

حظ العبد من هذا الاسم أن يبسط قلبه للحق ويقبضه عن الباطل .. يفضل العلماء أن يذكر هذان الأسمان وما يماثلها معاً ، فلا يقال القابض فقط ولا الباسط فقط . وإنما يقال القابض الباسط .

الخافض الرافع

يخفض الله أقدار الأمم التي تخرج عن طاعته ، ويرفع أقدار الذين يقيمون حكمه في الأرض ، ويعرفون للخلافة حقها عليهم ، والله هو الخافض

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

لمن يعصاه ، الرافع لمن يؤمن به ويطيعه ، ويوم القيامة يتبدى جلال هذين الأسمين ..

يقول تعالى : (إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خاضة رافعة)^(١) أي أن الواقعة تفخر المنكرين والعصاة ، وترفع المؤمنين والتقاه ..

حظ العبد من هذين الأسمين أن يرفع الحق ويختفي الباطل .

المعز المذل

إذا أعز الله عبدا كان هذا بفضل رحمته ، وإذا أذل الله عبدا كان هذا بقضائه وعدله ، وقيم العز والمذلة في الدنيا مقلوبة وليس هي الحقيقة ، لأن الناس تنسب العز إلى الغنى وتجعل الفقر ذلا .. وكل القيم المقلوبة على الأرض م Alla h a إلى التصحيف يوم القيمة .. ويوم القيمة يعز الله برحمته من يستحق العزة ، ويذل الله بحكمته وعدله من يستحق الذلة .. (وتعز من تشاء وتذل من تشاء)^(٢)

حظ العبد من هذين الأسمين أن يعز الحق ويذل الباطل ، وبغير هذا الجهد الإنساني تحول الحياة إلى غابة هدفها المال والمتاعة ، وترتفع قيمة الثراء على قيمة العلم والعمل ، وينزل الناس عن أخلاقهم ، ويتحفظون من فضائلهم مسايرةً للعرف العام .. ويفسد جو الحياة فيفسد الإنسان ..

السمع البصير

قال تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)^(٣) .

بهذا التنزيه أثبت الله تعالى لنفسه صفة السمع والبصر ، وسمى نفسه السميع البصير فلا صوت يخرج عن سمعه ، ولا شيء ينذر عن بصره ، والله تعالى يسمع ويرى (قال لا تخافوا إنني معكم أسمع وأرى)^(٤) وإذا كان قانون الخلق أن تسمع باذانها وترى بانطباع الصور في عيونها ، فإن الله تبارك وتعالى على قوانين الخلق .

(١) سورة الواقعة آية ١ - ٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة طه آية ٤٦ .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يعرف أنه مسئول عن سمعه وبصره
(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) ^(١) ، وإن يعرف
أنه بسمع من الله ومرأى منه سبحانه فيخرج من عصيانه ويقهر النفس على
طاعته .

الحكم العدل

الله هو الحكم العدل ، وهو الحكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب على حكمه ، وهو أحكم الحكمين وخير الحكمين ، والعدل إسم من أسمائه تعالى وصفة من صفاته سبحانه ، قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ^(٢) ، والعدل هو المساواة في المكافأة . إن خيراً فخير وإن شرًا فشر ، والإحسان هو مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه .
تقول العقيدة الإسلامية أن من هم بحسنة فلم ي عملها كتب لها حسنة ، ومن هم بسيئة فلم ي عملها كتب لها حسنة ، وجاء السيئة سيئة مثلها ، أما الحسنة فيحاسب عليها العبد أضعافاً مضاعفة . . وليس وراء هذا العدل والرحمة عدل أو رحمة .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يحكم بين الناس بالعدل ، وأن يحكم نفسه بصرامة . .

اللطيف الخبير

يطلق وصف اللطف في حق العباد على عنوية الشخصية وحسن الأفعال ، أما الله تعالى فينصرف المعنى في حقه إلى الخلق أولاً . . وإلى الإحسان ثانياً ، وإلى استعلائه على ادراك الأ بصار قبل هذا وذاك .
قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبِّح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) ^(٣) .

إن خضرة الأرض ، وهي حياة من خلق الله ، قد وصفت باللطف ضمننا ، وكان السر فيها هو اللطيف الخبير .
وقال تعالى على لسان يوسف (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن

(١) سورة الاسراء آية ٣٦ .

(٢) سورة النحل آية ٩٠ .

(٣) سورة الحج آية ٦٣ .

وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي أن ربي
لطيف لما يشاء)^(١) .

يشير يوسف عليه السلام إلى قصة القائد في البئر ، ويرى أن عذابه
الظاهر كان لطفاً خفياً من الله شاء به الخير ليوسف ، وشاء به تحقيق أمره
فيه .

من معانى اللطيف تعالى على ادراك الحواس ، لقوله تعالى :
(لا تدركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار وهو اللطيف الخبير)^(٢) .
ويقرن الله تعالى بين اللطيف والخبير . فاللطيف هو العليم بدقةائق
الأمور وغواصتها وخفاياها ، والعلم إذا أضيفت إليه خفايا الباطن سمى خبرة ،
والله هو اللطيف الخبير بإطلاق وكمال . .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يتلطف بعباد الله فلا يرون منه
إلا الخير ، وأن يكون العبد خيراً بما يجرى في عالمه ، سواء في ذلك عالمه
القلبي أو عالمه كفرد في مجتمع .

الحليم

لا حدود لحلم الله عز وجل ، فهو سبحانه الذي يسرع بالخير ويبطيء
بالعقوبة ، لعل الإنسان يتوب ويرجع ، وهو سبحانه الذي لا يحمله الغضب
على سرعة الانتقام ، وإنما يمد حلمه للخلق جمِيعاً فلا يؤخذهم بما كسبوا . .
قال تعالى : (ولو يؤخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها
من دابة)^(٣) .

حظ العبد من الحليم أن يعفو قدر طاقته عن اساءات الناس ، ويعاملهم
بالرحمة .

العظيم

الله هو العظيم الذي لا تصل العقول إلى كنه ذاته أو حقيقة صفاته ،
وهو العظيم الذي لا تجرؤ الأ بصار على سرادقات عزه ، وهو العظيم الذي

(١) سورة يوسف آية ١٠٠ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٣) سورة فاطر آية ٤٥ .

ليس لعظمته بداية ولا نهاية ، ولا حد ولا انحصار ، وما نراه من عظمة
الخلائق منحة مستمدۃ من الله . . فهو العظيم المتفرد وحده بالعظمة .
حظ العبد من هذا الاسم هو العلم . . يزيد حظه من العظمة كلما أخذ
نصيباً أوفر من العلم .

الغفور

هو الذي يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات ، والغفور كمال في المغفرة
وশمول فيها ، قال تعالى (ان الله غفور رحيم)^(١) .
حظ العبد من هذا الاسم أن يتسامح في حقوقه ويشدد على نفسه في
حقوق الله كي ينال مغفرته .

الشكور

قال تعالى : (ان ربنا لغفور شكور)^(٢) ، وقال عز وجل : (ما يفعل
الله بعذابكم ان شكرتم وأمنتم وكان الله شاكراً عليما)^(٣) .
لو توقف العقل عند اسم « الشكور » لأصابه الدهش والتحير . . إنما
يشكر من يتلقى من غيره نعمة ، وأى نعمة تقدمها الخلائق العاجزة لله ، وأصل
النعم كلها من الله ، أى شيء يستحق أن يشكر الله عباده عليه ؟ لا شيء .
غير أن الله شاء . . لسابق منته وكرمه ، وقد يطه لطفه ورحمته ، شاء أن
يكون اسمه تعالى الشكور ، رحمة منه بالعباد وإحسانا إليهم . . فالله يعطي
الخلق رغم استغاثاته عنهم ، ويشكرونهم أن أحسنوا رغم أن الشكر في حقهم
واجب ، ورغم استعلاء الله وافتقار الناس ، نرى الأعلى يشكر ويمن ،
ومعنى الشكر في حق الله تعالى هو الرضا .
حظ العبد من هذا الاسم كبير ، الأصل أن يكون العبد شاكراً ، ومن
المجاز شكر الله عز وجل .

(١) سورة البقرة آية ١٧٣ .

(٢) سورة فاطر ٣٤ .

(٣) سورة النساء ١٤٧ .

العلى

هو الذى يعلو كل أحد . ويعالى على كل أحد .
 وهو الذى بلغ غاية الغايات فى علو المقام .
 وهو العلى بذاته وصفاته عن تصورات الخلق واعقاداتهم . . .
 والله هو العلي باطلاق وبلا حد .
 حظ العبد من هذا الاسم أن يدرك أن الله هو العلي المطلق ، وعليه ان
 يعفر جبهته فى تراب الذل أمام عظمته .

الكبير

الله هو الكبير فى صفات كماله ، وهو الكبير بذاته سبحانه ،
 والله أكبر من كل شيء ، ولا يقارن به شيء . . .
 قال تعالى (وان الله هو العلي الكبير)^(١) والكبير هو ذو الكيراء
 والعظمة .
 حظ العبد من هذا الاسم أن يصغر لرب العالمين ويكبر على ما سواه .

الحفظ

هو الحافظ المبالغ فى الحفظ والحراسة ، وحفظه يمتد للخلائق جميعا
 فلا يكلفه ذلك مشقة أو تعبا ، قال تعالى : (وسع كرسيه السماوات
 والأرض ولا يؤوده حفظهما) بمعنى لا يشق عليه حفظهما . . .
 والله حفيظ على كل شيء . . . (إن ربى على كل شيء حفيظ)^(٢) .
 حظ العبد من هذا الاسم أن يحفظ حق الله عليه وهو التوحيد ، ويحفظ
 جوارحه عن المعاصي .

المقيت

هو خالق القوت المتكفل بأرزاق خلقه ، سواء كان رزقه ماديا
 أو روحيا . وهو المطلع على أوقات الخلق وأعمالهم ، وهو الحافظ عليهم .

(١) سورة لقمان آية ٣٠ .

(٢) سورة هود ٥٧ .

يقول تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيْتًا)^(١) أى مطلعاً وقدراً
ومسؤلياً وحاكماً .

حظ العبد من هذا الاسم أن يرافق أوقاته ويشرك لخالقه قوته الذي يسوقه
إليه .

الحسيب

من معانيه الكافي . . وهو اسم لا يتصور حقيقة إلا لله ، فهو الذي خلق
الكون محتاجاً إليه دائماً ، والله كافيه أبداً وأزلاً .

ومن معانيه المكافىء بالحساب . . (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا)^(٢) .

ومن معانيه المحاسب على الأعمال . . (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
حَسِيبًا)^(٣) .

وليس للعبد مدخل في هذا الوصف ، إلا أن يحاسب نفسه قبل أن
يحاسبه الله عز وجل .

الجليل

الجليل هو صاحب نعوت الجلال ، ووصف الجليل يجمع صفات الغنى
والملك والتقديس والعلم والقدرة وبقية الصفات . .

والجلال شأن من شأنه أن شئون الله ، وصفة من صفاته سبحانه ، والجمال ظل
الجلال ، ويرى العارفون بالله أن الوقت يتبع الجلال والجمال ، إذا كان العبد
تحت ظل الجلال كان الوقت مرا وغلب الإحساس بالرهبة . . فإذا دخل العبد
تحت ظل الجمال كان الوقت حلواً وغلب الإحساس بالحب .

لا يتصور أن يكون للعبد حظ من هذا الاسم إلا التعلق . .
لا التخلق . .

لم يرد ذكر لهذا الاسم في القرآن . . وإن وصف الله تعالى اسمه بذلك
الجلال والإكرام ، قال تعالى (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(٤) .

(١) سورة النساء ٨٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٣) سورة النساء ٨٦ .

(٤) سورة الرحمن ٧٨ .

الكريم

تأمل سؤال الحق تبارك وتعالى للإنسان (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ربك)^(١) .

والله هو الكريم إذا أطلق الوصف وأريد به منتهاه . وهو الكريم الذى لا يضيع من توسل إليه ، وبغير صفة الكرم الإلهي يستحيل قيام الحياة واستمرارها .

والله هو أكرم الأكرمين سبحانه .. قال تعالى (اقرأ وربك الأكرم)^(٢) .

حظ العبد من هذا الاسم أن يتخلق بأوصاف الاسم ويحسن للناس .

الرقيب

الله رقيب لا يفلت من رقابته شيء ، شاهد حاضر لا يغيب عنه شيء ، عليم محيط بأحوال كل شيء ، قال تعالى : (وكان الله على كل شيء رقبيا)^(٣) .

حظ العبد من الاسم أن يراقب سره وعلانيته ..

المجيب

يعلم الله تعالى حاجة المحتاجين قبل السؤال ، وينعم على الخلق قبل الدعاء ، ويتفضل بالإكرام قبل النداء ، وهو المجيب لدعوة الداعي إذا دعاه ، (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ..)^(٤) .

حظ العبد من الاسم أن يجيب دعوة ربه .

الواسع

اسم مشتق من السعة ، وهو مجاز فى حقه تعالى ، يضاف مرة إلى العلم إذا اتسع ، ومرة إلى الإحسان إذا عم وانتشر ، ومرة إلى الرحمة إذا فاضت

(١) سورة الانفطار ٦ - ٨ .

(٢) سورة العلق ٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٥٢ .

(٤) سورة التمل آية ٦٢ .

وأغرقت ، قال تعالى : (ورحمني وسعت كل شيء)^(١) وقال تعالى : (والله واسع عليم)^(٢) .
حظ العبد أن يتسع علمه وفضله وحلمه .

الحكيم

الحكمة هي ثمرة العلوم ، والحكمة هي اصابة التقدير وإحسان التدبير ،
والله هو الحكيم المenze العزيز . قال تعالى : (وإن الله لـه العزيز
الحكيم)^(٣) .
حظ العبد من الحكمة أن يأخذ برأسها ، ورأس الحكمة مخافة الله كما
ورد في الأثر .

السودود

اسم مشتق من الود ، وهو أفق أعلى من أفق الحب ، هو كمال في الحب
ورحمة ، وهو زيادة في العفو والمغفرة ، قال تعالى (إن ربى رحيم
ودود)^(٤) ، والودود من عباد الله هو من يريد لخلق الله كل ما يريد لنفسه .

المجيد

اشتق الاسم من المجد ، وهو يعني الشرف الأعلى الذي لا يطاوله
شرف ، والعز الاسمي الذي لا يرتفع إليه عز .. قال تعالى : (انه حميد
مجيد)^(٥) .
حظ العبد من الاسم أن يذل قلبه للمجيد .

الباعث

باعث الرسل إلى الناس (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)^(٦) .
وباعث العقول والقلوب إلى علوم الكون ومباهج الوجود ..

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ٦٢ .

(٤) سورة هود ٩٠ .

(٥) سورة هود ٧٣ .

(٦) سورة النحل ٣٦ .

وباعث الموتى يوم النشور من قبورهم . . والبعث هو النشأة الآخرة ،
وحقيقة البعث من أغمض المعرف . . هي غيب أخفاه الله عنا . وحقيقة
البعث هي إحياء الموتى ، والجهل هو الموت الأكبر ، والعلم هو الحياة
الأكرم . .
وحظ العبد من الاسم أن يهرع إلى الحياة الأكرم .

الشهيد

الشهيد مبالغة في الشاهد ، والله شاهد على أفعال خلقه . . وهو عالم
الغيب والشهادة ، وشهادته تعالى هي الحق . . قال تعالى (شهد الله أنه
لا إله إلا هو) ^(١) وقال عز وجل (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ^(٢) .
حظ العبد من اسم الشهيد أن يشهد أن لا إله إلا الله .

الحق

هو الحق الموجود المتعالى على الفناء . . وهو الحق الذي يحاسب على
الباطل ويجزيه عن جرائمه ، (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق
إلا الضلال فأئني تصرفون) ^(٣) .
والله هو الحق وما دونه باطل . .
حظ العبد من اسم الحق أن يكون صورة للحق في أحواله كلها . .

الوكيل

هو الموكول إليه كل الأمور ، ومن أراد العزة والأمان فحسبه أن يكون
الله وكيله (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ^(٤) لا ينصرف معنى الاسم إلى
العبد إلا مجازا . .

(١) سورة آل عمران ١٨ .

(٢) سورة المنافقون آية ١ .

(٣) سورة يومن ٣٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٣ .

القوى المتين

القدرة هي القوة التي لا يقف أمامها شيء . . والمتانة هي شدة القوة . .
قال تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)^(١) ، وقوته تعالى تمسك
السماءات والأرض أن تزولا . . وقد رسم النص القرآني صورة لقوة الله عز
وجل فقال (وسع كرسيه السماءات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو
على العظيم) . والقوة هدف المؤمن ، وقد ضاع المسلمون يوم ضعفوا
فاستعمرتهم أمم الأرض ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن
القوى خير عند الله وأحب إليه من المؤمن الضعيف » .

الولي

الولي هو من يتولى أمور الخلق جميعا ، وينصرهم . . قال تعالى :
(الله ولی الذين آمنوا)^(٢) . . والله هو الولي والوالی وله الولاية وحده . .
أى له الحكم وحده . .
(هنالك الولاية لله الحق)^(٣) .

الله تعالى هو (الحميد) الذي حمد نفسه سبحانه وأثنى على ذاته بقوله
تعالى (واعلموا أن الله غنى حميد)^(٤) وكتابه الكريم (تنزيل من حكيم
حميد)^(٥) . . وهو (المحسن) الذي ينفذ علمه إلى الخفايا والأسرار ،
وتشمل رقابته ظاهر التصرف وأعمقه ، ولا يفلت كتابه الذي سجله على
المجرمين أى شيء (ويقولون يا ولتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها)^(٦) . . والله تعالى هو (المبدىء المعيد) ، فهو
الخالق ابتداء وانتهاء ، والبدء والإعادة اشارة إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة ،
ونشأة الحياة على الأرض سر ، ويعث الموتى وعوده التراب سر أكبر . .
وقد أجمل الله تعالى هذين السرين الكبيرين في قوله المعجز (الله يبدأ
الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون)^(٧) . .

(١) سورة الذاريات ٥٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٧ .

(٣) سورة الكهف ٤٤ .

(٤) سورة البقرة ١٦٧ .

(٥) سورة فصلت ٤٢ .

(٦) سورة الكهف ٤٩ .

(٧) سورة الروم ١١ .

(المحيي المميت) أسمان من أسمائه تعالى ، ذكرهما إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إذ قال إبراهيم ربى الذي يحيى ويميت)^(١) . . وذكرهما الله في قوله : (إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير)^(٢) . . والحياة والموت سران من أسراره ، منه تصدر الحياة وبأمره يقع الموت ، وقد انفرد وحده بأنه (الحى القيوم) وحياة الله عز وجل هي الحياة الأبدية الأزلية ، وقيامه على الخلق لا يشبه قيام أحد على أحد . . وقد أشارت آيات القرآن لعظمة هذين الاسمين فجعلت سجود الوجوه جميماً للحى القيوم (وعنـت الوجوه للحى القيوم)^(٣) . .

الله تبارك وتعالى هو (الواحد) أي الغنى الذي لا يعوزه شيء وكل ما في الكون بالنسبة إليه فاقد والله وحده هو الواحد وهو (الماجد) ، والماجد هو الذي اشتق اسم المجد منه ، وهو (الأحد) الذي لا يصمد له أحد ، وهو (الصمد) الذي يقصده كل أحد ، (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد)^(٤) .

من أسماء الله تعالى (القادر المقتدر) والقادر معروف ، والمقتدر مبالغة في القادر ، وقدرة الله تعالى هي القدرة التامة التي لا يعجزها شيء . . وهي قدرة لا تقارن بها قدرة ، وحين كان العرب يتشكرون في بعث الإنسان بعد أن يتحول إلى التراب ، أفهمهم الله تعالى باشارة « يتسع معناها يوماً بعد يوم » ان الله قادر على بعث التراب وتسوية البناء (أيحسب الإنسان أن نجمع عظامه ، بل قادر على أن نسوى بنائه)^(٥) ، وحين نزل القرآن منذ ١٤ قرناً لم يكن العالم يومها يعرف أن أصابع كل انسان في الأرض تحمل بصمة تختلف عن بصمة أصابع غيره . . لقد سوى بنان الانسان بحيث يختلف عن أي انسان آخر ، وفي عالم مقاومة الجريمة اليوم تلعب البصمة دورها كدليل نهائي وقاطع ، يؤخذ به المجرمون أو تتضح به البراءة . . وبأكفاً مما يحدث في الدنيا سيحدث في الآخرة ، سيعيد الله جمع العظام

(١) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٢) سورة ق ٤٣ .

(٣) سورة طه ١١١ .

(٤) سورة الاخلاص

(٥) سورة القيمة ٤ : ٣ .

وتسوية البناء ، وفي الإشارة إلى بصمات الأصابع إحياء مروع بأن أحداً من المجرمين لن يفلت يوم القيمة ، كما يمكن أن يقع في الأرض . . وفي الإشارة ظلال من القدرة الالهية التي ستحشر المجرمين بأدلة ادانتهم .

حظ العبد من هذين الإسمين أن يتذكر قدرة الله عليه فلا تدعوه قدرته لظلم الناس ، من أسماء الله تعالى (المقدم المؤخر) ، فهو المقدم لعباده الخير والنعم ، وهو المقدم إليهم الوعيد ، وهو المؤخر الآجال إلى أجل مسمى عنده ، وهو المؤخر للعذاب لعل العاصين يتوبون . . والله يعلم المستقدمين والمستأخرين ، بمعنى أنه يعلم بدايات الأشياء ونهايتها ، وجودها وفناها ، حكمتها ومعناها ، خوافيها وأسرارها . . وهو (الأول والآخر) ، هو سبحانه الأزلى الأول الموجود قبل أن يكون شيء . . وهو سبحانه البافى الأبدي الآخر بعد كل شيء . .

وهو (الظاهر والباطن) ، فكل ما ظهر في الوجود وبطن ، الله هو الظاهر عليه وهو المهيمن على باطنه ، ويرسم الأسمان صورة لحكم الله المسيطر . ومن معانى الظاهر أنه الظاهر بأثراه وخلقه ، ومن معانى الباطن أنه المحتجب بذاته وصفاته ، قال تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء علیم)^(١) .

(الوالى) هو مالك الأشياء ، المتولى لها الولى عليها ، الحاكم العالم بها ، الناصر لها ، الأخذ بيدها إلى كمال الخير . . والله هو (المتعالى) على كل شيء ، وهو (البر) بمعنى الرحيم وفاعل البر وهو الخير . والله هو (التواب) (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون)^(٢) .

والنواب مبالغة في التوبة ، وتوبة العبد هي رجوعه إلى الله سائلاً الرحمة ، وتوبة الله على العبد تعنى محو السيئة وإفاضة الرحمة ، وإذا كان الله هو التواب فهو سبحانه (المنتقم) وانتقام الله تعالى يعني وقوع عقابه على المجرمين . قال تعالى : (أنا من المجرمين منتقمون)^(٣) . والله هو المنتقم وهو (العفو) الذي يقدم العفو قبل تقديم العقوبة ، ويمحو الذنب

(١) سورة الحديد ٣ .

(٢) سورة الشورى ٢٥ .

(٣) سورة السجدة ٢٢ .

حين تتجه القلوب إليه بالدعاء والعمل الصالح ، وقد أشار إلى عفوه وغفرانه بصيغة الماضي إشارة إلى أنه سبحانه هو العفو الغفور الأزلى . قال تعالى : (وكان الله عفواً غفوراً)^(١) والله تعالى هو (الرؤوف) والرأفة كمال من كمالات الرحمة ونهاية من نهاياتها ، قال تعالى (وإن الله بكم لرؤوف رحيم)^(٢) والله هو (مالك الملك) ، باطلاق وبلا تحديد ، كل ملك وأى ملك ، الله تعالى هو مالكه الحقيقي وهو مستخلف الناس عليه ، والله هو (ذو الجلال والإكرام) والجلال صفة الجليل ، والإكرام مشتق من الكرم ، ولا حدود لجلال الله وإكرامه قال تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)^(٣) .

من أسماء الله تعالى (المقطسط) وهو اسم مشتق من العدل ومعناه قمة العدل وذروته . قال تعالى : (وأقسطوا إن الله يحب المقطسطين)^(٤) . ومن أسمائه (الجامع) . . . ومن معانيه جمع أجزاء الخلق بعد أن تفرقت في تراب الأرض ، وجمع الناس يوم الفصل والحساب ، وجمع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)^(٥) .

من أسمائه (الغنى المغني) ، والغنى الحميد حقاً هو الله (إن الله هو الغنى الحميد)^(٦) والمغني حقاً هو الله ، (وإنه هو أغني وأقنى)^(٧) . وهو (المانع) الذي يرد أسباب الهملاك ويوحى بالأمن ، وهو المانع من فضله من يستحق المنع ، وهو (الضار النافع) الذي يضر ويغنى ، ويمنع ويمنح ، ويضر وينفع ، ويأخذ الناس بالأساء والضراء لعلهم يتضرعون : (فأخذناهم بالأساء والضراء لعلهم يتضرعون)^(٨) والله هو (النور) ، والنور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره ، قال تعالى (الله نور السماوات والأرض)^(٩) . وكل نور في السماوات والأرض هو مصدره وخالقه ، ويوم القيامة حين يهلك نور الشموس والنجوم تشرق الأرض بنور آخر . . (وأشارت الأرض بنور ربها)^(١٠) .

(٦) سورة لقمان ١٦ .

(١) سورة النساء آية ٩٩ .

(٧) سورة الحديد آية ٩ .

(٢) سورة الحج ٤٨ .

(٨) سورة الرحمن آية ٢٦ : ٤٢ .

(٣) سورة الرحمن آية ٢٦ .

(٩) سورة النور ٣٥ .

(٤) سورة الحجرات ٩ .

(١٠) سورة الزمر ٦٩ .

(٥) سورة النساء آية ١٤٠ .

من أسماء الله تعالى (الهادى) الذى يهدى القلوب إلى الحق ، ويهدى إلى السبيل ، ويهدى إلى الصراط المستقيم ، و (البديع) ، أى مبدع الأشياء ، البديع فى ذاته فلا مثيل له ولا كفء ، (بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء علیم)^(١) وهو (الباقي) وهو (الوراث) الذى يرث الأ��وان والخلائق .. قال تعالى : (والله ميراث السماوات والأرض)^(٢) ، وإذا كان الله تبارك وتعالى يرث السماوات والأرض ، فهو يرث ضمنا البشر الفانين بكل ذهبهم وثرائهم وأحلامهم وأمالهم وصراعاتهم ولعب الصبيان التى كانوا يتقاتلون عليها في الأرض .. يعود كل شيء إلى الله ، ويقف البشر بين يدى وارثهم وخالقهم (الرشيد) ، الذى أرشدهم إلى ما فيه خيرهم ، والذى لا يسهو في تدبیره ولا يلهو في تقديره .. (الصبور) على الخلق في كل حال ، المبالغ في صبره عليهم ، فلا يأخذهم في الحال ، وإنما يؤخرهم حتى يتربوا فيسرع إليهم بالعفو ..

* * * * *

هذه أسماء الله الحسنى عند جمهور العلماء ..

وقد ورد ذكر اسم الله الأعظم في أكثر من حديث .. أرجح ما ورد فيها من حيث السند ، ما رواه بريدة رضي الله عنه ، قال : « سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو ويقول : اللهم انى أسألك انىأشهد انى أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسي بيده ، لقد سأله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » ..

* * * * *

أيضاً ورد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (والهكם إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)^(٣) (ألم .. الله لا إله إلا هو الحي القيوم)^(٤) ..

(١) سورة الأنعام ١٥١ ..

(٢) سورة الحديد ١٠ ..

(٣) سورة البقرة ١٦٣ ..

(٤) سورة آل عمران ١ ..

كما روى عن سعد بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم ، الذي إذا دعى به أحباب ، وإذا سئل به أعطى . . الدعوة التي دعا بها يونس حيث نادى في الظلمات الثلاث (لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين)^(١) .

قال رجل : يا رسول الله . هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟

قال رسول الله : ألا تسمع قول الله عز وجل (فاستجبنا له ونجناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)^(٢) .

.....

اختلف العلماء في تعين اسم الله الأعظم على نحو الأربعين فولا . .
وكان اختلافهم راجعاً لأسانيد الأحاديث التي أخذوا بها أو لم يأخذوا بها ،
ومعنى هذا عند بعض العلماء أن الاسم الأعظم لم يعيّن بالذات ، وفي العلماء
من يرى أن الأسم الأعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه سبحانه ،
إذا دعا به الإنسان وتتوفرت شروط الدعاء استجابة الله . . وفي الناس من
يتوهم أن هذا الإسم سر من الأسرار ، يمنح بعض الأفراد ، فيفتحون به
المغاليق ، ويخرقون به العادات ، وهذا أمر زائد عما ورد عن الله
ورسوله . . وهو اجتراء على الله ورسوله .

ونحن لم نؤمر بالإضافة لدينا أو النقص منه .

قال تعالى في قصة سليمان حين أمر أن يحضروا له عرش بلقيس (قال
الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرك)^(٣) .

ذهب بعض العلماء إلى أن هذا العلم من الكتاب ، كان هو اسم الله
الأعظم . . واختلفوا في الشخص فقال بعض المفسرين أنه أصף بن
برخيا ، وقال البعض أنه كان جبريل عليه السلام ، وقالوا أن اسم الله الأعظم
هو (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)^(٤) .

وهذا كله غير محقق ، ولا مؤكد ، ولقد كانت حياة سليمان عليه السلام
تمثلاً بالأمور الخارقة للعادة ، فهو يكلم النمل ، ويعرف منطق الطير ،

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٢) سورة البقرة آية الكرسي .

(٣) سورة النمل آية ٤٠ .

(٤) سورة الأنبياء آية الكرسي .

ويستخدم الهدى ، والجن مسخر رهن اشارته ، وعرش بلقيس يحضر إليه فى
أقل من غمرة عين . .

غير أن هذا كله كان وقفا على سليمان . . ولم نعرف في عصر النبي
صلى الله عليه وسلم أن الريح كانت تحمل جنوده كما حملت سليمان . . لم
يثبت لدينا أن المعجزات والخوارق كانت هي الأساس في دعوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم . .

إنما كانت الدعوة كتابا هو القرآن . .

ورجال أخذت أخلاقهم بخطها من القرآن . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تخلقا بأخلاق الله تعالى) وهذا
معناه خذوا من أسمائه وصفاته ما يليق ببشريتكم فاجعلوه خلقا ، وهذا ما حمل
الغزالى على كتابة التنبيةات فى نهاية شرحه لكل اسم من أسماء الله .

· · · · ·

نريد أن نغضن الطرف عن اختلاف العلماء حول اسم الله الأعظم . .
ونريد أن ننكر على الذين يزعمون أن معرفتهم تجاوزت معرفة النبي
صلى الله عليه وسلم فهم يفتحون به المغاليق ويعلمون به الأسرار ، ونريد
أن نقول أن الذين يزيدون بالقول أو بالفعل في هذا المجال يعرضون أنفسهم
لغضب الله .

أن الطريق واضح . . أما أن نقبل أصح الأحاديث الواردة . فيكون اسم
الله الأعظم هو ما نطمئن إليه حسب الأسانيد التي نرتضيها .
وإما أن ننقض أيدينا من الخلاف والاختلاف ونفهم أن اسم الله الأعظم
وراء هذا كله .

· · · · ·

· · · · ·

سؤال ذو النون شيخه : ما تجريد التوحيد .

قال الشيخ : فقدان رؤية ما سواه .

سؤال ذو النون : ما اسم الله الأعظم .

قال الشيخ : أن تقول الله وأنت تهابه . .

قال ذو النون : كثيرا ما أقوله ولا تدخلني هيبة .

قال الشيخ : لأنك تقول الله من حيث أنت . . لا من حيث هو . .

الحوار السابق يدور بين اثنين من العارفين بالله .

شيخ وأستاذه . .

سأل الشيخ أستاذه عن اسم الله الأعظم ، فصرفه بالرفق إلى أن يقول الله

وهو يهابه . .

والهميّة شعور نفسي تعنى أن يستحضر العبد عظمة الله وجلاله في

قلبه . .

وتعنى أن ينسى موقفه كإنسان خلق من تراب ، ويدرك أنه يسأل ذو

الجلال والإكرام . .

ثمرة الحوار أن اسم الله الأعظم يتوقف على حال العبد . . على إحساسه

القلبي وحقيقة مشاعره . .

مغزى الحوار أن اسم الله الأعظم يتوقف على حب العبد لله عز

وجل . .

وكلما أخذ العبد بحظه من حب الله . . دنا من حقيقة اسم الله

الأعظم . .

حب الله

قال تعالى : (والذين آمنوا أشد حباً لله)^(١) .
تعنى الآية أن حب الله تبارك وتعالى صفة من صفات المؤمنين ، وغاية
من غايات وجودهم . . ويستخدم النص القرآني تعبير (أشد حباً لله) اشارة
إلى عمق الحب وصفاته وخلوصه .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناساً قالوا له : يا رسول
الله أنا نحب ربنا حباً شديداً . . فنزل قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله)^(٢) وبهذا النص صارت طاعة رسول الله صلى الله
عليه وسلم علامة على صدق الحب لله عز وجل . .

تقوم العقيدة الإسلامية على جناحين هما العقل والحب . . والحب نسيج
أصيل من أنسجة الكون . . يتحدث الله تبارك وتعالى عن غاية الخلق وهدف
ال الخليقة قائلاً (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(٣) .
فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة ، والمعرفة أشمل من العبادة وأعم ،
ينفتح داخلك كون على الكون الأكبر ، تفهم أن عليك أن تبدأ رحلة السفر في

(١) سورة البقرة من الآية ١٦٥ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ٣١ .

(٣) سورة الذاريات آية ٥٦

الكونين معا ، غير أن كل شيء في الدنيا نسبي ، والمعرفة الإنسانية نسبية وناقصة وتتغير .. لا بد أن يكون سبب الخلق شيئاً أكبر من مجرد المعرفة ..

والعبادة قمة من قمم المعرفة كما أنها قمة من قمم الحب أيضا .

يعتقد محيي الدين بن عربى أن الله قد خلق العالم ليقدم العالم حبه إلى الله ..

ويرى ابن القيم أن الله قد خلق العالم ليعبده العالم ، والعبادة هي قمة المحبة وكمالها ..

لماذا يريد الله منا أن نحبه ، إلا إذا كان سبحانه وتعالى قد سبقنا بالحب . لا يطلب أحد من أحد أن يحبه إلا إذا كان يسبقه بفضل الحب ، فما بالك بخالق له فضل الخلق إبتداء والإيجاد والإنعام والبعث إنتهاء .. الفرق بين حب الله لنا وحبنا البشري لأمرأة أو زهرة أو كتاب ، أننا نكمel أنفسنا الحائرة حين نحب ، ونكمel ذاتنا الناقصة حين نحب ، ونحتاج إلى من نحب ولهذا نحب ..

تعالى الله علوا كبيرا على هذا كله ..

معنى الحب في حق الله عز وجل هو العطاء والرحمة والرقة ..

.....
(ن .. والقلم وما يسطرون)^(١) .

يقسم الله تعالى بحرف وقلم وسطر من الكلمات ..

ذلك أن حرف واحدا يمكن أن يقود الإنسان إلى الله ..

حرف واحد ..

لو فكر الإنسان في قدرة الله الممثلة في خلق الحروف ، وخلق الكلمات ، وجعلها رموزا وإشارات ، وجعلها خطوطا تحتوى داخلها على الكون الأكبر ، وتملك القدرة وهي تمشي على الأوراق أن تعبر عن ملايين الصور والأحلام والدهشة والإكتشاف ، لو فكر الإنسان في هذا كله لعرف قدرة الله وأمن .

(١) سورة القلم آية ١ .

إن الفرق العظيم بين الإنسان والسلم الحيواني كله هو الحروف .
وظيفتها في عالم الإنسان وإنعدامها في عالم الحيوان . . .
تتفاهم الحيوانات فيما بينها بلغة خاصة ، غير أنها لغة غير مكتوبة .
عندما تكتب اللغة ، عندما تولد الحروف ، تومض أصوات الحضارة ،
وتنشأ العلوم والفنون والأداب ، ويولد الحب . . .

هل الحب فن ؟ أو مجرد احساس عابر ؟

تقوم حضارة الغرب المعاصرة التي نعيش في ظلها على أن أسهل شيء في الدنيا هو الحب . . وتحدث هذه الحضارة عن « الوقوع في الحب » إشارة إلى أن الحب شيء يخضع للصدفة والمؤثرات ، ويقع فيه الإنسان إن كان سعيد الحظ . . .

وهذا المفهوم السطحي هو المسؤول عن نسبة كبيرة من تعاسة النوع الإنساني ، ومن الأهمية البالغة أن نحدد توصيفنا للحب أولاً . .
إذا كان الحب إحساساً عابراً أو إحساساً وفتياً مثيراً فهذا يعني استحالة مناقشه أو التعرض له . . لأن الأحساس تتوقف على المؤثرات المجهولة ، ودراسة شيء مجهول لن تؤدي لنتيجة . .

والحقيقة أن الدراسات الحديثة في علم النفس تكشف أن الحب فن . .
وليس إحساساً عابراً ، الحب فن معقد كفن الجراحة أو الموسيقى أو التدريس أو الكتابة للمسرح ، فن يحتاج إلى المعرفة والجهد والإخلاص . . ومن الخطأ البالغ أن ننظر إلى الحب على أنه موضوع أو شيء أو سر ننتظر الواقع فيه أو العثور عليه . . الحقيقة أن الحب وظيفة إنسانية ، هو فن معقد كالحياة سواء بسواء ، ولعله فن أصعب من الحياة قليلاً ، لأنه ملح الحياة الذي تفقد مذاقاتها لو ضاع .

ما هو أسلوب تعلم أي فن ؟

المعرفة النظرية أولاً ومعرفة التطبيق ثانياً ، إذا أراد الإنسان أن يتعلم فنا كالطب ، وجب عليه أن يعرف عدداً من الحقائق عن الجسم الإنساني والأمراض المختلفة . . بعد هذه المعرفة النظرية لا يمكن القول أنني تعلمت الطب ، إنما أحتج إلى طريق طويل هو ممارسة العلاج ومزاولة الطب نفسه ، حتى يجيء الوقت الذي تصير فيه المعرفة النظرية والمران العملي

وحدة لا تنفصل . . ساعتها يملك الإنسان فنه ، ولكنه لا يصبح سيدا في فنه إلا إذا توفر عنصر ثالث . . هذا العنصر هو التفاني المطلق أو الاهتمام البالغ ، بحيث لا يصير في العالم كله شيء أهم عندي من الطب .

يصح هذا الكلام على الموسيقى كما ينطبق على الطب كما يجوز على الحب . . ومن المدهش أن الناس تنفق الجهد والمال لتعلم الموسيقى أو الطب أو التدريس أو الصناعة ، ولكنها لا تحاول تعلم الحب ، والسر في ذلك أن هذه الفنون في حضارتنا المعاصرة تقدم عائداً مجزياً ، أما الحب فكل عائد يرجع إلى الروح ، وليس الروح في حضارة الغرب المعاصرة في أهمية الصناعة أو التقدم المادي أو الرفاهية . الحب فن إذن . . وهو فن يرتبط بالمعرفة كما يرتبط بالعمل . .

الذى لا يعرف شيئاً لا قيمة له ، ومن الصعب على من فقد القيمة أن يحب . . لأن الحب هو الحجر الأخير في هرم القيم ، ومن المستحيل أن يوجد الحجر الأخير والهرم نفسه غائب . . إنما يقدر على الحب من يقدر على الفهم واللحظة والرؤى والإحساس والعطاء ، وكلما زاد ميراث الإنسان من المعرفة زادت قدرة القلب الإنساني على الحب . . من قوانين الحب أنه عطاء ، يحس فيه من يعطي أنه يأخذ . . والعطاء يحتاج إلى رقى في الإنسان ، لأن معظم الخلق يحبون أنفسهم فحسب ، وإنما يبدأ الإنسان بالخروج من ذاته وحب الآخرين كلما ارتقى علمه ونضجت شخصيته ووجوده ، وأى نظرية عن الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان . عن الوجود الإنساني . . نحن نعرف أن الإنسان جزء من الطبيعة . جزء من الأرض . جزء من عالم الخلائق الحية . ورغم ذلك فهو ليس طبيعة وليس أرضاً وليس حيواناً . إنما هو كائن جديد فيه هذا الحنين إلى الأرض الأم ، وفيه في نفس الوقت هذا البعـد الهائل عن الأصل الذي جاء منه .

الإنسان حياة تعى أنها حياة . . هذا الوعى بالذات والآخرين والماضى والمستقبل سمة من سمات الإنسان ، يعى الإنسان أنه حياة منفصلة عن حياة الكون أو حياة الخلائق ، يعى الإنسان أن عمره قصير على الأرض . . يعى أنه جاء إلى الحياة بغير ارادته ، وسيذهب عنها بغير استئذانه ، سيموت الإنسان أمام أحبائه فلا يستطيعون له شيئاً ، وسيموت أحباؤه أمام عينيه فلا يستطيع لهم شيئاً ، هذه الغربة إزاء قوى الطبيعة والمجتمع والدولة ، هذا

كله يجعل وجوده سجنا لا يمكن احتماله . يتحول الإنسان إلى الجنون لو لم يحرر نفسه من غربة هذا السجن ، ويربط نفسه بالبشر ويتصل بالعالم الخارجي ، يحدثنا علم النفس أن تجربة الغربة أو الإنفصال توفر القلق وهي مصدر كل أنواع القلق . . فكون الإنسان منفصلًا يعني أنه مقطوع وغير قادر على ممارسة قدراته كإنسان . .

أن يكون الإنسان منفصلًا يعني أن يكون عاجزا ، غير قادر على الإمساك بالعالم ، غير قادر على الإمساك بالأشياء أو الناس ، غير قادر على ممارسة نشاطه ، وهذا يعني أن العالم يستطيع أن يغزوني بغير قدرة مني على الرد . وهذا يؤدي إلى الإحساس بالهزيمة ، ومن الهزيمة يولد الإحساس بالعار والذنب .

يرى علماء النفس أن أعمق حاجات الإنسان . . حاجته للتغلب على إنفصاله ، لأن الإنسان إذا انفصل عن العالم فقد رؤية العالم . . وزاد إحساسه بالغربة والرعب ، فهو يتوقع الهجوم عليه من عالم لم يعد يراه أو يتصل به . .

وليس هناك طريقة للإنصاف بالكون والآخرين غير الحب . .
أحب آدم حواء على الأرض ، وولد من حبهما النوع الإنساني .
وبغير الحب تتحول الحياة إلى سجن إنفرادي وعزلة فاسدة . .

.....

ما هو موقف العقيدة الإسلامية من الحب ؟

ما هو مفهوم الحب عند هذه العقيدة .

لا نعرف عقيدة تربى اتباعها على الحب كالإسلام . . ربما كان الإسلام لا يتحدث كثيراً عن الحب ، ربما كان لا يستخدم الكلمة بوفرة في أحاديثه . لأنه يعرف حقيقة الحب ويمارسه بنضج في حياته اليومية . .
إذا كان الحب هو الحل الوحيد أمام الإنسان ليخرج من سجن الذات إلى إتساع الكون ورحابة الآخرين . . فإن الحب - بأعمق من هذا المفهوم - جزء من أصول الإسلام وقواعده . . لأن الإسلام يصل المسلم بالله أولاً وأخيراً .
لا يكو المسلم وحيداً ولا غريباً وإن ترك وحده ، يعرف المسلم أن الله تبارك وتعالى معه . .

يصل الإسلام أتباعه بالله مباشرة . يصلهم بخالق الكون ومصدر

الأمان . ويؤكد لهم أن الله معهم في كل وقت (وهو معلم أينما كنت)^(١)
هذا الاتصال أول شيء يتعلمه المسلم كمعرفة نظرية ..

أول شيء بنى عليه الإسلام هو شهادة « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، هذه
الشهادة تعنى خروج الإنسان من غربته ووحدته وإتصاله بالله ..
فالشهادة شهود ويفين ..

وإذا شهد الإنسان أن له ربا يبسط عليه خيام المن الإلهي والرحمة .
إذا أيقن الإنسان أنه ليس وحده في الكون .. إذا وقع هذا وذاك تحرر
الإنسان من الغربة والخوف ، وتحررت طاقاته ومواهبه من قيود
السكون .. عندئذ يصير الإنسان حرا ..
من أصول العقيدة الإسلامية أن يصلى المسلم خمس مرات في
اليوم ..

والصلوة هي التطبيق العملي ، للمعرفة النظرية التي تقولها شهادة لا إله
إلا الله ، والصلوة حركات يقوم بها المسلم ، يسجد فيها ويرکع ، يقرأ القرآن
ويدعوا ، يذكر الله ويشكره .. وقبل هذا كله وبعدة يحب الله .. إذا الصلاة
صلة بالله .. يقف الإنسان فيها خمس مرات في اليوم بين يدي ربه
سبحانه ..

وارحم ملوك الأرض وأعدل حكامها لا يقابل رعاياه في الأسبوع مرة ،
ولكن الله الرحيم العظيم يقابل عباده في اليوم خمس مرات .. وأرحم ملوك
الأرض وأعدل حكامها يضيق بطلبات رعيته ويكره أن يسأل .. ولكن الله
الكريم العزيز يحب أن يسأل الناس من كل شيء . فهو سبحانه الذي حدث
الناس أن خزائن جوده ورحمته تتعالى على النصبان والنفاد ..

الشهادة في الإسلام اتصال بالله وحب

والصلوة في الإسلام اتصال بالله وتطبيق عمل للحب ..

والزكاة في الإسلام تصرف اقتصادي ينطوى على فعل من أفعال
الحب ، هدفه إنتشال الفقراء من الفقر وإسعادهم بالحياة الكريمة ..

والصوم في الإسلام إمتناع عن حاجات الجسم إلى الطعام والشراب حبا
في الله وطاعة لأمره ..

(١) سورة الحديد من الآية ٤ .

والحج في الإسلام تعظيم لشعائر أقامها إبراهيم . وإبراهيم هو النبي الذي اخذه الله خليلا .. وإحياء شعائر إحياء لشعائر حب الإنسان الله . وحين يجيء العيد ويحتفل المسلمون بذبح الأضحى يحتفلون في نفس الوقت بقصة النبي الذي أمره الله أن يذبح ولده فاطعاء .. وكانت طاعته إشارة إلى أن المسلم هو الذي يحب الله أكثر مما يحب نفسه أو أبناءه ..

أى تأمل للعقيدة الإسلامية يوحى أنها تقوم على الحب .. نوع من أرقى أنواع الحب وأعظمه .. حب الله تعالى .. وحب الكون .. وحب الإنسان والحيوان والنبات والأخلاق ..

حتى الجهاد في الإسلام ينطوى في أعمقه على لون من أعظم ألوان الحب .. يعتبر المسلم أن الأرض هي أرض الله التي استخلف الإنسان عليها ، والمسلم خليفة في الأرض ، وهو مسئول بوصفه هذا أن يجاهد في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .. المسلم مسئول عن الشر الموجود في الأرض ، الأصل المفروض أن يقاومه . المسلم مسئول عن آلام النوع البشري ، الأصل المفروض أن يحارب الألم . وكل صور الألم كالطغيان والفساد والخطايا هي معارك جهاد ينبغي على المسلم أن يرفع سيفه فيها ، لقد كان الجهاد في الإسلام منطويًا على حب عميق للنوع البشري .. كان الملوك والجبارين والطغاة يمنعون عن الناس ضوء الحقائق . ويعنون الناس من الاتصال بالله . ويقونون ضد رقى العقل البشري وينتكسون به إلى عبادة الطغاة والذهب وكان على الإسلام أن يرفع سيفه وقرأنه ، كان السيف هديته القاصمة للجبارين ، وكان القرآن إذانا بفتح النوافذ على شمس الروح ..

هذا هو المسلم كما تصنعه عقيدة الإسلام ..

إنسان يحزنه البؤس الإنساني ، ويحس بالعار عندما يرى أمامه تعasse ليست من صنعه ، ويضحي بنفسه وما له من أجل تقليل كمية الحزن في العالم . المسلم مسئول عن النوع البشري كلـه . إذا كان يملك القوة للتغيير الحياة رفع سيف الجهاد ، فإن لم يملك القوة فعليه أن يدعو للناس جميعاً بالهدایة ويصلح نفسه .

هذا الحب الذي أنطوت عليه العقيدة الإسلامية هو المسئول عن إنتشارها كضوء الشمس في بداية الدعوة ..

ومازالت الشمس موجودة وإن كنا لا ندير الرؤوس نحوها .

تقوم العقيدة الإسلامية على حب الله للإنسان ، فهو الذي خلقه بيديه ، وهو الذي نفح فيه من روحه ، وهو الذي أسكنه الجنة ، وأسجد له الملائكة سجود تكريم ، وهو الذي غفر له حين أخطأ وتاب ، وهو الذي أهبطه إلى الأرض تحقيقاً لأمره ، وهو الذي كرمه وفضله ، (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً)^(١) .

ادرك العارفون بالله قيمة الحب في حياة الإنسان . . واختاروا حب الله عز وجل . .

يقول شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومي :

حب الله جوهر الأديان . وهو أصل خشوع القلب وطهر اللسان .
أشعل في روحك نار طهر الحب ثم أحرق بها كل فكر .
فإن أخطأ المحب في التعبير فليس بخاطئ وإن كان مغللاً بالدماء .
فلا تغسل الشهداء فالدم أولى بالشهداء من الماء وخطأ المحب خير من
ألف صواب .

إنك تبصر النقش في المرأة وما هو إلا خيالك وليس صورة المرأة .
الأنفاس التي ينفثها لاعب الناي في الناي ! هل تنتهي للناي .
فليكن في سجودك صفاء روحك ولتدرك معنى دعائك .
وقل يا من سجودي مثل وجودي غير أهل لرجائك .
إن هذه الأرض لتحمل أثراً من حلمك وعفوك واقتدارك .
تخفي قذى انفسنا تحت الثرى ومن اريج الزهر يفوح عطر سخائك .
منذ أكثر من سبعين عام ، ولد جلال الدين الرومي في مدينة بلخ الرومية ، ولقد قدر لهذا الرجل أن يكون حاملاً لواء الدعوة إلى الحب . .
كانت تجربة المعزلة مع العقل قد تركت جفافاً في المجتمع الإسلامي ،

(١) سورة الاسراء آية ٧٠ .

وكان الناس في حاجة لعلم جديد للكلام ، علم لا يستخدم منطق اليونان وتعبيرات الفلسفة ، وإنما يوقف أعمق القلب ويستخرج كنوز الوجدان . ولقد ترك جلال الدين الرومي أثراً من أخذ الآثار الأدبية في العالم هو « المثنوي المعنوى » ، وهو ٦ مجلدات تضم ٢٥ ألف بيت من الشعر المكتوب بالفارسية . . ويرى جلال الرومي أنّ أمراء الكون هم العاشقون يرى أن الطريق إلى الله يمر بقلب الإنسان . . وإذا كانت حواس الظاهرة هي أدوات العقل لتبيين طريقه ، فإن هذه الأدوات تستمد قوتها من الأبدان والأشباح ، أما الخواص الباطنة فتستمد غذاءها من النفوس والأرواح . . والأجسام فطرت على الظلام ، والأرواح فطرت على النور ، والذين اعتمدوا على حواسهم الظاهرة واقتصروا عليها وأنكروا ما عداها ضيعوا حواسهم الباطنة وقدوا فواهم ومواهبهم التي منحها الله لهم . . وسترّت عنهم حقائق عديدة . .

وشأن كل العاشقين يرى الرومي أن أنواع الألم في الدنيا كثيرة أهمها وأخطرها ألم البعد عن الله . . ولهذا لا ينظرون إلى الموت نفس النظرة التي يراه بها الناس ، لا يعتبره نهاية لحياة ثمينة ، وإنما يراه مقدمة لحياة خالدة باقية ، إن العمران لا يكون إلا بعد خراب ، وأى كنز مدفون يحتاج إلى حفر الأرض وإثارتها ، والشجرة لا تعطى ثمارها حتى تتفتح وتسقط الأزهار ، فإذا رأيت بيتك يتهدّم ويمضي إلى الخراب فاعلم أن هناك بناءاً جديداً ، والروح لا تقوى على ارتداء كسوة جديدة إلا إذا تهدم الجسم الفاني ، وذهب العمر القصير ، إن الله وهو الكريم المطلق ، لا يسلب نعمة إلا ويعطي نعمة أكبر منها ، فهو سبحانه لا يسلب هذه الحياة الضعيفة ، إلا ليعطي حياة أفضل منها وأكرم ، وأجمل وأبقى . .

دعا جلال الدين الرومي إلى الحب دعوة رائعة ، وراح يتقدّم في أعماق هذه العاطفة فإذا هي محور يدور حوله الكون والانسان والأخلاق . يرى العلماء أن حضارة الغرب المعاصرة تصنع إنساناً ينتظر الواقع في الحب . . إنساناً يعتقد أن الحب أسهل شيء ، وأجمل شيء أن يكون المرء محبوباً لا أن يحب . . ويعتقد العلماء أن هذا هو السر في تعاسة الإنسان المعاصر ، لأنّه ينتظر أن يهبط عليه الحب ، بينما هو نفسه لا يعرف كيف يحب لأن أحداً لم يعلمه كيف يحب . .

أما حضارة الإسلام العظيم فقد صنعت ناسا مثل جلال الدين الرومي والغزالى والجندى ، وصنعت مفهوما للحب يتمثل فى العطاء الدائم والجهد المستمر .

يقول العارفون بالله ليس لكل إنسان أن يكون محبوبا فهذا يحتاج إلى صفات وفضائل لا يملكها كل واحد ، ولكن لكل إنسان أن يأخذ نصيبه من الحب وينعم به . .

إذا فاتك يا سيدى أن تكون محبوبا ، فلا يفتاك أن تكون محبا ، وإذا لم يكن حظك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك أن تصير يعقوب . .
إلى أي مصدر ينبغي أن يوجه الحب . . وهو نور الحياة وقيمة الإنسان ؟

إن الحب العظيم لا يليق إلا بالعظيم . . والحب الباقي لا يليق إلا بالخالد . .

قال ابراهيم عليه الصلاة والسلام (لا أحب الآفلين) .
وإذن لا يستحق الحب غير الحى الذى تستمد منه الحياة .
وليس للمحب أن يشكو من تدنيه وسموه محبوبه . . ليس للمحب أن يشكو أنه وهو هيكل من تراب قد جرؤ على حب نور السموات والأرض . .
إن صقر الحب حين طار من وكره لم تراوده نفسه إلا بالنزول لهذا التراب
الذى عجن بالمشقة والجهد المتواصل . .

وأصل الحب إنكسار القلب ، ومنشئه جرح الفؤاد . . وهو علة
لا تشبهها علة ، هو علة تختلف عن كل علة . . هو علة تشفى كل علة . .
والحب شعلة إذا التهبت أحرق كل ما سوى المحبوب ، مثلما أن التوحيد
سيف إذا سله صاحبه قطع كل ما عدا الله . .

يقول الرومى « إن حكاية الحب لا تنتهى . . وتتفي الدنيا ولا تنقضى
عجباته . . لأن الدنيا لها بداية ولها نهاية ، والحب وصف من لا يفنى
ولا يموت » .

هذا رأى الصوفية فى الحب . . إنهم يرونـه سببا من أسباب الوجود
وسرا من أسرار الخلق . .

وينفرد التصوف من بين أساليب المعرفة ، بأنه لا يفترض وجود حقيقة
مطلقة فحسب ، وإنما حقيقة مطلقة يمكن معرفتها والإتصال بها . . وهو ينكر

أن المعرفة الإنسانية فاقدة على معطيات الحس أو سعي الفكر أو جهد العقل . . فإن هذا فصل لمواهب الإنسان وتجزئه لطاقاته ، فليس الإنسان عقلاً فحسب ، إنما هو قلب وذوق ومشاعر وحدس .

قال الإمام الغزالى - حجة الإسلام - عن الصوفية :

ظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وكما أن هناك فرقاً بين أن يعلم الإنسان حال الصحة وحال الشبع ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان فكذلك فرق بين معرفة حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا .

رأى الغزالى أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وهم أهل ذوق وسلوك وليسوا أهل سماع وتعلم .

التصوف تجربة روحية . . وهو تجربة بدأت بالزهد ، ثم تحولت إلى التصوف . .

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الحب لله عز وجل يأخذ أرفع صوره ، ويتمثل في الجهاد في سبيله والتحرير . . وبعد نشوء الدولة الإسلامية وإتساعها وثراء المسلمين ، أحس بعض العلماء أن الدنيا تقبل على المسلمين بصورة أقرب إلى المحنـة . . وخشي هؤلاء على دينهم ان تأكله دنياهم فزهدوا . . وفي البدء كان الزهد تصرفًا فردياً ، ثم ما لبثت الحياة أن تعقدت واتصل المسلمين بثقافات وفلسفات وأفكار وتجارب روحية ، ونشأ التصوف من بذرة الزهد القديم ، وسرعان ما نمت البذرة . . نتيجة إتصال الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى وتعدد الثقافات وتنوعها وتفاعلها ، وصار التصوف شجرة باسقة الأغصان مليئة بالثمار . . وصحيف أن هذه الشجرة هي الثورة الروحية في الإسلام ، ولكن الصحيح أيضاً أن جزءاً من ثمارها لا يحمل مذاق الإسلام . . ولعل السر في ذلك يرجع إلى الغلو . . إن الإسلام كدين لا يقر الغلو في شيء على حساب شيء آخر . . ولا يقر المبالغة في جناح على حساب الجناح الثاني ، وميزة الإسلام الأولى أنه يهوي للإنسان توازناً مدهشاً يجعل طاقاته أقدر ما تكون على العمل . . وأقوى ما تكون على الفعل ، يعرف الإسلام حب الله تعالى . . ولكنه لا يعرف الرهبة . . يحترم الإسلام العقل ، ولكنه لا يجعل له السيادة على

الروح ، يقدر الإسلام حقائق الوجود ، ولكنه لا يسمح لها بـشـل حركة العقل . . يعترف الإسلام بـ حاجات الإنسان في الدنيا ، ولكنه لا يجعل الدنيا كلـهم المسلم ، يؤكـد الإسلام أن الآخرة هي أـخطر شـيء في الـوجود ، ولكنه يجعل الدنيا طرـيقاً إـليـها ، وهـكـذا يـمضـي كلـشيـء في الإـسلام مـثـلـماً يـمضـي الجـسد الإنسـانـي في عـقـرـيـته وـتوازـنـه . . لا يـطـغـي فيه جـناـح على جـناـح ، أو عـضـو على عـضـو ، أو وظـيفـة على وظـيفـة . .

وعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الشخصية الإسلامية في قمة تكاملها ، سواء في النماذج الفريدة أو المتوسطة على السواء ، وكانت العقيدة الإسلامية في أوج تناقضها مع الشخصية الإسلامية . . كان كل شيء يعيش معا في سلام . . إن بذور علم الكلام موجودة في التوحيد وبذور التصوف موجودة في الزهد ، ولكن كلا منها كان يشبه أعضاء الجسم ، لا يحس بها أحد مادامت تعمل في سلام وصحة ، وإنما يبدأ الإحساس بها أو ببعضها عند المرض . .

وحيث انفتحت حياة المسلمين على العالم ، تعافت أسباب النمو وأسباب الضعف على النزعتين ، سواء العقلية أو الوجدانية ، وصار أي نمو لإحدى النزعتين على حساب الأخرى ، أمر يخل بإنسجام الشخصية الإسلامية . . وقد رأينا كيف وصل الأمر بالمتكلمين إلى اعتبار الحياة عقلاً جافاً فلسفياً يتنهى اعجاباً بنفسه ، ورأينا كيف وصل الأمر بالصوفية إلى اعتبار الحياة وهجاً لحب يخلو من العقل . .

وصل الصوفى أبو يزید البسطامى إلى موقف يقول فيه « رفعنى مرة فأقامنى بين يديه وقال لى يا أبا يزید إن خلقى يحبون أن يروك ، فقلت زيني بوحادئتك ، وأرفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رأنى خلقك قالوا رأيناك ، ف تكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك ». .

هذا الكلام لا يعبر في قليل أو كثير عن العقيدة الإسلامية ، ومن هنا
كان إنكار ابن أبي داود الظاهري وإفتاؤه بقتله . . وقوله أن المحبة على هذا
النحو لا تجوز على الله تعالى . .

والحق أن غلو الصوفية وشطحاتهم هي تعبير فني أو أدبي عن شعورهم ، وهي لا تحتسب على الإسلام ، لا تضاف إليه ولا تخصم منه ، فهي فن يصدر من عشاق سكرروا بخمر الحب ..

ولا بأس عليهم أن يسکروا بخمر الحب ، ما داموا بعيدين عن أصول
العقيدة ..

نحن نعرف أن الحب احترق القلوب .. والقلوب التي احترقت
لا تفرض عليها القوانين ولا تؤخذ منها الضرائب ، ولا تخضع لما يخضع له
الكافة ولا تحاسب على ما أبقاءه الحريق منها ..

نعرف هذا كله ونحترمه كإنتاج أدبي عظيم ، ولكننا نحب أن نقول أن
هناك فرقاً بين العقائد ورؤى الفنانين لهذه العقائد ..

وأمامنا الإسلام وعقائده سليمة قد حفظها الله ..

أمامنا المثل الأعلى لحب الله عز وجل ..

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى في سورة الأحزاب :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيرا) .

كلمة عن الكتاب

هذا كتاب جديد في علم التوحيد . .
وقد اخترت أن أكتب عن الله تبارك وتعالى في العقيدة الإسلامية ، لأنها
هي الدين الوحيد المقبول عند الله .

وقد لاحظت أن معظم الكتب المعاصرة التي صدرت عن الله ، كانت
تتحدث عن تطور فكرة الله عند الإنسان ، إبتداء من نشأة العبادة الوثنية
وإنتهاء بآديان التوحيد وهذا معناه أن هذه الكتب لا تتحدث عن الله ، كما
يحدثنا هو سبحانه عن نفسه ، وإنما تتحدث عن فكرة الإنسان عن الله وفرق
هائل بين المعنيين . . ورغم احترامنا لمنهج الدراسات المقارنة في الأديان ،
واحترامنا لمنهج التاريخ لفكرة الله وتطورها عند البشر ، إلا أنها نرى الحاجة
ماسة إلى كتب من لون جديد . .

لون يشرف بالكتابة عن الله عز وجل من واقع العقيدة الإسلامية كإطار
حاكم ، ومن واقع التصور القرآني كمصدر أساسى ، ومن واقع أقوال الرسول
صلى الله عليه وسلم وأهل سنته والعارفين .

لون يربط القارئ بحب الله ، والثقة في رحمته ، والأمل في عفوه .

· · · · · · · ·

· · · · · · ·

ولقد كان هدفي من الكتاب أن يكون رسالة معاصرة في التوحيد ، توجه
أساساً لقارئ مسلم ، وحدد هذا الهدف منهجي في الكتاب . .
وقد حاولت جهدي أن أنظر وأفكر . .

وأعترف أنني لست مجتها في هذا الكتاب ، ولا ينبغي لي أن أكون
كذلك في ميدان كالعقائد والغيب ، كل ما فعلته أنني قدمت تصور السلف
والخلف لله عز وجل ، بأسلوب معاصر وعقل حديث ، هذا كل الجهد . .

وهو كما يرى القارئ لا شيء ..

وقد سألت نفسي بعد كتابته هل نحن في حاجة لكتب في علم التوحيد ؟
وتذكرت ما كتبه علماؤنا عن كتب التوحيد ، قال الأستاذ محمد الغزالى
أن كتب علم التوحيد التى تشييع بيننا ويدرس بعضها الطلبة فى المعاهد
الدينية ، قد فشلت فى أداء رسالتها شكلاً وموضوعاً ، فهى موزعة بين المتن
والشرح والhashiya والتقرير ، فى لغة ركيكة اللفظ سقمة الأداء ، لغة تصور
سقوط البلاغة العربية على عهد الاحتلال التركى ، كما أن هذه الكتب تزدحم
باصطلاحات الفلسفه وطرائق تفكيرهم ، كما أنها لا تمس الجانب الوجданى
فى المسلم .

ويرى الأستاذ مالك بن نبى أننا بحاجة إلى علم جديد للكلام ، يطلق عليه
اسم تجديد الصلة بالله .. ويمزح بين الوجدان والعقل ..

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسد جزءاً من هذه الثغرة .

والإنسان يبذل الجهد بتوفيق الله عز وجل ..

والله سبحانه هو الذى يعطى الثمرة ..

.....

أعرف أنها جرأة أن يكتب تراب خاطيء مثلى عن الله .. ولكن ..
ما زلت .. إذا كان الله قد خلق التراب قادراً على الحب والكتابة ..

.....

نسأل الله تعالى أن يغفر ويرحم ..

وندعوا لقارئه بالقبول والرحمة ..

أحمد بهجت

مراجع الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي .
- ٣ - تفسير المنار - الشيخ محمد عبده - طبعة رشيد رضا .
- ٤ - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق .
- ٥ - العقائد - حسن البنا - دار النور .
- ٦ - عقيدة المسلم - محمد الغزالى - دار الكتب الحديثة .
- ٧ - لمعة الاعتقاد - ابن قدامة المقدسي - المكتب الإسلامي .
- ٨ - كلمة الاخلاص - الحافظ بن رجب الحنفى - المكتب الإسلامي .
- ٩ - الرعاية لحقوق الله عز وجل للمحاسبى - مكتبة الجامعة المصرية .
- ١٠ - كتاب التوحيد واثبات صفات الرب - ابن خزيمة - مكتبة الكليات الأزهرية .
- ١١ - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - على بن أبي العز - تحقيق أحمد شاكر نشر زكريا على يوسف .
- ١٢ - شرح حديث النزول - ابن تيمية - الغزنوى .
- ١٣ - الإبانة عن أصول الديانة - الأشعري - فضى الدين الخطيب .
- ١٤ - كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية - للرازى - تحقيق حسين بن فيض الله الهمذاني .
- ١٥ - الله - طريق الهجرتين وباب السعادتين - ابن فیم الجوزية - إدارة الطباعة المنيرية .
- ١٦ - الله -قصد المفرد في معرفة الاسم المفرد - ابن عطاء الله السكندرى .
- ١٧ - التوحيد الذي هو حق الله على العباد - الإمام محمد بن عبد الوهاب - المكتبة السلفية بالمدینة المنورة .
- ١٨ - تفسير سورة الإخلاص - ابن تيمية - د . محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة أنصار السنة .
- ١٩ - أصول الایمان - الامام محمد بن عبد الوهاب - نشر فضى الدين الخطيب .
- ٢٠ - تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - دار العلم للملايين .
- ٢١ - علم أصول الفقه - الشيخ عبد الوهاب خلاف - دار القلم .
- ٢٢ - سفر المزامير - ترجمة محمد الصادق والأب دى بوركى الدومنكى - دار السلام .
- ٢٣ - رسائل العدل والتوحيد - الامام يحيى بن الحسين - تحقيق محمد عمارة - طبع دار الهلال .
- ٢٤ - رسالة الخلود - محمد اقبال - ترجمة دكتور محمد السعيد جمال الدين - مطبع سجل العرب .
- ٢٥ - مثنوي جلال الدين الرومي - ترجمة دراسة د . محمد عبد السلام كفافى - المكتبة العصرية .
- ٢٦ - ريانية لا رهيانية - أبو الحسن الندوى - دار الفتح بيروت .
- ٢٧ - مولانا جلال الدين الرومي - أبو الحسن الندوى - المختار الإسلامي .
- ٢٨ - المواقف والمخاطبات لابن عبد الجبار التفرى - مكتبة المثنى بيغداد .
- ٢٩ - العقائد الإسلامية - سيد سابق - دار الكتب الحديثة .

- ٣٠ - الامام المعتحن أحمد بن حنبل - أبو الحسن الندوى - المختار الإسلامي .
- ٣١ - رسالة التوحيد - للامام محمد عبده - طبع دار المنار .
- ٣٢ - المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى - حجة الإسلام الغزالى - مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٣٣ - أسماء الله الحسنى - الشيخ حسنين مخلوف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- ٣٤ - شروط النهضة - مالك بن نبي - ترجمة عمر كامل مكاوى وعبد الصبور شاهين - دار القلم .
- ٣٥ - أبو الحسن الأشعري - أبو الحسن الندوى - المختار الإسلامي .
- ٣٦ - فجر الإسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة .
- ٣٧ - ضحى الإسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة .
- ٣٨ - إيقاظ الهم في شرح الحكم - ابن عجيبة الحسنى - مصطفى البابى الحلبي .
- ٣٩ - ركائز الإيمان - محمد الغزالى - مطبعة الشعب .
- ٤٠ - رسائل العدل والتوحيد - للحسن البصري - تحقيق محمد عمارة - دار الهلال .
- ٤١ - شرح أسماء الله الحسنى للقشيري - تحقيق الحلواني - مطبعة الأمانة .
- ٤٢ - الطريق إلى الله - أبو سعيد الخراز - تحقيق دكتور عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة .
- ٤٣ - الأسئلة والأجوبة الأصولية - عبد العزيز محمد السلمان - الرياض .
- ٤٤ - المجدون في الإسلام - أمين الخولي - دار المعرفة .
- ٤٥ - فاذكروني أنذركم - د . عبد الحليم محمود .
- ٤٦ - المال والحكم في الإسلام - عبد القادر عودة - مطبعة دار الكتاب العربي .
- ٤٧ - خلق المسلم - محمد الغزالى - دار الكتب الحديثة .
- ٤٨ - التصوف ، الثورة الروحية في الإسلام - د . أبو العلا عفيفي - دار المعارف .
- ٤٩ - عوامل وأهداف نشأة علم الكلام - يحيى هاشم حسن فرغل - مجمع البحوث الإسلامية .
- ٥٠ - الإمام القشيري - دكتور ابراهيم بسيونى - مجمع البحوث الإسلامية .
- ٥١ - وجهة العالم الإسلامي - مالك بن نبي - ترجمة د . عبد الصبور شاهين - دار الفكر .
- ٥٢ - الإسلام في عصر العلم - محمد أحمد الغمراوى - مكتبة وهبة .
- ٥٣ - المعزلة ومشكلة الحرية الإنسانية - محمد عمارة - المؤسسة العربية للدراسات .
- ٥٤ - قضية الإلهوية - عبد الكريم الخطيب .
- ٥٥ - روائع إقبال - السيد أبو الحسن الندوى - دار القلم .
- ٥٦ - الله - عباس العقاد - دار الهلال .
- ٥٧ - النجوم في مسالكها - سير جيمس جينز - مطبعة كمبردج .
- ٥٨ - القضاء والقدر - محمد متولى الشعراوى - إعداد أحمد فراج - دار الشروق .
- ٥٩ - رسالة في القضاء والقدر (غير منشورة) لفضيلة الاستاذ ماهر اسماعيل شاهين .
- ٦٠ - الطريق إلى مكة - محمد أسد .
- ٦١ - الله يتجلى في عصر العلم - أشرف على تحريره جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور المرداش عبد المجيد سرحان ، راجعه الدكتور جمال الدين الفندي - نشر دار احياء الكتب العربية .
- ٦٢ - مجلة المسلمين - (من ٥٢ - ٥٤) .
- ٦٣ - التنمية الذاتية والمسئولة في الإسلام - للدكتور حسن صالح العناني - من مطبوعات الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية .
- ٦٤ - معالم التوحيد في القرآن الكريم - جعفر السبحانى وجعفر الهادى - طهران .

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة
موقف اعتذار	٥
توحيد الله	٨
فطرة الله	١٣
عهد الله	١٧
معرفة الله	٢٣
عطاء الله	٢٧
ذات الله	٣٢
الوعي بالله	٣٨
شهادة الله	٤٣
جنود الله	٥٤
رسول الله من الملائكة	٥٨
رسول الله من البشر	٦٧
كلمات الله	٧٥
يوم القيمة	٨٥
البعث	٩٧
الساعة والحساب	١٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
الجنة والنار	١٠٧
القضاء والقدر	١١٤
أحديّة الله	١٤٢
رحمة الله	١٤٦
قواعد التوحيد	١٥٢
حق الله	١٦٠
أيام الله	١٧٢
الشرك بالله	١٨٣
ذكر الله	١٩٧
خليفة الله	٢٠٤
حكمة الله	٢١٦
رؤيه الله	٢٢٩
شئون الله	٢٣٦
صفات الله	٢٤٠
علم الكلام	٢٥٢
أسماء الله الحسني	٢٧٥
حب الله	٣٧
كلمة عن الكتاب ومنهجه	٣٢٠
مراجع الكتاب	٣٢٢

**مطبوعات
مركز الاهرام للترجمة والنشر**

□ كتب للأطفال والنشء :

* في مجال العلوم :

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال

- طرائف والت ذيذنى بالكتومبيوتر

- ميكى يسأل ويجيب

(ترجمة : د . محمد أمين سليمان)

(ترجمة : د . أيمن الدسوقي)

(ترجمة: د . أحمد فؤاد باشا)

□ سلسلة علماء العرب :

* ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى)

* ابن الهيثم (عالم البصريات)

* البيروني (عالم الجغرافيا الفلكية)

* جابر بن حيان (أبو الكيمياء)

* ابن البيطار (عالم النبات)

(سليمان فياض)

□ في مجال التربية البدنية والرياضية :

- موسوعة جوقة الرياضية :

* السباحة والغطس

* الألعاب الأوليمبية

* العاب الأطفال

(ترجمة : نجيب المستكاوى)

□ في مجال ترقية المهارات والخيال :

* الوان الوان

* تعال نصنع

* رحلة صيد

* حكايات أمعجنتى

* حكايات عربية واسلامية

(حسين أبو زيد)

(حسين أبو زيد)

(شاكر المعاوى)

(يعقوب الشارونى)

(علية توفيق - رسوم : كمال درويش)

□ في مجال التربية الفكرية :

* حوار بين طفل ساذج وقط مثقف

(أحمد بهجت)

□ كتب في الابداع الادبي :

- (عبد الرحمن الشرقاوى)
- (احسان عبد القدوس)

* عرابى زعيم الفلاحين

* كانت صعبة ومحرونة

□ كتب في الابداع الفكري :

- (محسن محمد)
- (أحمد تيمور باشا)
- (د . يوسف ادريس)
- (أحمد بهجت)

* سرقة ملك مصر

* معجم الامثال العالمية مع كشاف موضوعى

* انطباعات مستقرة

* مذكرات صائم

□ كتب دينية :

- (د . بنت الشاطئ)
- (الشيخ احمد حسن الباقرى)
- (الشيخ احمد حسن الباقرى)
- (احمد بهجت)

* قراءة في وثائق البهائية

* القرآن مأدبة الله للعالمين

* معانى القرآن بين الرواية والدرایة

* الله في العقيدة الاسلامية

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٦ / ٣٦٦٣

مطبوع الأهرام التجارية القاهرة - مصر